مشروع الإمبراطورية الأمريكية

جيمس كارول

الحرب الصليبية

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

تواريخ حرب ظالمة

الجزء الأول

مكتبة الشروق الدولية

الحـــرب الصليـــبـــيـــة

تــواريــخ حــــــــرب ظــالـمــة

(الجزء الأول)

الطبعـــة الأولى
١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ _ ٤٥٠١٢٢٩ _ ٢٥٦٥٩٣٩
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

الحرب الصليبية

تواريخ حرب ظالمة

الجزء الأول

چيمس كارول

ترجمة: د. قاسم عبده قاسم

مكتبة الشروق الدولية

هذه ترجمة لكتاب:

CRUSADE

Chronicles of an Unjust War

James Carroll

Metropolitan Books
Henry Holt And Company / New York

مقدمة

ماذا تفعل أمريكا فى العراق؟

قبل بداية الغزو، قال الرئيس الأمريكى: إن صدام حسين خطر على المنطقة وعلى الدول المجاورة [١] - ولكن فى نظر الشعب الأمريكى لا يُعد هذا مبررًا كافيًا للغزو - فسرعانًا ما غيّر الرئيس ذلك إلى الزعم بأن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل [٢]، ثم ثبت كذب وزيف الأدلة التى قدمتها حكومة واشنطن لشعبها وللأمم المتحدة.

تغيّر سبب الغزو إلى علاقة صدام بالقاعدة، وأيضًا أثبتت لجنة تحقيق أمريكية كذب وزيف ذلك.

فلماذا غزت أمريكا العراق؟ ولماذا تبقى فيه؟ بل ولماذا لا تدفع - هى وبريطانيا - تعويضات لما ألحقته بالشعب العراقى خلال حصاره عشر سنوات، وأثناء العدوان عليه؟ - كما تدفع ألمانيا لإسرائيل تعويضات عما فعله النازى فى يهود ألمانيا فى أربعينيات القرن الماضى؟

سقط نظام صدام حسين - حليف أمريكا القديم - وأسرته القوات الأمريكية.

والآن ماذا تفعل أمريكا بعد كل ذلك فى العراق؟

جاء الزعم الأخير، والذى لا يصدقه تلميذ فى المدرسة الثانوية. . . أمريكا تريد بناء ديمقراطية فى العراق.

---

(١) لم نسمع فى العالم العربى اعتراضًا من حكوماته على ذلك، ولا بالطبع الرد الذى كان يمكن أن تقوله الحكومات، وهو أن إسرائيل هى الخطر الحقيقى - وهذا ما قالته شعوب أوروبا فى استطلاعات الرأى - وأنها هى التى تملك السلاح النووى، وأنها تحتل أراضى ثلاث دول عربية، وأنها انتهكت عشرات القرارات الصادرة من الأمم المتحدة.

(٢) ترددت أقاويل كثيرة فى أمريكا أن مخابرات الدول العربية المجاورة هى التى أكدت ذلك لواشنطن.

الكل فى الشرق الأوسط يعلم علم اليقين أن أمريكا تؤيد الحكومات المستبدة الفاسدة فى الشرق الأوسط، طالما قامت تلك الحكومات بخدمة الإدارة الأمريكية.

أوليست الديمقراطية حركة شعبية؟ أم هى إرادة خارجية؟

وأين تلك الديمقراطية، وعملية تزييف إرادة الشعب العراقى تحدث على مرأى ومسمع من كل دول العالم. . .

فها هى حكومة الولايات المتحدة متلبسة أمام العالم أجمع بتزوير إرادة الشعب العراقى فيما تسميه بلا خجل: انتخابات حرة (١).

يرأس الوزارة فى العراق أياد علاوى. . . وهو عميل سابق لصدام حسين والمخابرات العراقية، حتى ثمانينيات القرن الماضى. فانقلب على صدام بعد طول خدمة.

ترك علاوى العراق منذ حوالى ثلاثين سنة، وعاش فى انجلترا ثم أمريكا. . . تقلب فى تلك السنوات من المخابرات العراقية إلى المخابرات البريطانية، ثم الأمريكية. . . وعندما سُئل عن ذلك فى أحد المؤتمرات، ردّ قائلاً فى فخر وتباه: بل لى علاقة بأجهزة مخابرات ست عشرة دولة. . .

فى إحدى زياراته للولايات المتحدة فى آخر العام الماضى، ألقى كلمة فى الكونجرس يشكر فيها الولايات المتحدة على تضحياتها من أجل العراق. . . وقال بالحرف الواحد: لأول مرة فى تاريخ الشعب العراقى (أكثر من خمسة آلاف سنة) يصبح أمره فى يده! صفق له أعضاء الكونجرس عدة مرات، ووقفوا تحية له عدة مرات، وصافحوه بحرارة بعد كلمته، حتى إن چوزيف ليبرمان قبله ثلاث مرات، ربما على الطريقة العربية. . . وهكذا تكرم الحكومة الأمريكية كل من يخدمها.

ومنذ عدة أسابيع، ناشد الرئيس العراقى غازى الياور الأمم المتحدة لتأجيل الانتخابات، ولكن الإدارة الأمريكية رفضت وأصرت على أن تقام فى ميعادها. ألم يقل علاوى: إنه لأول مرة تصبح أمور الشعب العراقى فى يده؟

(١) راجع التحقيق الذى نشرته الأهرام لـ «مها النحاس» الصفحة السادسة، عدد ٢٣ يناير ٢٠٠٥م، والحوار الذى أجراه محمد الأنور مع حارث الضارى فى الصفحة السادسة عدد ٢٤ يناير ٢٠٠٥م.

ندد وزير الدفاع العراقى بالدول المجاورة بسبب تدخلها فى أمور العراق ـ يبدو أنه لا يرى القوات الأمريكية والبريطانية داخل العراق، أو لعله يظن أنهم عراقيون ـ بل ويهدد الوزير بأن العراق قد يضطر لأن يهاجم تلك الدول ـ ونسى أن القوات الأمريكية تقتل المقاومة العراقية؛ لأن الجيش والشرطة العراقية ـ الصناعة الأمريكية ـ أضعف من تلك المقاومة ـ فكأنه يهدد بأن يسلط الجيش الأمريكى على الدول المجاورة . . . . أو أنه قيل له قل ذلك، فقاله الرجل، بكل انضباط والتزام [1].

الإدارة الأمريكية تكرر فى العراق لعبتها القديمة فى أمريكا اللاتينية على مدار قرن كامل . . . تأتى بحكومة واجهة، ألعوبة فى أيديها، تنفذ لها خططها . . . فى الدولة، والدول المجاورة .

الشعب الأمريكى منقسم على إدارته . . . نصف الشعب إن لم يكن أكثر، لا يريد ذلك العدوان والغزو واستمراره . . . حصل بوش على ٥١٪ من الأصوات؛ لأنه أفلح فى ترويع الشعب الأمريكى من الإرهاب، وأنه وحده يستطيع القضاء عليه وتأمين الشعب . . . ولأنه أكد على أهمية القيم الأمريكية فى مقابل كيرى الذي يؤيد زواج الشواذ والإجهاض، وما إلى ذلك من قضايا الليبرالية .

هناك بالطبع نسبة من تلك الأصوات لها أجندتها الخاصة التى تؤيد ذلك العدوان والاحتلال بصرف النظر عن الإرهاب ـ والذى ثبت أن العراق ليس له أى علاقة به ـ من الإمبرياليين واليمين المسيحى الصهيونى، واليهود الصهاينة، ولكنها لا تمثل إلا جزءاً من الـ ٥١٪ التى حصل عليها بوش .

وفى هذا الكتاب، يعارض چيمس كارول الحرب الصليبية على العراق، وهو يراها ـ بصفته كاثوليكيًا يعرف تاريخ الحروب الصليبية ـ حربًا صليبية، فعلاً وليست فقط قولاً أو زلة لسان، ويراها إرهابًا، إرهابًا خالصًا، وسجل ذلك فى يومياته فى جريدة بوسطن جلوب .

---

(١) حول وزير الدفاع خمسمائة مليون دولار إلى مصرفين فى لبنان، بدون علم محافظ البنك المركزى، ولا وزراء الحكومة المؤقتة .

هناك المئات من الكتّاب والمفكرين فى الولايات المتحدة، الذين يعارضون سياسة الإدارة الأمريكية فى الشرق الأوسط . . . ومن وراءهم ملايين القراء والمستمعين والمشاهدين، يحبون وطنهم، الولايات المتحدة، و يريدون أن يكون له دور إنسانى فى قيادة العالم . . . بالعدل والتسامح، وتبادل المصالح والأفكار والقيم . . .

يتزايد هؤلاء الكتاب والمفكرون . . . ويتزايد من يقرأ لهم ويشاهدهم ويستمع لهم . . . .

ولقد خرجت، وما تزال تخرج، فى الولايات المتحدة مظاهرات ضد تلك الحرب الإرهابية البربرية، أكثر مما خرج من كل شعوب البلاد العربية . . . التى همّشتها أنظمتها (الديمقراطية) وجمدتها وأحبطتها، فأصبحت لا تشارك فى بناء مستقبلها ولا حاضرها . . فهى إما أن تنافق وتنتهز . . . أو تُضار وتُستبعد . . فآثرت الصمت والسلامة . . . وعزلت نفسها عن كل الشئون والأمور العامة . . . وانعزل كل فرد فى خصوصياته وكأنه لامصلحة عامة، ولا كيان عام يجمعهم، ولا أمة . . وحتى هاجر من تلك الشعوب الكثير من العقول والعبقريات ـ التى كانت بلادها فى أشد الحاجة لها ـ لتبنى الولايات المتحدة وغيرها من بلاد المهجر .

ولـ« چيمس كارول» . . . ولكل هؤلاء المفكرين والكتاب الذين يدينون تلك الغزوة الإرهابية . . . ولكل من خرج فى مظاهرات ضدها . . . فى الولايات المتحدة . . وخارجها . . . . وخاصة أولئك الذين يريدون للولايات المتحدة والغرب وجهًا مسيحيًا حقيقيًا . . . يقوم على السلام والمحبة، لا الكراهية والاستكبار والعنصرية . . . وينبذ العنف والدم، ويزهد فى المادة، ولا يقتل فى سبيلها . . . لكل هؤلاء، خالص تقديرنا واحترامنا، بل وحبنا . .

عادل المعلم

يناير ٢٠٠٥م

تقديم

عندما غربت شمس الألفية، كان العالم يتعرض لأمور مرعبة، إذ إن غالبية القلق «العقلانى» كان مشدود الوثاق إلى خلل متوقع من الكمبيوتر، هو مشكلة Y2K، بل إن أشد الناس ميلاً للعلم بَدَوْا مؤقتا، وكأنهم تحت رحمة قوى خرافية متسلطة؛ إذ قفزت الغيلان الخيالية من الكمبيوتر لتظهر فى الكوابيس مباشرة. فقد ألغت الخطوط الجوية الرحلات التى كانت مجدولة لليوم الأول من السنة الجديدة، لتكشف بذلك عن المخاوف من ألا تعمل أجهزة الكمبيوتر الخاصة بنظام التحكم فى حركة المرور. ولم يكن التقويم بحد ذاته مصدراً للهلع من قبل، ولكن على حين غرة، كان الزمن بحد ذاته يحمل خطراً جديداً. فعندما اقتربت سنة ٢٠٠٠م، اشتريت زجاجات مياه وعدداً إضافيًا من علب التونة. بل إننى سحبت مبلغًا كبيراً من النقود من البنك. وقد سخر منى الأصدقاء، ثم اعترفوا بأنهم فعلوا أشياء مشابهة. لم تكن هناك رقصات موت، أو اندلاع لعبادات متطرفة، ولكنها كانت حمى ألفية جديرة بخرافات العصور الوسطى، أصابت بعدواها أكثر الثقافات علمانية. وبطبيعة الحال، جاء التاريخ الغامض ومضى، وأبلت أجهزة الكمبيوتر بلاء حسنًا وحلقت الطائرات فى الجو، وعاد العالم إلى طبيعته.

ثم جاء الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م، الكارثة الألفية ـ متأخراً قليلاً، إذ سقطت الطائرات من السماء ومات الآلاف، وأمسك نوع جديد تمامًا من الرعب بقبضته الخيال البشرى. وكذلك أدى الزمان دوره، ولكن الزمان كما نسجه التليفزيون، الذى خلق تزامنًا وقتيًا على اتساع الكون، حول الجنس البشرى كله إلى

شاهد، عندما أعيد عرض الأحداث الفظيعة مرات ومرات، كما لو أن تلك الأجساد التى قفزت من البرجين التوءمين لن ترتطم بالأرض على الإطلاق. ولم يكن انهيار مركز نيويورك للتجارة العالمية قاصراً على الشوارع المحيطة فقط، ولكن الانهيار حدث فى قلب كل من شاهد الـ CNN. واتصل مئات الملايين من الناس بشكل غريزى بأولئك الذين أحبوهم وهم يشعرون بالامتنان لأنهم على قيد الحياة. لقد تجلى الموت بطريقة جديدة. ولكن إذا كانت جموع غفيرة قد عانت تجربة الأحداث المرعبة للحادى عشر من سبتمبر كما يعانيها رجل واحد، فإن رئيس الولايات المتحدة تحمل مسئولية فريدة لإيجاد طريقة يرد بها على ما حدث.

لقد غاص چورج دبليو بوش فى أعمق أعماقه بحثًا عن تعبير بسيط لما تحتم فعله هجمات الحادى عشر من سبتمبر. لقد كان دوره أن يقود الأمة، والعالم نفسه. ويحدد الرئيس فى لحظة أزمة الاستجابة الجماعية. فبعد أيام قليلة من الهجوم، قام چورج دبليو بوش بهذا. فقد تكلم بعفوية، دون مساعدة من مستشاريه أو كاتبى خطبه؛ ليضع كلمة على الهدف الأمريكى الجديد، وهى كلمة شكلت هذا الهدف كما أعطته معناها فى آن؛ إذ قال: هذه «الحملة الصليبية» «هذه الحرب ضد الإرهاب».

الحملة الصليبية. أتذكر أنه انتابنى للحظة شعور بالدوار عند استخدام الرئيس تلك الكلمة، الحماقة الغاضبة التى تحملها، وزال الدوار، وكان ما شعرت به آنذاك هو الخوف، لأننى لم أحس بالحماقة وإنما الدقة. لقد ذهبت أفكارى إلى المراوغ أسامة بن لادن، ترى ما مدى ما غمره من السرور، لأن بوش يقرأ من كتابه بالفعل (أى يردد نفس كلامه). إننى من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ولدى إحساس بالتاريخ، وبالتالى شعور قوى بالأسف، تجاه ما وقع من أخطاء فى تراثى الخاص عندما تم شن الحملات الصليبية فى القرون الوسطى. فعلى العكس من خيالات صبية المدارس، وفانتازيات هوليوود، والحنين إلى الفروسية والنبل، فإن الحملات الصليبية كانت مجموعة من الجرائم فى تاريخ العالم. وأنا أسمع الكلمة بأذن ثالثة، منتبهة إلى مخاطرها. فقد استحوذ استخدام بوش كلمة «الحملة الصليبية»، على كامل انتباهى، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً وجدت نفسى شاهداً غير سعيد للغرق البطىء للقيم الأمريكية، والذى جرى على مدى السنوات الثلاث الماضية. فقد كنت على مدى فترة

طويلة كاتبًا لمقالات عن شريحة من الحياة، وكان موضوعى هو المشهد الذى يمر أمامى، ولكن ما أن أطلق چورچ بوش حملته الصليبية، حتى صار هذا هو موضوعى الوحيد. ومر أسبوع يتلوه آخر، ولم أكتب شيئًا آخر على الرغم منى فى عمودى بجريدة Boston Globe. وهذا هو سجل ما شهدته، وأنا أقدمه هنا لكى أضع علامة على التحول الخارق للعادة فى المعنى الأمريكى والهدف الأمريكى الذى أعنيه.

وتخفت الذاكرة وتخبو، ويلتف الماضى إلى الأبد فى مناقشات الحاضر. ولكن القراءة الدقيقة لما حدث حقًا عندما استغل بوش ودائرته أزمة ما بعد الألفية فى محاولة لتحويل السياسات والثقافة، يمكن أن توضح لماذا لا يجب أن يستكمل هذا التحويل. كيف استغل بوش جريمة لكى يبرر شن الحرب؟ كيف انحرف بفشل - فى القبض على بن لادن - إلى فشل آخر - هو جلب «النظام» إلى أفغانستان. كيف أعلن النصر فى العراق، على حين كانت هزيمة بطيئة طاحنة تبدأ لتوها؟ كيف أن الطموحات الهوائية لزمرة المحافظين الجدد قد تأججت بمزيج من الحماسة البدائية، والتشرذم القبلى، والعناد الساذج للكائنات البشرية التى ترفض أن يقول لها أحد ما ينبغى أن تفكر فيه أو تحس به؟ وكيف أن التوقعات بأن الأمم الأخرى - بما فى ذلك الأمم التى كانت ذات مرة من أوثق الحلفاء - لن يكون أمامها خيار سوى إطاعة واشنطن الإمبراطورية، قد برهنت على أنها كانت محض أوهام؟ وكيف مضت حروب الشرق الأوسط من سيئ إلى أسوأ؟ وكيف برهن چورچ دبليو بوش على أنه قمة الدمار الشامل. كيف كذب علينا؟ كيف خان الشباب من الرجال والنساء الذين أرسلهم برعونة فى طريق الأذى.

كان والد چورچ دبليو بوش قد أعلن فى ١١ سبتمبر ١٩٩٠م عن«نظام عالمى جديد» وبعد إحدى عشرة سنة من ذلك اليوم، انطلق الابن فى حملته الصليبية لكى يجعل هذا النظام نظامه هو. وجاء الخراب فى أعقاب الخراب، وهذه هى تاريخيته.

* * *

بالنسبة لچورچ دبليو بوش كانت الحملة الصليبية مرجعية فظة مرتجلة. ولكن أقوى ما فى هذا، أنها كانت اختباراً بالمصادفة لمعنى غير مقصود على الرغم من أنه حقيقى. وكون أن الرئيس استخدم الكلمة بدون انتباه يشى بكيفية تعبيرها عن حقيقته الدقيقة،

وكشف القناع عن الغرض الذى كان يحس به فى أعماقه. لقد قال الحملة الصليبية. وفيما بعد اقترح مساعدوه المرتبكون أن قصده كان استخدام الكلمة مرادفًا لكلمة الصراع، ولكن تركيب كلام بوش نفسه يكذب هذا. فقد «حدد الحملة الصليبية بأنها حرب»، لقد قال بالضبط ما كان يعنيه.

لقد كان مفهومًا بالفعل أن أسامة بن لادن كان يحاول أن يشعل شرارة «صدام بين الحضارات» ليضع الغرب ضد دار الإسلام بأكملها. وبعد ١١ـ ٩ أصرت الأصوات القلقة على كلا الجانبين على أن مثل هذا الصدام ليس حتميًا. بيد أن الحملة الصليبية قرينة للجهاد، ومثل هذه الكلمات لا تهدد بما هو أقل من صراع رؤيوى[1] ينهى الوجود البشرى بين الثقافات التى لا يمكن المصالحة بينها. والحقيقة أن إشارة الرئيس إلى الحملة الصليبية برقت مثل الشهاب فى وسائل الإعلام العربية. وقد مضت أصداؤها إلى العمق، بل إلى مدى أبعد مما توقعه المساعدون المرتبكون، وليس بين المسلمين فقط. وعلى كل حال فإن الكلمة تشير إلى سلاسل طويلة من الحملات العسكرية التى كانت فى مجموعها الحدث الذى شكل ما نسميه الحضارة الغربية. وهناك مجموعة متماسكة من التقاليد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل حتى الأسطورية فى القارة الأوروآسيوية، من الجزر البريطانية حتى الجانب البعيد من شبه الجزيرة العربية، قد نمت وترعرعت من عملية التحول التى تسببت فيها الحروب الصليبية. وما يزال الأمر بعيدًا عن المصادفة بأن تلك الحملات كانت موجهة من المسيحيين ضد المسلمين، وأنها أيضًا كانت مرتبطة بلاعقلانية الحمى الألفية.

وإذا كان الرئيس الأمريكى هو الشخص الذى يحمل العبء الرئيسى فى الاستجابة لكارثة ١١ سبتمبر، فإن سلفه فى مثل هذا الدور الخطير، قبل حوالى ألف سنة، كان هو البابا الكاثوليكى، والذى كان يسعى للتغلب على الاضطرابات التى سادت العالم المسيحى على مدى قرن من الزمان، عبأ قادة العالم المسيحى وعامته أيضًا بدعوة متصاعدة إلى الحرب المقدسة. وكان المسلمون بالنسبة له هم الشعب الكافر الذى استولى على الأراضى المقدسة منذ مئات السنين. وحينذاك تم تحديد هذا الاحتلال على

---

(١) نسبة إلى سفر الرؤيا الذى يتحدث عن معركة هرمجدون بين قوى الخير وقوى الشر ـ المعادية للمسيح ـ تسيل فيها الدماء إلى ألجمة الخيل، ولمسافة ٣٠٠ كيلومتر. سفر الرؤيا ١٤ : ٢٠، ١٦ : ١٦ ـ المترجم.

أنه تجديف فى حق الرب لا يمكن احتماله، ويجب تحرير الأرض المقدسة. وفى غضون شهور من دعوة البابا كان مائة ألف من الناس «قد أخذوا شارة الصليب» لإعلان الحرب المقدسة من أجل المسيح. وبالنسبة لسكان أوروبا، فإن حركة مشابهة اليوم سوف تضم أكثر من مليون شخص، ويتخلون عن كل شىء فى سبيل الذهاب إلى الحرب.

وباسم المسيح، وبتأكيد أن الرب يبارك، شن الصليبيون ما يمكن أن نسميه هجوم «الصدمة والترويع» ـ فقد فرضوا الحصار، أولاً، على مدينة نيقية فى آسيا الصغرى حيث استخدموا المجانيق لكى تطيح الرءوس المقطوعة للمدافعين المسلمين فوق الأسوار الحصينة. وفى بيت المقدس ذبحوا بوحشية المسلمين واليهود سويا ـ بل إنهم عمليًا ذبحوا المدينة بأسرها. وسرعان ما استدار المسيحيون اللاتين على المسيحين الشرقيين، ثم ضد الهراطقة المسيحيين، عندما تفوق التعطش للدم على النبضة «المقدسة» الأولية. وحفرت آثار العنف ندوبا فى ذاكرة الأرض والبشر حتى يومنا هذا ـ لاسيما فى الأماكن التى أنزل بها الصليبيون خرابهم. كما أن الخريطة الذهنية للصليبيين، والقدس فيها هى مركز الأرض، ما تزال تحدد السياسات العالمية. بيد أن النقطة الرئيسية، فيما يتعلق باستجابة بوش الغريزية للحادى عشر من سبتمبر، هى أن هذه الغزوات الدينية والحروب التى انقضت منذ زمن طويل، قد أرست أسس هوية غربية متماسكة معارضة تمامًا للإسلام، وهى معارضة بقيت حية حتى اليوم.

فمع الحروب الصليبية، جاء اللاهوت العنيف عن الرب القاتل. فلكى يتم إنقاذ العالم، حسب هذا الفهم، اقتضت إدارة الرب الموت العنيف لابنه الوحيد المحبوب. وهنا يتم الكشف عن الخريطة الذهنية، لأن الصليبيين كانوا ذاهبين إلى الحرب لإنقاذ الموقع الذى شهد الموت الخلاصى ليسوع، وأظهر إخلاصهم للصليب الذى مات عليه المسيح بأن جعلوه رداءً على صدورهم. وعندما تمت ترجمة ملاحظة بوش إلى العربية لكى تذاع فى شتى أرجاء الشرق الأوسط فهمت كلمة «الحملة الصليبية» على أنها «حرب فى سبيل الصليب».

وقبل الحروب الصليبية، أولى اللاهوت المسيحى تأكيدًا مركزيًا على بعث المسيح، وعلى فكرة التجسد نفسها، ولكن مع حرب الصليب، بدأ حادث الصلب الدموى

يسيطر على الخيال المسيحى اللاتينى . عزز لاهوت ركز ـ بضيق أفق ـ على الموت القاسى للمسيح المفهوم البدائى عن أن العنف يمكن أن يكون عنفًا مقدسًا . ذلك أن طقس الاستشهاد ، حتى درجة الحماسة الانتحارية ، تم تأسسه فى الحروب الصليبية ، وليست مصادفة أن حوادث الحادى عشر من سبتمبر كانت علامة على ثقافة التدمير المقدس للنفس التى تشدد قبضتها أيضًا على بعض المسلمين . إذ إن القتله الانتحاريين فى مركز التجارة العالمى شأنهم شأن الانتحاريين بالقنابل فى الضفة الغربية وغزة يستغلون حلقة وصل منحرفة بين الاستعداد للموت فى سبيل قضية والاستعداد للقتل من أجلها . وكان الصليبيون أيضًا وهم يفكرون فى السماء ، يمجدون تلك الرابطة .

وهنا يمكن المغزى الأعمق لإشارة بوش الغافلة عن الحروب الصليبية : فبدلاً من أن يكون الملاذ الأخير أو شرًا لابد منه ، تم تأسيس العنف آنذاك على أنه الشىء المناسب تمامًا ، بل إنه من شيم الفروسية ، وهو الاستجابة الأولى لما هو خطأ فى العالم . وچورچ دبليو بوش مسيحى يجد هذا اللاهوت حيًا أمامه . فبينما أعلن أن المسيح هو «فيلسوفه السياسى المفضل» ، عندما خاض سباق الرئاسة سنة ٢٠٠٠م ، ومسيح هذا الرئيس الإيڤانجليكى ليس هو المسيح الذى يأمر «بإدارة الخد الآخر» . مخلِّص بوش هو يسوع الذى يُستخدم صليبه كما يستخدم السيف . وچورچ دبليوبو ش الذى قبل بانشراح تحمل مسئولية إعدام ١٥٢ فى طابور الموت من سجناء تكساس ، كان قد أظهر نفسه بالفعل مرتاحًا تمامًا مع العنف الذى يكتسى خاصية مقدسة . ولا غرابة فى أن هذا العنف هو الذى حدد أعمق حوافزه بعد ١١ـ٩ .

بيد أن العنف المقدس ، الذى أطلق سراحه ذات مرة سنة ١٠٩٦م ، كما حدث فى سنة ٢٠٠١م ، كانت له قوة الدفع الخاصة به . إذا إن الحاجة الملحة للحرب ضد«العدو فى الخارج» ـ وهو ما يسميه البعض اليوم «صدام الحضارات» ـ أدى بسرعة إلى اكتشاف «عدو بالداخل» . فقد انقض الصليبيون ، فى طريقهم من شمال غرب أوروپا ، «على العدو الذى فى متناول فى أيدينا» كما قالوا . أى اليهود . فلأول مرة فى أوروپا ، تم اغتيال أعداد كبيرة من اليهود لأنهم يهود . ذلك أن لاهوتًا تستحوذ عليه حادثة الصلب ، رأى أن الرب رحب بموت يسوع ، ولكن فى الخيال الإيڤانجليكى المتشعب ، كان يمكن إلقاء اللوم على اليهود بشأن حادثة الصلب ، وكانت الهجمات التى قام بها الصليبيون مميتة .

ونفس الحركية ـ أي حرب ضد عدو بالخارج تؤدي إلى حرب ضد عدو داخلي ـ يمكن أن نراها تعمل اليوم. وهي حركية أكثر تعقيداً الآن، مع وجود المهاجرين المسلمين وأناس من أصول عربية، يتعرضون لضغط ثقيل في الغرب. ففي أوروبا، يتم تشبيه المسلمين بالشياطين على نحو روتيني. أما في أمريكا، فإنهم «يُنبذون» لدرجة حرمانهم من الحقوق الأساسية. ولكن في الوقت نفسه يتم استهداف اليهود مرة أخرى. إذ إن عودة ظهور اللاسامية على نطاق عريض، والاتجاه إلى عَدِّ إسرائيل كبش الفداء بوصفها المصدر الأول للفوضى الجديدة، يعكس عملية المد والجزر القديمة. وهذه حقيقة بغض النظر عن الحقيقة الصارخة بأن حكومة آرييل شارون قد اتخذت عقيدة «حيّاً أو ميتاً» التي تبناها بوش بحماسة واستغلت «الحرب ضد الإرهاب» لشحن رد الفعل المفرط ـ والذي يحمل هزيمته في ثناياه ـ ضد الاستفزازات الفلسطينية. ولكن بعض منتقدي إسرائيل يسقطون في النموذج القديم بقياس اليهود بمقاييس لايقيسون بها أحداً غيرهم، ولا حتى رئيسنا. وكون أن الحرب على الإرهاب هي السياق الذي تكثفت فيه أعمال العنف في إسرائيل وبيت المقدس ينبغي ألاّ يكون مفاجأة بعد الآن. إذاً ليست «إسرائيل»، ولكن الصراع حول القدس هو الذي أدى دور الوميض منذ ألف سنة.

لقد برهنت الحروب الصليبية على امتلاكها ديناميات تخريبية أخرى. إذ إن الحرب ضد الإسلام في العصور الوسطى، قد استهدفت يهود أوروبا أيضاً، وبسرعة شديدة صارت حرباً ضد جميع أشكال الاختلاف الثقافي والديني، أي صارت حرباً ضد الهرطقة.

لقد تم تحديد العقيدة على نحو جامد ـ كأنه لم تكن هناك عقيدة على مدى مئات السنين ـ في الغرب اللاتيني آنذاك، وتمت مهاجمة جميع أولئك الذين لم يؤكدوا التفسيرات السائدة ـ من الكاثاريين، والألبيجنسيين، والأرثوذكس الشرقيين. كما أن التوحيد المذهبي كان يمكن فرضه بالقوة المقدسة. وعندما يُعرِّف المدعي العام (وزير العدل) في الولايات المتحدة انتقاد الإدارة زمن الحرب بأنه خيانة، أو عندما يمرر الكونجرس تشريعاً يبرر انتهاك الحريات المدنية بدعاوى الوطنية، فإنهم يسيرون على هدى تعليمات الصليبيين.

وكل هذا متضمن فى الكلمة التى استخدمها الرئيس بوش أول مرة، والتى جاءت إليه بشكل طبيعى كما لو كانت إشارة فى البيسبول، لتحدد معنى الحرب على الإرهاب. والسكوت شبه الكامل الآن عن مثل هذا التاريخ الدينى المظلم المضطرب بالغليان للعنف المقدس، لا يعنى نزع فتيله بوصفه قوة انفجارية فى اللاوعى الإنسانى. وفى عالم الإسلام، بطبيعة الحال، لا يمكن أن يكون معناها أكثر وضوحًا، أو اقترابًا من الوعى. ذلك أن المعنى الكامل تاريخيًا وثقافيًا للحرب الصليبية واضح من أول وهلة، وهو السبب فى أن ضجة الاحتجاج التى ارتفعت من الشرق الأوسط ساقت «بوش» إلى التراجع اللفظى السريع. ومع هذا فإن غفلته فى استخدام كلمة «الحرب الصليبية» هى ذاتها الكاشفة للحقيقة، فالأمريكيون لا يعرفون ماهية النار التى يلعبون بها. وعلى أى حال، فإن أسامة بن لادن يعرف كل هذا جيدًا، وفى تصريحاته بين آونة وأخرى، يستخدم كلمة «الحروب الصليبية» حتى هذا اليوم كمن يلقى باللهب.

والحرب الدينية هى الخطر هنا، وهى حرب أخطر مما يظن الأمريكيون وأشد هولاً. فعلى الرغم من فصلنا الفج بين الكنيسة والدولة، فإن أمريكا كان لها دائمًا فهم شبه دينى لذاتها، انعكس فى النزعة المسيحانية للمؤسس البيوريتانى (چون وينثروپ)، وفى التفاؤل الربانى لتوماس چيفرسون، وتبنى معاناة الخلاص التى ميزت أبراهام لنكولن، وفى اقتناع وزير خارجية أيزنهاور، چون فوستر دالاس، بأنه يجب مواجهة الشيوعية على نطاق كونى حتى لو كان ذلك بسبب إلحادها فقط. ولكن لم يحدث أبدًا من قبل أن تم جر أمريكا إلى حفرة ملغمة بالديناميت بشكل أعمق مما حدث فى حرب رئيسنا على الإرهاب. وعلى الرغم من انخفاض نغمة الخطب البلاغية الصادرة عن واشنطن بعد حرب العراق، والتخلى عن المزيد من الاشارات الصليبية - على الرغم من أن وزير الخارجية كولن پاول استخدام الكلمة فى مارس سنة ٢٠٠٤م - فإن حرب بوش تبقى بصراحة معركة كونية بين قوى الشر وقوى الخير الفائقة ولا شيء أقل من ذلك. ومثل هذه المعركة بالضرورة غير محددة، ونهايتها مفتوحة لكل الاحتمالات، وبذلك تبرر الأفعال الراديكالية - مثل التخلى عن المفاهيم الراسخة عن العدالة المدنية فى الوطن والتحالفات التقليدية فى الخارج.

وتسوِّغ المعركة الأخلاقية ـ الدينية الكونية، بالقدر نفسه، المخاطرات بكارثة عالمية نسبية، طالما أن الناتج النهائى لمثل هذا الصراع ينبغى أن يقاس لا بالعواقب الحقيقية على هذه الأرض وإنما بإرادة الرب التى تسمو عن الأرض. إن حربنا على الإرهاب قبل أن تكون أى شىء آخر، إنما هى بذلك صراع تخيلى، مكانها أساسًا فى مملكة أسطورية تقع خارج نطاق التاريخ.

وفى شن مثل هذه «الحرب» ينبغى الاشتباك مع العدو فى كل مكان، وفى لا مكان، ليس فقط لأن العدميين الحقيقيين الذين يهددون النظام الاجتماعى مجهولون وبلا جذور، ولكن لأن كل انتحارى متعصب مجرد مثال على عدو مبهم ـ وكذلك الوجه الآخر لنا. والواقع أن كل إرهابى هو قربان للحقيقة الكبرى، وهى «الإرهاب». وبدلاً من إدراك المراكز غير المرتبطة للعنف اللا إنسانى ـ سادة الحرب القبليون، وزعماء المافيا، والمحاربون الوطنيون، والمصابون بالعداء للأجانب ـ فإن الرئيس بوش يتصور استراتيجيات بالغة الضخامة والتشابك للتآمر، والعقيدة والتنظيم. وبإسباغ الصفة القانونية الكنسية على الحرب ضد الإرهاب، يتم رفع العدميين الصغار إلى مكان المحاربين الأبطال العالميين، وهو بالضبط المصير الذى يرغبون فيه. وهذا هو السبب فى أن الصراع يريق الدماء من موقع لآخر ـ أفغانستان الآن، ثم العراق، وبعدها إيران أو أرض أخرى للشر ـ وهذا هو السبب أيضًا، بالنسبة لهذه المسألة، فى أن الأعداء المستهدفين يمكن استبدال أحدهم بآخر ـ فهنا أسامة بن لادن، وهناك صدام حسين، وهنا زعيم إيران، وهناك زعيم كوريا الشمالية. إذ إنهم جميعًا فى الأساس عدو واحد ـ "محور" واحد ـ على الرغم من الاختلافات فيما بينهم، أو حتى كراهيتهم بعضهم لبعض.

لقد هاجم چورچ دبليو بوش، كما يعلن بفخر، الشر نفسه. (ففى سنة ٢٠٠٤م نشر الاثنان اللذان شكلا «مذهب بوش»، وهما «داڤيد فروم» و«ريتشارد پيرل» كتابًا بعنوان (An End To Evil). ويفعل بوش هذا دونما إدراك للرابطة بين مشروعه والقوى الأسطورية الكبرى، بيد أن مؤرخى المستقبل سوف ينظرون إلى حملة أمريكا الكونية المذعورة فى سياق الحمى الألفية. لقد حدث ذلك منذ ألف سنة مضت، وهو يحدث الآن. وتبدو فكرة الألفية وكأنها تستفز تصوراً لنهاية العالم، وشعوراً بأن زمن النهاية

قد بدأ، حقبة سوف تشهد معركة نهائية بين الخير والشر محتومة ومقدرة. (وإحدى علامات زمن النهاية فى الخيال الإيڤانجليكى هو استئصال الكفار عن طريق التنصير أو العنف المقدس، وهو توقع يؤدى دوره فى اللاوعى فى تأجيج كراهية المسلمين، والعداوة المتجددة ضد اليهود، بل وفى دعم اليمين المسيحى الداعم لإسرائيل، بوصفه مقدمة لتنصير اليهود). ولا يحتاج المرء إلى أن ينسب التطرف فى هذا الحدس إلى بوش؛ لكى يتعرف فى خطابه على علامات تدل على اهتمام كونى يتجاوز الجغرافيا السياسية والأمن القومى.

كذلك كانت الحملات الصليبية تجليًا للنزعة الألفية المرتبطة بنهاية العالم. فعندما قام الصليبيون بذبح الكفار، وفرضوا التنصير على اليهود، كانوا يظنون أنهم يرشدون البشر إلى العصر الجديد. ويوضح «روبرت چاى ليفتون» كيف أن هذه الظاهرة تتجلى الآن، بالرؤى الإسلامية والأمريكية لنهاية العالم المتنافسة بقسوة، وكل منهما يهدف إلى «التطهير والتجديد». ففى كتابه "Superpower Syndrome" يلاحظ «ليفتون» أننا «نحن نمرّ بما يمكن أن نسميه مواجهة بين القوى الإسلامية، التى تتبنى موقفًا حالمًا مكشوفًا فى استعدادها للقتل والموت فى سبيل دينها، والقوى الأمريكية التى تزعم أنها مُقيدة ومعتدلة ولكنها ليست أقل فى موقفها الحالم فى تصورها لشن حرب تطهيرية والقوة العسكرية الحرب».

والرجال والنساء المتأججون حماسة الذين قد لا يشاركون بوش روحانيته الحامية يمكنهم بالرغم من هذا أن يدعموا غرضه، لأن هناك، بسبب الأيديولوچية الجديدة التى تفرض نفسها، أزمة عالمية تتطلب استجابة سريعة.

ذلك أن التكنولوچيات الحديثة تجعل من الممكن الآن للمجموعات الصغيرة من العدميين، أو حتى الأفراد، أن يشفوا غليلهم على نطاق غير مسبوق فى التاريخ. وهذا هو "الخطر الصامت" النهائى. إن هجمات الحادى عشر من سبتمبر، والتى تضخمت بالصدى القاتل لرسائل غاز الأنثراكس البريدية، والمريض السيكوپاتى الذى لم يكشف إلى الآن الذى أرسل خطابات مميتة إلى الصحفيين وموظفى الحكومة فى الأسابيع التى تلت ٩ـ١١، هى التى كشفت عن الحال الجديد أمام ناظرى العالم. ذلك أن

الابتكارات فى الفيزياء، والبيولوچى والكمياء وتكنولوچيا التشكيل - وقريبًا فى تكنولوچيا النانو والهندسة الوراثية - كان لها أثرها الذى لم يكن متوقعًا فى التهديد بوضع القوة التدميرية، التى لم يكن ممكنًا ممارستها فى الماضى إلآ بالجيوش الجرارة، فى أيدى فئة قليلة من الناس. لقد كان أدولف هتلر ذو النزعة الألفية معتوها نكرة حتى جمع الشعب الألمانى وراءه، ووراء الوعود بإقامة الرايخ الذى يستمر ألف سنة. وهتلر اليوم لا يحتاج إلى أمة، أو حزب، أو جيش. لأن رطلا من الأنثراكس سوف يكفى، أو حمل حقيبة نووية، أو حتى ڤيروس كمپيوتر. ذلك أن مثل هذه القوة بيد أى شخص واحد تؤدى إلى مجال جديد من الوجود على الأرض، إلى نوع جديد من «الميتاڤيزيقا» حسبما يقول الصحفى «لانس مورو» فى كتابه الذى يحمل عنوان « الشر ـEvil» وهى ميتاڤيزيقا «تغير كلاً من الآليات السياسية والشخصية للشر».

هذه هى «الحال» الحقيقية التى تستجيب لها إدارة بوش. والمشكلة واقعية، على الرغم من أنها ليست موجود تمامًا حتى الآن. والخطر مبهم - فعلى أى حال، خلق المهاجمون فى ٩ـ١١ باستخدامهم وسائل أكثر تواضعًا، نسخة تليفزيونية لصورة مصغرة من نهاية العالم - ولكن إدراة بوش تقوم باتخاذ خطوات بدلاً من أن تؤدى إلى مواجهة الخطر، تزيد من تفاقمه بصورة شديدة. إن النبضة التى ساقت السياسات الكونية لهذه الإدارة تتحدد فى أبسط أشكالها، بالتصميم على أنه لن يُسمح لأى قوة معادية بامتلاك ما يسمى أسلحة الدمار الشامل. إذ إن زعماء «الأنظمة المارقة»، حسب قراءة بوش، هى التى تلهث وراء مثل هذه الأسلحة، وهكذا، صار «تغيير النظام» الغرض المهيمن للقوة الأمريكية، سواء عن طريق «الحرب الوقائية»، مثلما حدث فى أفغانستان والعراق، أو عن طريق وسائل أخرى للإجبار. وحتى عندما أدت الصعوبات فى العراق إلى الانتقاص من التأكيدات الأمريكية ـ الارتجالية ـ عن المدى الإمپريالى، يبقى محتملاً أن واشنطن لن تسمح لإيران أو كوريا الشمالية، التى يبدو واضحا أنها بدأت العملية، ولا لأى عدد آخر من الدول غير الصديقة بتطوير ترسانة نووية نشطة ويمكن استخدامها. ومهما يكن الأمر، فإن الاسلحة النووية هى التى تطرد النوم من البيت الأبيض، مع الحلم المتكرر بما جرى فى ٩ـ١١ بحسبانه أخف إيماءة لما يمكن أن يحدث لو أن هذا الحادث كان نوويًا.

ومن ثم فلكى يتم وضع أفضل وجه على أجندة بوش (مع غض النظر عن مسائل البترول، والسيطرة على الأسواق العالمية، والهيمنة الاقتصادية أو العسكرية) فإن مشروعًا إنسانيًا ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل يمكن أن يرى فى القلب من هذه الأجندة، بيد أن الأمة التى كانت تحاول منع انتشار أسلحة الدمار الشامل، ولا سيما الأسلحة النووية، لابد وأن تتصرف بالضبط على النحو الذى تصرفت به إدارة بوش على مدى السنوات الثلاث الماضية. ذلك أن مفهوم البنتاجون المنتفخ الأوداج عن «السيطرة الكاملة» بحد ذاته يحفز الأمم الأخرى إلى السعى بحثًا عن مصادر القوة المعادلة، وعندما تذهب الولايات المتحدة إلى الحرب بالفعل لفرض مفهومها الذى يثير جدلاً واسعًا عن النظام على بعض الدول، وليس على البعض الآخر، فإن الدول - الصديقة منها وغير الصديقة على السواء - تجد نفسها ولديها سبب ملح للغاية للحصول على بعض الوسائل لمقاومة مثل هذا التدخل.

وفى ١٩ من ديسمبر سنة ٢٠٠٣م، زعمت إدارة بوش أنها انتصرت فى حربها الفعلية «ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل» بإعلان أن ليبيا وافقت على التخلص مما بحوزتها، ولكن قرار زعيم ليبيا معمر القذافى هو الذى وضع فعلاً الكذبة فى متناول بوش. ففى أعقاب الكشف عن تورط ليبيا فى التفجير الإرهابى لرحلة طيران پان أميركان رقم ١٠٣ سنة ١٩٨٨م، ظلت ليبيا على مدى سنوات خاضعة لدبلوماسية قسرية، وعقوبات، وعزلة. وهذه الضغوط التى ارتكزت على الأمم المتحدة التى تقدمت بصرامة على يد إدارة كلينتون، آتت أكلها فى نهاية الأمر. ولم تكن الحرب الوقائية أو تغيير النظام ضروريًا لوقف عدوانية القذافى. ولم تكن مصادفة، مع التعاون الجديد من جانب ليبيا، أن يتم التأكيد على أن الداعم الثابت لمشروعها النووى كان پاكستان، التى تَعُدّها إدارة بوش دولة حليفة، مما يثبت أن من ينشر أسلحة الدمار الشامل، لم يقع ضمن «فئات الخير فى مواجهة الشر» التى تفضلها واشنطن. وفى تعارض مع إعلان ديسمبر عن انصياع ليبيا، تم الإعلان فى نفس اليوم عن أن اليابان سوف تنفق بلايين الدولارات على درع الصواريخ الباليستية الذى تشرف عليه الولايات المتحدة. وهو «نصر» آخر لإدارة بوش. ولكن هذا التصدير الذى يحدث لأول مرة «لحرب النجوم» إلى الخارج وصل مستويات غير مسبوقة سواء على مستوى

الإنفاق العسكرى اليابانى أو سباق التسلح فى آسيا. ولابد أن تؤدى إلى إجراءات مضادة من جانب كوريا الشمالية والصين وروسيا. وأولئك، بدورهم، سوف يستحثون المزيد من عسكرة اليابان، لأن الدفاع يؤدى إلى الهجوم، وهى دائرة حلزونية متصاعدة من المحتمل أن تزيد من أخطار الحرب النووية. وهنا على الأرض وفى السموات يمكن أن نجد معنى حقيقيًا لمقاربة بوش لمشكلة انتشار أسلحة الدمار الشامل.

والشيء الغريب والمأساوى هو أن العالم قبل بوش كان قد اقترب من الاتفاق على كيفية معالجة مشكلة انتشار أسلحة الدمار الشامل، وكان قد بدأ يضع بناءات واعدة مصممة لمنع مثل هذا الانتشار. وقد تجسد بشكل مركزى فى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية عام ١٩٦٨م التى نجحت بشكل مدهش فى الحفاظ على عدد القوى النووية، سواء الفعلية أو المعترف بها، بحيث ظل العدد منخفضًا نسبيًا، وقد أعطى هذا الاتفاق أولوية للالتزامات التى تفرضها المعاهدة والتعاون الدولى، والالتزام الجاد من جانب القوى النووية الموجودة للتحرك صوب التخلص نهائيا من الأسلحة النووية. وقد تحول ذلك كله إلى نفاية بفعل بوش. قال بوش متهكمًا: «القانون الدولى؟» تكلف الابتسام فى ديسمبر سنة ٢٠٠٣م قائلاً: «من الأفضل أن أستدعى محاميًا».

والآن هناك دلائل على أن الأمم على اتساع الدنيا - اليابان، والسعودية، والأرچنتين والبرازيل وأستراليا - تعيد تقييم رفضها للأسلحة النووية، بل إن بعضها يندفع بشكل إيجابى للحصول على هذه الأسلحة. وربما كانت إيران وكوريا الشمالية مجرد قمة جبل الجليد. وتمثل باكستان والهند المسلحتان نوويًا نبوءه عابسة بالمستقبل فى كل قارة. وإدراة بوش - بإعلانها عن بقاء ترسانتها النووية، والتهديد بتوجيه الضربة النووية الأولى لكل الأمم، و«بتخزين» الرءوس النووية التى استبعدتها المعاهدة بدلاً من تدميرها، وتطوير خط جديد من الأسلحة النووية «القابلة للاستخدام»، وبالتحرك صوب تسليح «الحدود العليا» فى الفضاء الخارجى، وتبنى فكرة «الحرب الوقائية» - بهذا كله تساعد على بروز هذا التهديد بدلاً من إحباطه. كيف يمكن أن يكون هذا؟

إن للمشكلة جذورها العميقة التى تكمن فى خاصية النسيان الأمريكية، والتى ترجع إلى الضباب الحمضى الذى أنهت به الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية. إذ

لم يكن هناك على الاطلاق حساب أخلاقى كامل للزخم العنيف الذى اتسمت به نهاية ذلك الصراع ـ كيف تبنى الزعماء الأمريكيون إستراتيجية تقوم على القصف الإرهابى بالقنابل، وذبح سكان مدن كاملة، وكيف أنهم فى النهاية دخلوا العصر النووى بالهجوم على هيروشيما ونجازاكى؟ لقد تجادل الباحثون فى هذه المسائل، ولكن السياسيين تجنبوها، كما أن معظم المواطنين تظاهروا بأنها ليست مسائل حقيقية على الإطلاق. ذلك أن افتراض أمريكا الثابت بتفوقها الأخلاقى، وإيثارها الغير، واستثنائيتها، لم يتم خدشها بالتأمل فى إمكانية أننا أيضًا نرتكب أخطاء فادحة، وجرائم مرعبة. مثل هذا الوعى، المستمد من حساب أشمل لأيام مضت ـ ٦، ٩ أغسطس سنة ١٩٤٥م على أى حال ـ سوف يؤدى إلى منع زعم أمريكا الحالى بالعظمة الأخلاقية، والذى هو فى الوقت نفسه زعم بالعظمة الاقتصادية والسياسية طبعًا. يجب على الأمة التى لا يمكن الاستغناء عنها(*) أن تستغنى عمّا حدث من قبل.

قال وليم فولكنر «الماضى لا يموت أبدًا». «بل إنه ليس ماضيًا». والكيفية التى يتذكر الأمريكيون بها استخدام بلادهم القصف المرعب هى التى تؤثر على كيفية تفكيرهم فى الإرهاب، والكيفية التى يتذكرون بها أول مرة استخدموا فيها السلاح النووى، لها علاقة شاملة بالكيفية التى تتصرف بها الولايات المتحدة تجاه ما يتعلق بالأسلحة النووية اليوم. وإذا كان تبنى أمريكا طويلاً مبدأ "التدمير المتبادل المؤكد" لم يتم فحصه، وإذا كان رفض البنتاجون المنتهك لمعاهدة مثالية التخلص النهائى من الأسلحة النووية ليس محل تساؤل ـ إذن فإن تبنى إدارة بوش للأسلحة النووية بوصفها أسلحة عادية يمكن استخدامها لن يبدو أمرًا عدوانيا.

والذاكرة فعل سياسى. والنسيان خادم الطغيان. وإدارة بوش ملتزمة تمامًا بالحفاظ على ما يسمية المؤرخ «مارك تراشتنبرج» «فجوة ذاكرتنا النووية» حتى وإن كانت الإدارة تسعى إلى فرض بناء أحادى للسيطرة على العالم. وبينما تشن حملة تهدد العالم لإخلائه من أسلحة الدمار الشامل لدى الشعوب الأخرى، ترفض إدارة بوش مواجهة المعنى الأخلاقى لأسلحة الدمار الشامل الأمريكية، ناهيك عن طبيعتها الفيروسية التى

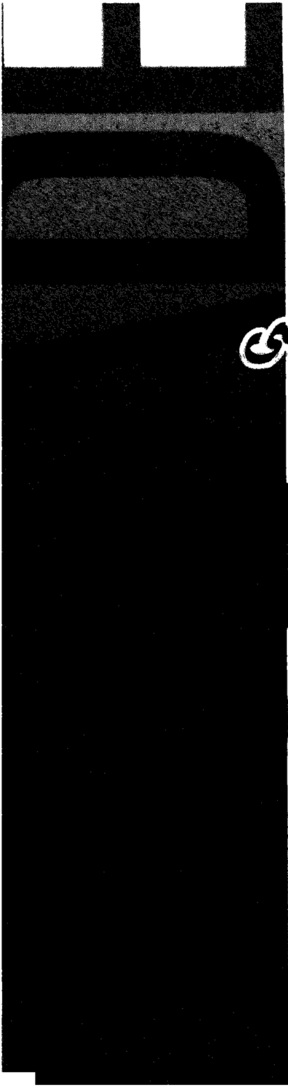
(*) هذا ما يحب القادة والرؤساء الأمريكيون قوله، وما يحب الشعب الأمريكى سماعه، عن أمريكا ـ المترجم.

تجعل الأمم الأخرى تسعى لامتلاك نسخ أصغر من الترسانة الأمريكية، ولو لمجرد إعاقة حرب بوش «الوقائية» التالية. وبعبارة أخرى فإن ترسانة الولايات المتحدة تبقى هى السبب الجوهرى فى وباء انتشار أسلحة الدمار الشامل على مستوى العالم.

وقد كتب الروائى «پول أو ستر» يقول: «إن الذاكرة هى الفضاء الذى يحدث فيه الشيء للمرة الثانية». هذه المجموعة من الكتابات ضد حرب بوش، والتى تشكل تأريخًا معاصرًا لهذه الحرب، تقصد أن تكون كتابًا فى الذاكرة. ولا أحد يرغب فى أن تتكرر حوادث ١١/ ٩/ ٢٠٠١م مرة ثانية إلاّ فى مجال الذاكرة، وبالشكل الذى يؤدى إلى الفهم والالتزام. كل الطرق التى استغل بها چورچ بوش تلك الأحداث على نحو يخون ذكرى أولئك الذين ماتوا فيها، ينبغى فحصها مرة أخرى، وبحيث يمكن الإحساس على نحو تام بمدى فظاعة غرضه السياسى. وبالضبط كيف تكشفت الحرب على الإرهاب؛ وكيف أراقت الدماء فى أفغانستان، ثم العراق؛ وكيف أن المخاوف الأمريكية تفاقمت بالتحذيرات التى أطلقتها الإدارة، وكيف تم تقويض الحقوق المدنية، وانتهاك الاتفاقيات، والتخلى عن التحالفات، وتبنى الخشونة - فلا ينبغى نسيان أمر من هذه الأمور.

وإذا ما أخذنا فى الحسبان كيف لم يتم الوفاء بهذا على نحو درامى، فلا ينبغى أن ننسى نبضات واشنطن الأولية تجاه نوع جديد من السيطرة الإمبراطورية. وكون أن الهدف الأول من الحرب - أسامة بن لادن «حيًا أو ميتًا» - قد تغير حينما برهنت القاعدة على أنها مراوغة لا يجب أن يُنسى. ولا ننسى تغير التسويغ المبكر للحرب ضد العراق - أسلحة الدمار الشامل التى يمتلكها صدام حسين - عندما ثبت عدم وجودها. وكون أن حكومة الولايات المتحدة فى الأوقات السابقة كما لو كانت الحقائق مهمة، وكما لو أن الدليل مرشد للسياسة، أمر لا ينبغى نسيانه. وكون أن أفغانستان والعراق يعانيان من المجازر والخرائب وآلاف القتلى، ومئات الآلاف يواجهون خطر المرض، والفوضى، واليأس، أمر لا يجب أن ينسى. وكون أن العالم الذى نزدريه الآن أعطى حبه الخالص لأمريكا فى الحادى عشر من سبتمبر، أمر لا يجب نسيانه.

إننا نتذكر الماضى، وحتى الماضى القريب الذى تجسده هذه المدونة التاريخية لكى تحث المقاومة فى الحاضر. إننا نتذكر الماضى - خاصة كما فى هذه المدونة التاريخية عن «حملة بوش الصليبية» حتى يمكن أن يكون المستقبل مختلفًا.



THE AMERICAN EMPIRE PROJECT

الجزء الأول

إلى الأمام أيها المسيحى

CHRONICLES OF AN UNJUST WAR

١ - الحرب المقدسة
٢ - أفغانستان
٣ - الحرب فى الوطن

JAMES CARROLL

(١)

الحرب المقدسة

«نحن فى حالة حرب»، هذا ما قاله الرئيس جورج دبليو بوش فى سراسوتا ـ فلوريدا صباح الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م. وقال الكلمات بصوت عال، ولكنه، فى الواقع، كان يتحدث إلى نفسه، حينما شاهد التليفزيون للمرة الأولى وهو يعيد بث مشهد برجى مركز التجارة العالمى والطائرات تصطدم بهما.

إنها استجابة أولية، لحظية، وتشكيلية. وبعد مشاهدة إعادة البث بدأ الرئيس يتحرك. وأخبره ناصحوه أنه نفسه كان هدفًا أوليا لتلك الحرب، ولذا سمح بوش لنفسه بأن يتم تحريكه فى رحلات طائرة من فلوريدا إلى قاعدة جوية فى لويزيانا، ثم إلى هيئة الاركان فائقة الأمان فى القيادة الجوية الإستراتيچية فى نبراسكا. وسرعان ما تحولت عاطفة الرئيس الأساسية فى ذلك اليوم إلى الإحساس بالخجل، عندما أدرك كيف أن هذا الاندفاع إلى حفرة آمنة كان متناقضًا مع بطولة الآلاف فى نيويورك وواشنطن، وفى السماوات فوق پنسلڤانيا. وحينما ظهر بوش فى النهاية لكى يخاطب جماهير الأمريكيين، محولاً خزيه إلى غضب، حدد بشكل رسمى الهجمات على مركز التجارة العالمى وعلى البنتاجون بأنها «عمل من أعمال الحرب». وقال للأمم الأخرى: «إما أنكم معنا، وإما أنكم مع الإرهابيين». وفى البنتاجون الجريح، أخبر الرئيس تجمعًا صغيراً من الموظفين العسكريين أنه يريد أسامة بن لادن «حيًا أو ميتًا».

وفى يوم ١٤ سبتمبر، بدأ الرئيس يومه بالصلاة فى الكاتدرائية الوطنية بواشنطن. وتم تحديد الطقوس بأنها «مسكونية ـ Ecumenical»، وبحضور مسلمين، ولكن الأيقونات والرسوم الأيقونية الكثيرة فى الكاتدرائية ـ التى ركزت كاميرات التليفزيون عليها، خصوصًا على تمثيل المسيح على الصليب ـ نقلت انطباعًا مختلفًا تمامًا. كانت الصلاة تعبيراً عن الحزن الوطنى، ولكنها تبدو أيضًا تعميداً للإرادة

الحربية. وبمثل هذه البساطة، تم الربط بين صور الديانة المسيحية وهدف أمريكا الجديد بقوة.

ومن الكاتدرائية، ذهب بوش مباشرة إلى موقع مركز التجارة العالمى فى نيويورك. وإذ وقف على قمة الأنقاض، أمام مجموعة من الأعلام الأمريكية، أعلن الرئيس: «إن الذين هدموا هذه المبانى سوف يسمعون منا قريبًا». وفى هذا اليوم نفسه صوت مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة بنسبة ٨٠ـ٠، كما صوت مجلس النواب بنسبة ٤٢٠ـ١ (وكانت باربارا لى نائبة كاليفورنيا المعترض الوحيد) على منح الرئيس بوش سلطة مطلقة لاستخدام القوة ضد أعداء أمريكا على النحو الذى يراه مناسبًا. وقد أظهرت صناديق الاقتراع نسبة الأمريكيين المحبذين «لحملة عسكرية كبرى» ٩٠ بالمائة. ولم يقل أحد: ضد من ينبغى القيام بالحملة؟! وفى ثلاثة أيام كانت حرب بوش قد بدأت تباركها الديانة، ويؤكدها الحكماء، ويمنحها الكونجرس الشرعية، على الرغم من أن الحرب كانت ما تزال بحاجة إلى تحديد وتعريف.

القانون لا الحرب

١٥ سبتمبر ٢٠٠١م

كيف نحب بلادنا؟ على مدى أيام الآن، شعرنا نحن الأمريكيين، بينما نرتعد فى حداد، بالثقل المتراكم لإخلاصنا الوطنى. فقد تواصلنا فى التعرف الصادم على نوع الكنز النادر والثمين الذى هو الولايات المتحدة الأمريكية. إذ إن تعرض وطننا المفاجئ للخطر يجعلنا نتخلى، فجأة أيضا، عن عادة أخذ نبل وطننا أمرًا مسلمًا به. فنحن نراه فى المكان الخالى الذى يغصّ حلوقنا فى أفق سماوات نيويورك، وفى الجرح المتسع بالمبنى المجاور لمقابر آرلينجتون. ونحن نراه فى الوجوه العابسة لعمال الإنقاذ ذوى العزم، وفى المغزى الذى دفع المسافرين على الطائرات للقتال ضد الخاطفين. ونحن نراه فى التنوع الكبير فى ملامحنا، ولهجاتنا، ومعتقداتنا، بل حتى فى استجاباتنا. ولم يحدث أبدًا أن كان الشعار الوطنى أكثر منه الآن صدقًا: الكل فى واحد.

ولكن بالقدر نفسه كان تعبيرنا الرئيسى عن هذه الروح الوطنية الكثيفة، متوترًا بشكل رئيسى مع معناه الداخلى، لأن الشيء الذى نقدره فوق كل شيء عن أمريكا فى

هذه اللحظة هو الطريقة التى تقيس بها أملها بمبادئ الديمقراطية، والتسامح، والقانون، واحترام الآخر، وحتى التعاطف الاجتماعى. لقد كان موقفنا الوطنى الأسمى فى هذه الأزمة يكاد أن يكون دعوة عالمية للحرب، والواقع أن الميل المتنامى تجاه الحرب، والذى أججته بلاغة أكبر زعمائنا، ربما يتجسد حالاً فى الإعلان الرسمى من جانب الكونجرس للحرب. وقبل أن نمضى شوطًا أبعد، يجب أن نفكر جيداً فى سبب توجهنا فى هذا المسار، وإلى أين قد يؤدى بنا، فهل بلاغة الحرب والأفعال التى حركتها فعلاً تخدم حقًا الغرض الملح لوقف الإرهاب؟ وهل شن الحرب هو حقًا الأسلوب الوحيد لإظهار حبنا لأمريكا؟

وقبل أن نمضى قدمًا، دعونى أقرر ما هو واضح. إذ إن الاتفاق السائد ـ على اتساع العالم تقريبًا ـ بأن الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن يجب مقابلتها بالقوة، أمر صحيح تمامًا. ويجب استئصال شبكة الانتحاريين الذين يقتلون بالجملة، مهما كانت كبيرة وأينما كانت تختبئ. بيد أن القوة يمكن ممارستها بشكل حاسم ومهيمن فى سياق مختلف عن سياق «الحرب». إذ إن إحدى مراحل التقدم فى الحضارة حدثت عندما وجد بنو الإنسان طريقة لتوجيه العنف الضرورى بعيداً عن «الحرب»، وفى اتجاه سياق جديد موازن تجسد فى فكرة «القانون». وقد يبدو التمييز غاية فى الدقة بحيث لا يتناسب مع نتائج هذه الكارثة، ولكن التمييز يكتسى أهمية فائقة بعد الكارثة. ذلك أن الفرق بين «الحرب» و«القانون» ليس هو استخدام القوة. ويجب وضع الولايات المتحدة الأمريكية، مع كل حلفائها العالميين، لا على طريق الحرب، وإنما لشن حملة غير مسبوقة، وسريعة، وأكيدة، وضخمة لفرض القانون. وكما يتضمن مصطلح «فرض القانون»، فإن الاستخدام الصحيح للقوة يجب أن يكون جوهر هذه الحملة.

لماذا يهم مثل هذا التمييز؟ هناك أربعة أسباب:

* الحرب، تحديداً، نشاط يتم القيام به ضد كيان سياسى أو اجتماعى، بينما الشبكة الإرهابية المسئولة عن هذه الكارثة، بحسب كل التقارير، هى تحالف بين أفراد، وربما يكون تحالفًا كبيراً. أما فرض القانون، تحديداً، فهو نشاط موجه ضد مثل هؤلاء الأفراد أو الشبكات. وبتغطية استجابتنا للأعمال الإرهابية ببلاغة الحرب، فإننا نتسبب فى أن يصبح من المرجح تعرُّضُ أعضاء الجماعات المرتبطة ـ بصفة عامة ـ مع المجرمين

(العرب، المسلمين، الأفغان، الفلسطينيين. . إلخ) إلى عواقب مرعبة، بداية من قصفهم فى كابول إلى ممارسة التفرقة العنصرية ضدهم فى بوسطون. وعلاوة على ذلك، فإن بلاغة الحرب، عندما تقع على مسامع مثل هؤلاء الناس (بليون مسلم)، تجعل من المحتمل تمامًا أن يروا أمريكا بوصفها عدوًا لهم.

* الحرب، تحديدًا، غير منضبطة نسبيًا. إذ يمكن اتخاذ خطوات لتحديد «الدمار المصاحب» ولكن أسلوب الحرب، فى الحقيقة، يتمثل فى ممارسة الضغط على بنية القوة المعادية بإلحاق المعاناة على المجتمع الذى هى جزء منه. ويكشف التاريخ عن أنه ما أن تبدأ الحروب حتى يصير العنف عامًا. وكما هدد الرئيس بوش، لا تمييز فى الأمر. أما فى فرض القانون، وعلى العكس، فإن التفرقة تبقى أمرًا جوهريًا. إذ إن فرض القانون يخضع لنظم يتم طرحها بعيدًا فى الحرب.

فهل نملك حقًا الحق فى طرح هذه النظم الآن؟

* والحرب، بالمثل، أقل اهتمامًا بالإجراءات من اهتمامها بالنتائج، أو بوضوح أكثر، فى الحروب تبرر الغايات الوسائل. أما فى فرض القانون، فتبقى الغاية مجسدة فى الوسيلة، وهذا هو السبب فى الحرص الشديد على الإجراءات فى نشاط العدالة الجنائية. والاستجابة لأى انتهاك خطير من جانب إرهابى للنظام الاجتماعى بمزيد من الانتهاكات لذلك النظام، تعنى أن الإرهابى هو الرابح.

* وتولد الحرب حتما حركتها الدافعة الخاصة، وهى قوة لها طريقتها فى الهيمنة على الأغراض الإنسانية التى بدأت الحرب من أجلها فى البداية. ففى أرض الموت التى يجرى عليها اشتباك العنف، يمكن النظر إلى النقد الذاتى على أنه شك فى النفس مهلك، ولهذا قوة الدفع الوحشية للحرب نادرًا ما يتم التعرف على حقيقتها قبل فوات الأوان. وقاعدة العواقب غير المقصودة تنطبق على الحروب بشكل عالمى. أما فرض القانون، من ناحية أخرى، بنظامه الذى يقوم على التحكم والموازنات بين الشرطة والقضاء، فهو نظام يقوم بالضرورة على النقد الذاتى. إذ إن الرابطة الأخلاقية بين الفعل والنتيجة سوف تكون محمية على الأرجح.

ما معنى «كسب» حرب ضد الإرهاب؟ كيف صارت كراهية أمريكا مصدرًا للمعنى لأعداد غفيرة، تفاقم فقرها لحالة حرب؟ هل يجب لحملة ضخمة من العنف المنفلت أن

تصبح مصدراً جديداً للمعنى لأمريكا أيضًا؟ لقد كان مركز التجارة العالمى رمزاً للأمل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى يدخره الأمريكيون، وهو أمل تجسد فى القانون قبل كل شىء. وأن نكسب النضال ضد الإرهاب يعنى إلهام نفس الأمل فى قلوب كل هؤلاء الذين لا يملكون الأمل. وكيفية استجابتنا لهذه الكارثة هى التى ستحدد وطنيتنا، وتشكل القرن، وتخلد ذكرى أحبائنا الموتى.

حداد البنتاجون

١٨ سبتمبر ٢٠٠١م

يوم ٢٢ يناير ١٩٤١م، وهو اليوم الذى وُلدت فيه، تم الافتتاح الرسمى للمبنى الجديد لأركان الحرب فى آرلينجتون. وكونى أنا والبنتاجون يشارك أحدنا الآخر فى هذه المناسبة السنوية يبدو وكأنه رمز تعريفى لحياتى، حينما صرت، وأنا ابن ضابط فى السلاح الجوى أنفق معظم حياته العملية فيما يسميه العاملون «المبنى»، مرتبطًا برباط وثيق بالبنتاجون، وإذ تم بناء البنتاجون على موقع كان يسمى من قبل باسم قاع الجحيم، فإنه حل محل مطار واشنطن الأصلى، مطار هوفر، الذى تم نقله إلى مكان أسفل النهر، وأعيد تسميته المطار الوطنى، لكى يفسح مكانًا للبناء الضخم الجديد. وتبدو تفاصيل هذا التاريخ المفقود أشبه بالأشباح الآن، بعد أسبوع من اقتفاء إحدى الطائرات المخطوفة مسار الهبوط القديم لتحط بشكل مميت، لكى تقتل الكثيرين وتغرس بقيتنا فى الحزن على الموتى، والحزن حتى على المبنى.

وليس كثيراً جداً أن أقول، إننى عندما كنت طفلاً، كنت أذهب هناك بعد المدرسة للقاء أبى، وقعت فى حب المكان الأثرى الذى يعمل به. والحقيقة أنها صارت نوعًا من اللحظة الحية بالنسبة لحبى له. فقد كانت ممراته ملعبًا، وتلتئم أجزاؤه فى أول مجمع للتسوق. وكان رجاله ونساؤه فى زيهم الموحد هم أول النجوم بالنسبة لى. وفى تلك الأيام البريئة لم يكن الحراس الأمنيون يحولون بينى وبين استكشافاتى، على الرغم من أنه فى مرة أو مرتين تم استدعائى بسبب تزحلقى على السلالم العريضة. وكطفل خفى لديه الحرية فى أن يتجول خلال سياج من أعلام المعارك وصور الأبطال المعلقة على

الحوائط، عرفت أننى يمكن أن أتوه، ولكن هذا لم يحدث أبدًا. وعلى أى حال، كان أبى يجدنى دائمًا.

ثم، بوصفى شابًا يعارض حرب ڤيتنام، ليس من المبالغة أن أقول إننى كرهت البنتاجون لفترة من الزمن، لأن ما أعرفه كان قليلاً إلى حد بعيد. إذ إن المظاهرات المعارضة للحرب والتى جرت هناك كانت، بالنسبة لى ولكثيرين غيرى، طقوسًا للدخول إلى نوع مختلف من الوطنية. بيد أننى وعلى خلاف الكثير من رفاقى المحتجين، لم أكن قادرًا أبدًا على رؤية البنتاجون بوصفه شرًا خالصًا «بيت الموتى»، كما أسماه البعض. وفيما بعد كان لى أن أفهم أن المعارضة ضد التصعيد فى ڤيتنام كانت تجرى بنفس القدر داخل المبنى وخارجه ـ بما فى ذلك اعتراضات أبى التى لم أعرف شيئًا عنها فى ذلك الوقت. وجاءت الحرب لتشكل فيما بينى وبين أبى شرخًا لم نعبره أبدًا. ولذلك فليس غريبًا أننى على مدى سنوات كثيرة بعد ذلك، اتخذت موقف اللامبالاة الحذرة تجاه المكان.

ثم حدث منذ سنوات قليلة مضت، وأنا أكتب مقالة لصحيفة New Yorker، أن أمضيت عدة أيام فى إعادة اكتشاف المبنى وتركيبته: وكان عنوان المقالة «الحرب داخل البنتاجون». وإذ أجريت مقابلة مع أحد كبار الموظفين، شعرت بقشعريرة وأدركت أننى كنت فى مكتب أبى القديم، أى نفس الحجرة بعد أربعين سنة. وفى الممر ـ بعد المقابلة ـ هاجمنى الشعور بأول حلم لى عن أمريكا. العزة التى يقف بها المبنى حارسًا على واشنطن من موقعه بين النهر والمقابر، جعلته يبدو المثوى الفعلى لفضيلة أمتنا. وفى ذهنى الشاب غير المجرب كان المكان يبدو مقدسًا.

وعلى الرغم من عدم اعترافى على مدى عقود طويلة بالإله الذى يعبده، فما اكتشفته يوم الثلاثاء الماضى، مع كثير جدًا غيرى، هو أن البنتاجون دائمًا يحتل مكانة حميمة فى قلبى. وفى حالتى، فإن الأمر فى الواقع يبدو كما لو كان المبنى وأنا توءمين، وكل منا يحمل علامات متشابهة عن التعقيد الأخلاقى الكامن فى الحياة الإنسانية. فقد كان البنتاجون وطنًا للأبطال الذين خاضوا الصراع ضد النازية والستالينية، ووطنا للذين انتقدوا حرب ڤيتنام من الداخل. بيد أن البنتاجون خيمت عليه ظلال التاريخ الأسود لعصرنا. إذ تبقى ڤيتنام، على أى حال، علامة جرح غائر. وربما ليس هناك

شىء يحدد الظلال أفضل من حقيقة أن الرجل الذى أشرف على تشييد المبنى، وهو البريجادير چنرال ليسلى جروڤز، انتقل لكى يشرف على مشروع ضخم آخر - مشروع مانهاتن - وهو ما أدى إلى تحريك عواقب ما تزال تتسبب فى الكوابيس للعالم. إذ إن مشروع مانهاتن باسمه ذاته يستدعى إلى الذاكرة هذا الأسبوع الهجمات على مانهاتن بطرق لم تخطر لنا على بال أبداً.

فقد حدد الرئيس بوش نضال الأمة بأنه نضال بين الخير والشر، وهو مر مفهوم. وحوادث القتل التى جرت الأسبوع الماضى ليست سوى أعمال شيطانية. إلا أن هناك حكمة ندعيها فى عمر البنتاجون، لأنه فى هذه العقود تم انتزاع الافتراضات القائلة بالفضيلة الأمريكية المطلقة، بنفس الطريقة التى تنزع بها الحياة الشباب من كل شخص. فعند نقطة بعينها، نتوقف عن البحث عن آبائنا. إننا نعرف أنه حين يخلى التعقيد الأخلاقى مكانه للمانوية(*) التى تقسم العالم بين الملائكة والشياطين، فإن البشر هم الذين يتم اصطيادهم فى المنتصف. وكما نحزن على الناس الذين ماتوا فى البنتاجون، دعنا نشرفهم أيضًا بأن نمضى بنضالنا قدمًا، لا بالشجاعة فقط التى يقف المبنى من أجلها، ولكن أيضًا بالتواضع الذى يتطلبه تاريخه منا.

هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب

٢٤ سبتمبر ٢٠٠١م

عندما استخدم الرئيس بوش مصطلح «الحملة الصليبية» فى الأسبوع الماضى أنكر المتحدثون باسمه هذا المصطلح، ولأسباب قوية. ولكن بعيداً عن كونها تاريخًا مضى منذ زمن بعيد يمكن أن نتنصل منه علنًا، فإن الحملات الصليبية خلقت حالة من الوعى ما تزال تشكل عقل الغرب، وإذا لم يكن الأمريكيون يعرفون هذا فإن المسلمين يعرفون. إننا يجب أن نأخذ ملاحظة الرئيس العفوية مناسبة للتفكير فى هذا.

يحصى الباحثون سبع أو ثمانى حملات صليبية حدثت فى فترة مائتى سنة بين سنة ١٠٩٦ وسنة ١٢٩١م. لقد كانت حروبًا تم شنها ضد الإسلام للسيطرة على ما أسماه

(*) عقيدة ذات أصل فارسى تقوم على فكرة الصراع بين الخير والشر. (المترجم).

المسيحيون الأرض المقدسة، ولكنها أيضًا تضمنت صراعًا وحشيًا بين اللاتين والأرثوذكس، ثم داخل المسيحية اللاتينية نفسها فى نهاية المطاف. وليس فقط تبقى وحشية هذه الحروب فى الذاكرة فى مناطق شاسعة من العالم اليوم، وإنما أيضًا لأن الخطوط التى رسمتها تبقى حدودًا خلافية حتى الآن ـ على نحو ما تكشف الحروب التى جرت فى البلقان فى تسعينيات القرن العشرين. وهناك على الأقل أربعة أعمدة أو ركائز رئيسية للعقل الغربى، وضعتها الحروب الصليبية.

* كانت الحروب الصليبية هى المرة الأولى التى يتم فيها تعريف العنف من جانب الكنيسة على أنه فعل مقدس. «إنها إرادة الرب» كانت صيحة المعركة التى شن بها البابا أوربان الثانى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م. فكل من «يأخذ شارة الصليب» لمحاربة الكفار كان ينال الغفران، فإذا ما قتل، يضمن مكانًا فى السماء. وجاءت الحماسة والطاقة من أجل الحرب من الاقتناع بأن، كما صاغها الرئيس بوش فى خطابه إلى الكونجرس، «الرب ليس محايدًا». إذ يذهب الصليبيون إلى الحرب وهم واثقون بأن الرب يباركهم.

* يقسم العقل الصليبى العالم إلى «نحن» و«هم». والواقع أن الحملات الصليبية كانت جهدًا متعمدًا لجعل أمراء أوروپا يتوقفون عن محاربة بعضهم بعضا ويحاربون العدو فى الخارج بدلاً من ذلك، ونجح الجهد. وقد أسست الحملات الصليبية اتفاقًا أيديولوچيا جامعًا بين المسيحيين، أدى فى نهاية الأمر إلى توحيد البنى السياسية والثقافية. والواقع أن أوروپا لم تصبح «أوروپا» حتى عرَّفت نفسها فى مواجهة الإسلام، وذلك الإنكار يبقى كامنا فى ثنايا فهم الغرب لذاته اليوم.

* ولكن التعبئة ضد العدو الخارجى تؤدى حتمًا إلى خوف الپارانويا من الأعداء فى الداخل. فأى شخص لا يشارك فى الاتفاق الجديد كان يُعَدّ خطرًا حالاً. وصارت الحرب ضد الإسلام فى الخارج حربًا ضد المخالفة فى الداخل. وهذا هو السبب فى أن «المنشقين»، أو المسيحيين الأرثوذكس، والهراطقة الألبيچنسيين، سرعان ما أصبحوا هدفًا للحملات الصليبية أيضًا.

* ولكن العدو النهائى فى الداخل كان اليهود بطبيعة الحال. ذلك أن الحركة من نزعة معاداة اليهود الدينية من جانب الكنيسة الباكرة، إلى معاداة السامية فى العصر

الحديث، استمدت أكثر منعطفاتها حسمًا من الحملة الصليبية الأولى، التى كانت هى المناسبة، فى أراضى الراين ربيع سنة ١٠٩٥م، لوقوع أول مذبحة منظمة واسعة النطاق فى التاريخ الأوروبى. وقد عارض زعماء الكنيسة العنف ضد اليهود فى الحملات الصليبية التالية، ولكن دون إدانة أبدًا للافتراضات اللاهوتية الكامنة التى جعلت هذا العنف حتميّا. وزعماء اليوم يشجبون الكراهية العامة ضد المسلمين، ولكن هوية حربهم ضد الإرهاب قد تجعل من هذه الكراهية أمرًا محتومًا.

وها هى الأسئلة التى يطرحها هذا التاريخ علينا:

* هل يمكن أن نستجيب لهذه الأزمة دون أن نقسم العالم مرة ثانية إلى «نحن» و«هم»؟ أمن الحكمة، مثلاً، بالنسبة لأمريكا أن تصر على اختيار عالمى للفرقاء، وهو ما يمكن للإسلام، أن يسمعه على أنه نفس صيحة الحرب القديمة؟ هل يمكننا أن نعول على تأييد أولئك الذين وقعوا فى فخاخ المنتصف، مثل برويز مشرف فى پاكستان أو الزعماء العرب الآخرين، دونما أن نستثير جماهير بلادهم ضدهم؟

* هل يجب أن نعرف هذا الصراع باللغة الكونية - والتى تبرر نفسها - عن الخير ضد الشر؟ ومثلما يصدق هذا على كل صراع إنسانى، فإن هذا الصراع غامض ومبهم أخلاقيّا. ولم يكن ثمة غموض حول الشر فى هجمات الحادى عشر من سبتمبر، ولكن تلك الهجمات برزت من طيات مجموعة معقدة من الأحوال السابقة، وبعضها يتضمن استحقاقنا للوم الأخلاقى. ينبغى على أمريكا أن تتصرف فى هذه الأزمة بمعرفة كاملة لقدرتها الخاصة على إتيان الأخطاء القاتلة وارتكاب الأفعال الشريرة. ولا يجب على أمريكا أن تعرّف الاختلاف على أنه عدم ولاء.

* هل الحرب هى استجابتنا الوحيدة الممكنة لهذه الأزمة؟ فبالإضافة إلى تسليم الإرهابيين إلى العدالة، ألا يكون تصرفنا صحيحًا تمامًا الآن إذا ما بدأنا جهدًا ضخمًا متزامنًا لمخاطبة المصدر النهائى للإرهاب - أى الإفقار الجذرى لملايين الناس، لاسيما فى العالم العربى، ولاسيما فى الضفة الغربية وغزة؟ هل يمكن أن يأتى من أمريكا ما هو أكثر من صواريخ كروز، و MTV؟

إن الطريقة الوحيدة «هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب» فى عبارة الرئيس، لن تكون إعادة عرض الجرائم والمآسى الماضية، إذا أدنّا عقلية الصليبى وليس

مجرد كلمة «حملة صليبية». ويمكن أن نبدأ بالاعتراف، أولا، بأنه عندما يذهب البشر إلى الحرب، فإن الرب لا يريدها بأى حال من الأحوال.

يوم ميلاد غاندى

٢ أكتوبر ٢٠٠١م

عندما أكد رئيس الوزراء الإيطالى سيلڤيو برلسكونى، الذى عين نفسه متحدثا باسم الغرب، فى الأسبوع الماضى «تفوق حضارتنا»، فإن المرء يعجب ما الذى كان مهاتما غاندى سيفيد منها. ويثور السؤال لأن اليوم هو عيد ميلاد غاندى. ما الذى يمكن تعلمه من عبرة الأزمة الحاضرة فى ضوء حياة الزعيم الهندى وتعاليمه؟

ولد موهانداس كرمشاند غاندى فى الهند لعائلة من طبقة التجار سنة ١٨٦٩م. وفى شبابه درس القانون فى لندن وانطلق للممارسة فى دوربان بجنوب إفريقيا. وتشكلت السنوات العشرون التى أمضاها فى جنوب إفريقيا بالنضال ضد البنى العنصرية فى البلاد. وفى مذكراته يحدد غاندى تاريخ تحوله إلى المقاومة السياسية غير العنيفة فى اجتماع احتجاجى فى چوهانسبرج، وكانت السنة هى ١٩٠٦م، وكان اليوم هو الحادى عشر من سبتمبر.

وعندما عاد غاندى إلى الهند صار جزءاً من حركة حكم الوطن، والتى تطورت على مر عشرات السنين إلى حركة استقلال كاملة وصار زعيمها الأساسى. وإذ اتبع إستراتيچيات عدم التعاون والعصيان المدنى، نمت الحركة واتسعت. وكانت إحدى ذراها، سنة ١٩٣٠م، هى «الزحف إلى البحر»، حيث تجمع الآلاف لعمل ملحهم الخاص بهم احتجاجًا على ضريبة حكومية على الملح. كان الوقت الذى أمضاه فى السجون البريطانية، وفترات الصيام العام القاسية، والزهد المتطرف، وما اكتشفه فى تراث ديانته الهندوسية، من المصادر الروحية التى ثبتت النضال السياسى الكبير - كل هذه كانت علامات بارزة فى حياة غاندى. إذ إنه لم يعارض فقط الاستعمار البريطانى ولكنه عارض أيضا النظام الطائفى الهندى، لم يعارض الراچ فقط ولكن الاضطهاد الذى كان الهنود يعانونه على أيدى طغاتهم. وقد أسبغ عليه أتباعه اللقب التشريفى «مهاتما»، أو «الروح الكبيرة». وفى سنة ١٩٤٧م تم تحقيق استقلال الهند. بيد أن

الصراع لم ينته. إذ إن الطوائف المسلمة والهندوسية وقفت بعضها قبالة بعض، وهو انفصام أدى إلى تأسيس بلدين مستقلين، پاكستان والهند. وعارض غاندى الانفصال. وفى سنة ١٩٤٨م قام بصيام عام لصالح الصداقة الإسلامية ـ الهندوسية. وفى غضون أيام تم اغتياله على يد متطرف من أبناء طائفته الهندوسية.

وتحظى نزعة غاندى السلمية بالإعجاب فى صيغتها المجردة اليوم، ولكن فى الممارسة يتم رفضها على نطاق واسع بوصفها نزعة مفرطة فى المثالية، بل وبوصفها غير مسئولة أخلاقيًا. وأسىء فهم نزعة غاندى السلمية بوصفها رفضًا لمقاومة الشر أو معارضة العنف، على حين أنها فى الحقيقة شكلت بعض أقوى أعمال المقاومة فى القرن العشرين. ولقد برهن رفض غاندى العنف على أنه قوة لا يمكن إيقافها أدت إلى تحولات سياسية حول العالم، من الولايات المتحدة (مارتن لوثر كنج چونيور) إلى أيرلندا (چون هيوم)، إلى الفيليپين (كورازون أكينو) إلى الاتحاد السوڤييتى (ليخ ڤاليسا). والحركة التى تعرفت على غاندى بوصفه بطلا مؤسسًا، كانت أعظم حدث أخلاقى فى القرن، كما أنها كانت أيضًا أكثر فعالية من الناحية السياسية.

وأن نلاحظ عيد ميلاد غاندى اليوم، فى ضوء المخاطر المتصاعدة من الإرهاب، ومنظور الصراع بين الغرب والإسلام، والكابوس الخاص الذى تمثله الأسلحة النووية فى شبه القارة الهندية، إنما هو يعنى أن نتذكر أن الكثير لم يكن قد تم إنجازه عندما مات غاندى. فعلى أى حال، اغتال إرهابى غاندى، وفشل أمل غاندى فى تحقيق السلام الهندوسى مع الإسلام، وانطلق خلفاؤه يعكفون على برنامج الهند الخاص بالأسلحة النووية. ولكن شيئًا من هذا لم يمْحُ النظرة الثاقبة العظيمة التى جلبها غاندى إلى العالم (وهذا ما أتذكره بمساعدة من الكتّاب جون سى. ديون، ومارتين جرين، وسيسلا بوك، وتايلور برانش، وچوناثان شل). وقد بدأ غاندى بالتبنى العاطفى «للحب»، كما وجده فى قراءة تولستوى للمسيح، ثم تحرك صوب تقدير العصيان المدنى عند ثورو، وابتكر مفهومًا جديدًا للاَّعنف الذى هو مقاومة مانعة. وفكرته التى حملها وهو يعبر ذهابًا وإيابًا بين ثقافة وأخرى، تحترم تمامًا الاختلافات الدينية والثقافية ـ على عكس بيرلسكونى مثلاً. إذ إن غاندى اعتمد ببساطة شديدة على ما أسماه «ساتياجراها»، أو قوة الحقيقة. إن الحقيقة سوف تحرك. لقد كانت إستراتيچية غاندى طوال حياته أن يجلب لحظات التعميد (الغطاس) عندما تصل الجماهير العريضة لمعرفة

حاسمة سياسية وأخلاقية . وكانت تعاليم غاندى تقول إن أعمال المقاومة التى تعرى الشخصية الحقيقية للشر سوف تؤدى إلى رفض واسع المدى لذلك الشر . ويشى تاريخ الحركات المذكورة فيما سبق بأن هذا ليس سوى الضعف التافه الذى يهزأ منه أولئك الذين يفضلون الحرب .

كانت أحداث الحادى عشر من سبتمبر هى النقيض تمامًا «للساتياجراها» ، ولكنها كانت لحظة الحقيقة فى تاريخ العالم ، كانت تعرية كاملة للشر المتمثل فى الإرهاب العالمى . والأكثر من ذلك ، تصاعد الهجوم الوحشى على آلاف من المدنيين الأبرياء ليكون نوعًا من الظهور كان يمكن أن نرى فيه المعنى الحقيقى للعنف المعادى للحضارة بوضوح نادر . وأخيرًا ، فإن الحرب ضد المدنيين ، وهى الصيغة الرئيسية للحرب على مدى ما يزيد على نصف قرن من الزمان ، ظهرت على حقيقتها . ويجب للاستجابة الأمريكية أن تحتفظ بهذين الظهورين ـ بمقاومة الإرهاب ولكن دونما شن حرب بلا تمييز . ولم يكن إيمان المهاتما غاندى بقوة الحقيقة ، واستعداد بنى البشر للتغير حينما يواجهون الحقيقة ، فى مثل هذه الصورة الحية للأمل أبدًا قبل .

الدين: مشكلة أم حل؟

٩ أكتوبر ٢٠٠١م

يمضى السياسيون والمعلقون شوطًا كبيرًا للتأكيد على دين المسلمين ، رافضين زعم الإرهابيين بأن جريمة ١١ سبتمبر الشنعاء كانت عملاً من أعمال التقوى الإسلامية . وهذا ما ينبغى أن يكون . فالإسلام دين نبيل يؤكد على «التسليم لله» والحب الحميم للجار . إنه مصدر يحمل المعنى للملايين ، حسبما يؤكد المعلقون ، وكل هذه الملايين ـ باستثناء شرذمة صغيرة ـ يرفضون العنف والوحشية التى يتسم بها الإرهابيون . وكان الزعماء الدينيون المسلمون صرحاء واضحين فى إدانة الهجمات الغادرة ضد أمريكا . بيد أن هناك شيئًا مفقودًا فى التأكيد بحسن نية على أن الإسلام دين نقى تمامًا ولا صلة له بالأفعال الشريرة التى تم ارتكابها باسمه . فمع كل هذا العنف الذى تم ارتكابه باسم الله من جانب متدينين من مختلف الأنواع حول العالم ، ثمة سؤال قديم يطرح نفسه ،

وهـو ليس عن الإسـلام وحـده : هل الدين هو الحل ، أم هـو المشكلة؟ أم أنه كـلاهمـا معا؟

قـال رئيس الوزراء البريطاني تونى بلير فى الأسبوع الماضى إن الهجمات الإرهابية لم تكن انعكاسًـا للإسـلام الحقـيـقى ، أكـثـر مما كـانت الحـمـلات الصليبية انعكاسًا للأناجـيل . وهو رأى عـادل تمامًـا . بيـد أن المقـارنـة تحـمل الإرشـاد فى طيـاتهـا . إذ إن المسيحيين اللاتينيين يحبون أن يكونوا قادرين على القول بأن المتعصبين المهيجين الذين هاجموا القدس سنة ١٠٩٩م كانوا يتصرفون بطرق لا علاقة لها بالعقيدة المسيحية أو الممارسة المسيحية ، وهذا مثال واحد فقط ، ولكن الحقيقة ـ وهذا ما يجعل الحملات الصليبية تسبب الرجفة على هذا النحو ـ أن الحرب المقدسة كانت مرتبطة ارتباطًا داخليًـا باللاهوت (عنف الرب) والطقـوس المسـيـحـيـة (شـارة الصليب) وبالسلطة (البـابوات الصليبيون) . واليـوم ، نحب أن نفكر فى الـدين بوصـفـه أحدتلك الجوانب الإيجـابية فى الحيـاة . ونسرع فى رفض التصـرفـات السلبيـة أو المواقف السلبيـة التى يفرخهـا الدين بحسبـان أنهـا ليست «دينية» حقًا . ويفعل الفـاتيكان هذا بالتأكيد على الكنيسـة الكاثوليكية بلا خطيئـة تمامًـا ، وهو مـا يعنى أن جـرائم الكنيسـة (الحـمـلات الصليبية ، ومحـاكم التفتيش . . إلخ) قد ارتكبهـا أعضـاء خُطاة ، ولـم ترتكبهـا الكنيسة أبدًا . فالدين جيد . وإذا كان الدين يحبذ السلوك السيء ، فهو ليس دينًا حقيقيًا .

بيد أن هذه الطريقة فى التفكير تُعفى الدين من المسئولية . وهو ما يعنى أننا يمكن أن نأسى «لخطايا» الأعضاء الخاطئين دون طرح أسئلة صعبة عن من أين أتت تلك الخطايا . ولكى نبقى مع المثال المسيحى ، هل كـانت الأعـمـال التى لا نَـهـاية لهـا لمعاداة السـامـية المسيحية انحرافات ، أم أنهـا كانت على نحو مـا مرتبطة بالنصـوص المعادية لـليهـود فى العهـد الجديد ، أو بالطريقة الأصولية التى عرفت بهـا المسيحية نفسهـا ضد اليهـودية ، وهكذا؟ وإذا مـا كـانت اللاسامية انحرافًا ، فإن الاعـتـذار عن أفعـال «الأعضـاء الخطاة» يكفى . أمـا إذا كانت معـاداة السامية قد نمت من طيات عقـائد وممارسات جـوهرية ، فإن الاعـتـذار لا يكفى ؛ فلابد من تغيير المعتـقـدات والممـارسـات . وإذا كـانت الجرائم التى ارتكبت باسم الدين يمكن فصلهـا بسهولة عن الدين «كما هو» ، فإن الفهم الكامل لهذه الجرائم ، ووجود طريقة لمقاومتها ، قد يصعب علينا إدراكه .

ومن الواضح أننى أتكلم هنا عن جميع الأديان. ومن التضليل وعدم الفائدة أن نفكر فى الدين بوصفه أمرًا خطيرًا خالصًا. فالدين مثل كل شىء فى الشئون الإنسانية، مبهم - جيد جزئيًا وسىء جزئيًا: جزء حل وجزء مشكلة. فقد ساعد الدين على التحسينات الكبرى فى الحياة الإنسانية، وما يزال يدعم بعض أعظم أعمال العالم من أجل الخير. ولكن الدين أيضا يخلط بسهولة ما بين هدف عبادته - أى الرب - وما بين الدين نفسه، وغالبًا ما يدفع الكائنات البشرية إلى زعم مزاعم مطلقة تؤدى حتما إلى كارثة مطلقة. إذ يمكن لمشاعر التفوق الدينى أن تؤدى إلى، وهى تؤدى بالفعل إلى التصنيف على أساس العرق، والقومية، والجنس، والطبقة. ويمكن للدين أن يصنع تحالفات غير مقدسة مع التجارة ومع الغزو، على نحو ما حدث طوال عصر الإمبريالية الأوروبية. ذلك أن المزاعم الأحادية للموحدين يمكن أن تؤدى إلى احتقار البشر الذين لا يشاركونهم، والنهاية المفتوحة للشرك يمكن أن تقوض التمايزات الجوهرية للفكر. كما أن اليقين الذى غالبًا ما يصاحب ظاهرة «الإيمان الحقيقى» يبدو دائمًا أنه يؤدى إلى استئصال قاس لما قد يهدده، أو مَن قد يهدده. والدافع الدينى للموت فى سبيل العقيدة ينزلق بسرعة شديدة إلى الدافع للقتل من أجلها.

ليست هناك جريمة يتصرف فيها المسلمون على نحو ما اتهم به المسلمون، لم يتهم التاريخ المسيحيين - لنكتفى بذكر دين واحد آخر - بها. فلكى تكون متدينا يعنى أولاً أن تكون تائبًا نادمًا. وسيكون خطر «صدام الحضارات» أو حتى حرب مقدسة جديدة بين بقايا الغرب المسيحى و«العالم الإسلامى»، سيكون أقل كثيرًا إذا ما فهمنا جميعًا أننا كلنا متشابهون بوصفنا بشرًا. وأنبل دوافعنا تأتى حتما مجدولة متشابكة مع الميول المعاكسة التى تخونها. نحن البشر المتدينين يجب أن نخضع باستمرار لحكم التاريخ، ونمارس النقد الذاتى، ونسعى دومًا إلى الإصلاح الذى سيقربنا إلى أحسن مثلنا العليا. ومن المؤكد أن الإسلام مشتبك فى حساب من هذا النوع اليوم. بيد أن هذا العمل يتعلق بكل الناس المتدينين - الطريق الوحيد لتبجيل الرب، ولأن نحب جارنا كما نحب أنفسنا.

***

(٢)

أفغانستان

بعد ١١ سبتمبر بوقت قصير، قال نائب وزير الدفاع بول د. ولفويتز إن الهدف الأمريكي كان هو «القضاء على» الدول التي ترعى الإرهاب. وفي حالة القاعدة، تبدو مسألة «الرعاية» مسألة معقدة، لأن المجموعة بدأت في ثمانينيات القرن العشرين قوة تدعمها الولايات المتحدة لمقاومة الاحتلال السوفييتي لأفغانستان.

ولأن القاعدة شديدة في إسلاميتها فإنها تحالفت مع الفاشية الدينية ممثلة في طالبان في حربها ضد الفصائل المنافسة داخل أفغانستان. وعندما طلب الرئيس بوش من زعماء طالبان «تسليم» بن لادن بعد ١١ ـ ٩، كان أبعد ما يكون عن الوضوح أنهم يمتلكون القوة التي تؤهلهم لعمل ذلك. وتم إغفال طلبات طالبان بتقديم الدليل على ارتباط القاعدة بالهجمات الإرهابية.

وفي ٧ أكتوبر ٢٠٠١م، بدأت الولايات المتحدة قصف أفغانستان. وإذ بدأت بألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية، واستمرت في جنوب شرق آسيا، وفي حرب الخليج الأولى، وفي تسعينيات القرن العشرين في البلقان، كانت عقيدة البنتاجون في الألم الذي يتم إنزاله من الجو، تبرهن على كونها عقيدة مطلقة. والآن يظهر القصف الإستراتيجي مرة أخرى بوصفه المنهج الأمريكي الأولى في تحقيق أهداف السياسة الخارجية. فالضربات الجوية، بما في ذلك قصف ڤيتنام بأسلوب «مسح السجادة» عن طريق طائرات B 52، لم تكن تركز على أهداف القاعد بطريقة انتقائية. وربما كان السبب فقط هو أن طالبان يمكن استهدافها، في أن طالبان حلت محل القاعدة بحسبانها العدو الرئيسي لأمريكا. وبعد ذلك بشهرين، كانت عملية «الحرية الباقية» قد أجهزت بنجاح تام على نظام طالبان. وخسرت الولايات المتحدة خسائر قليلة. وأوضح البنتاجون موقفه من عدم إحصاء خسائر «العدو»، ولكن المصادر الموثوق بها

تقترح أن حوالى أربعة آلاف من مقاتلى طالبان تم قتلهم، وما يقرب من هذا العدد من المدنيين الأفغان ماتوا نتيجة للحملة التى قامت بها الولايات المتحدة. وتقريبا لم يعرف أن أحدًا من قادة القاعدة أسر أو قتل فى ذلك الوقت. ولم تفعل الحرب شيئًا لضرب خلايا القاعدة خارج أفغانستان، على الرغم من أن هجمات الحادى عشر من سبتمبر يبدو أنها قد نظمت فى هامبورج بألمانيا، وفى فلوريدا، وفى أفغانستان كذلك. وعلى العكس، فإن الحرب عززت صورة القاعدة فى الجهاد، والولايات المتحدة تتصرف تمامًا مثلما كان أسامة بن لادن قد توقع ـ وعلى النحو الذى أراده.

وهرب بن لادن. ومن بين سبعة آلاف أو نحو ذلك من محاربى ومقاتلى القاعدة ذوى المستوى الأدنى تم أسرهم، تم نقل أكثر من ستمائة إلى معتقلات الولايات المتحدة. وأكدت إدارة بوش أن معاهدة چنيف لمعاملة أسرى الحرب لا تنطبق عليهم، على الرغم من أن الأمريكيين عندما تم أسرهم على أيدى محاربى طالبان، طلبت واشنطن ـ وحصلت على ما طلبته ـ مراعاة شروط اتفاقية چنيف. وبعد ذلك بأكثر من عامين، كان ما يزال هناك أكثر من ستمائة محتجز من أربعين بلدًا فى معسكر دلتا فى خليج جوانتانامو، بكوبا، فى انتهاك للقانون الدولى والتقاليد الأمريكية. وبنهاية الحرب تم تأسيس شبكة سرية من السجون الحربية للولايات المتحدة عبر العالم.

كان الإنجاز الإيجابى الوحيد لعملية «الحرية الباقية» هو «القضاء على» نظام طالبان الرجعى، كما لو كان الغرض من حرب بوش هو تحرير النساء الأفغانيات ـ بل إن ذلك كان محل تساؤل فى غضون سنة. ولكن الحقيقة، كما أظهرتها الأحداث منذ ذلك الحين، أن أحدًا لم يتحرر حقًا بحرب أفغانستان. فبهروب بن لادن، لم يشف الأمريكيون غليلهم فى الانتقام. فلم تكن هذه الحرب كافية.

ولكن ما الذى تغير؟

١٦ أكتوبر ٢٠٠١م

تغيرت أمريكا إلى الأبد بكارثة الحادى عشر من سبتمبر ـ هكذا يقولون. ولكن أى نوع من التغيير؟ فعلى نحو ما تكشفت استجابة الولايات المتحدة فى الوطن وفى الخارج، فإن الاهتمام انصب على تحريك القوات. ويمكن أن يكون التغيير إلى الأسوأ

بدرجة كبيرة. فالعنف المتصاعد، والحقوق المدنية المتآكلة، والاقتصاد المستقطع، والصدام المميت بين الديانات والحضارات، والأسلحة النووية فى باكستان، وحرب فى أفغانستان ـ لقد صرنا خبراء متحكمين فى الأخطار التى قد تكون كامنة أمامنا. ولكن ألا ندين بهذا لجاذبية هذه اللحظة؟ ناهيك عن أولئك الذين ماتوا، لكى نتخيل بوضوح تام ماذا يعنى «التغيير نحو الأفضل»؟ ماذا لو أن كارثة ١١ سبتمبر أنتجت، على المدى الطويل، المعرفة والمبادرات التى تجعل أمريكا ـ والعالم ـ مكانًا أفضل كثيرًا؟ غرضى هنا ببساطة أن أدعو إلى حركة بعيدة عن السياق الحالى الذى يظل بالضرورة رهن غيوم التهديدات والأسئلة.

بدلا من ذلك اذهب بعقلك إلى الأمام خمسين سنة أو نحوها. حينما ينظر البشر إلى أحداث ١١ سبتمبر بوصفها ماضيًا، من مكان فى منتصف القرن، فهناك ما آمل أنهم سوف يرونه:

* منعطفًا تتخلى فيه الإقليمية من كل نوع عن أولوليتها لرؤية مشتركة واسعة النطاق لعالم واحد. والحث المفهوم للناس فى «العالم الأول» على السعى وراء مصالحهم الذاتية بغض النظر عن سكان الأرض الآخرين قد عُدّ وهمًا يؤدى إلى هزيمة الذات. كما أن بنى الحكم السياسية التى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر أخلت مكانها لنظم حكم تعكس ما فعلته تكنولوچيا القرن الحادى والعشرين للوعى العالمى. وهذا التحول لم يجعل من الأرض مجتمعًا واحدًا أحاديًا ومن ثم شموليًا، بل جعلها مجتمعًا يتكون من عدة مجتمعات، مع الاحترام الكامل للاختلافات الإقليمية والدينية وتبقى عبارة «فليبارك الرب أمريكا» شعارًا ولكن داخل شعار «فليبارك الرب العالم».

* نقطة تحول، يتحول عندها الأسلوب الأساسى فى حل مشكلات العالم من ثقافة الحرب صوب ثقافة القانون. وحدث التغير الحاسم عندما تم القبض على أسامة بن لادن ومساعديه بقوة تعمل وهى محكومة بالقانون. ولم يتم إعدامه بسرعة وهو ما يزال متعبًا، وإنما مثل للمحاكمة أمام محكمة جنائية دولية جديدة نظرت فى القضية المرفوعة ضده وضد شبكته. وتم منحه فرصة للدفاع، وفعل ذلك. كما أن توسلاته الزائفة للمسلمين ذهبت سدى. وقد أدين هو ومساعدوه وتم سجنهم على مدى الحياة. هذه الممارسة الطفرة للقانون الدولى بحد ذاته غيرت الطريقة التى استجاب بها البشر حتى إزاء الاستفزاز المتوحش.

* نقطة انعطاف تم الإدراك عندها أن الفقر الجذرى للملايين بوصفه مسألة أخلاقية ملحة ومصيبة سياسية يجب معالجتها سياسيًا على مستوى العالم. فالجوع بحسبانه مربيًا حتميًا للعنف تم تحديده أخيرًا بوصفه شكلاً من أشكال العنف فى حد ذاته. وتم عمل المواءمات بالطريقة التى تفهم الرأسمالية الديمقراطية نفسها بها، مع أسواق لم تعد تعمل بحسبانها الوسطاء الوحيدين لتدفق الأموال والموارد. وقد جعلت تكنولوجيا المعلومات من الممكن القيام بثورة تعليمية أدت بدورها إلى نشر الديمقراطية، والتسامح، وبخاصة حقوق المساواة للمرأة. لقد وجدت الرأسمالية وجهها الإنسانى.

* نقطة تحول تمت عندها رؤية القوة القائمة على أساس التهديد الشامل الموجه إلى المدنيين على حقيقتها ـ ليس فقط بين الإرهابيين ولكن بين الأمم التى ما تزال تحتفظ بترسانات من الأسلحة النووية بعد أن انقضت تبريرات الحرب الباردة بزمن طويل. وتم فهم الإرهاب على أنه السلاح النووى للفقراء. وبالإضافة إلى محاربة الإرهاب، تحولت الدول النووية ضد نظرياتها الخاصة عن الردع، لأنها أيضًا كانت قائمة على الاستعداد لارتكاب جرائم قتل جماعية. وبدأت واشنطن بإدانة أول استخدام للأسلحة النووية، وقامت من جانب واحد بتدمير الرؤوس الحربية، وأعادت التزامها بمعاهدات الحد من الأسلحة، كما أعادت تأكيد هدف التخلص نهائيًا من الأسلحة النووية. وفى هدوء سقط برنامج الصواريخ الدفاعية من الأجندة الأمريكية. وتمت هزيمة الإرهاب عندما تم التخلص من «ميزان الرعب».

واليوم تبدو مثل هذه التغيرات أحلامًا مستحيلة، ولكن هل هى كذلك؟ أليست الأزمة الحالية كشفا عن أرضية العدم التى تنتظر البشر فى نهاية الأمر إذا ما استمرنا فى تحديد إحساسنا بالممكن بمصطلحات ضيقة، ذلك أن «الواقعية»، لم تعد واقعية؟

ليس هناك علاج للكرب الذى حل فى الحادى عشر من سبتمبر، كما لو أن مثل هذه الخسارة يمكن تحويلها إلى مكسب. بيد أن هناك طريقًا لجعل ما حدث فى ذلك اليوم أشد سوءًا ـ إذا ما كنا فى استجاباتنا له، لا نغير جذريًا الطريقة التى نعيش بها على سطح هذا الكوكب، بداية بالكيفية التى نستجيب بها لأولئك الذين يكرهوننا. وفى الشهر الماضى برقت قصيدة دبليو. هـ. أودين التى تحمل عنوان «١ سبتمبر ١٩٣٩م». عبر الإنترنت، وأعتقد أننى أعرف السبب فى هذا بسبب خطها الأبسط والأصدق والأشد صعوبة، وهو خط طور الصراع داخل أودين نفسه على نحو ما كشفت

الأحداث بعد أن كتب القصيدة. ولكن خطه بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، لم يعد يبدو أكثر بساطة، ولم يبْدُ أكثر صدقًا، وأبدًا ليس أشد صعوبة «يجب أن نحب بعضنا بعضًا، وإلا فالموت لنا.

إعادة تأمل القصف بالقنابل

٦ نوفمبر ٢٠٠١م

عندما وقع نظرى للمرة الأولى على الطائرة B 52 فى منتصف خمسينيات القرن العشرين، صدمنى شعار القيادة الجوية الإستراتيجية المنقوش على جسم الطائرة: «السلام حرفتنا». مثل هذه الكلمات على طائرة حربية مخيفة كانت نوعًا من العزاء وأردت أن أصدقها. وحتى وأنا صبى، مع هذا، كنت بالغريزة متناغمًا مع التعقيد الأخلاقى للقصف بالقنابل، ولم أكن فى دهشة عندما تم الكشف فى أثناء حرب ڤييتنام، عن أن هذا الشعار كذبة كبيرة. فقد كانت حرفة تلك الطائرات هى أن تشفى غليل الانتقام، فترة من الزمان. وفى الأسبوع الماضى تم إرسال طائرات B 52 للعمل فوق أفغانستان، وهى الممارسة الأولى فى القصف بطريقة «مسح السجادة». وإطلاق سراح هذه الطائرة - الشبح القاسية، التى تسقط حمولات غير دقيقة من القنابل على ارتفاع أربعين ألف قدم، نذير مرعب. وأيًّا كانت التبريرات الواسعة للحرب التى تقودها الولايات المتحدة ضد الإرهاب، فإن الطريقة التى تُصعِّد بها هذه الحرب القصف الوحشى المتزايد تصرخ مطالبة بإعادة النظر.

فما أغراض القصف؟ وما آثاره؟ هذا السؤال المباشر لم يحْظ بالإجابة الحقيقية أبدًا من جانب حكومتنا. ذلك أنه يتم توجيه الحرب الجوية فى أفغانستان خلف ستار من السرية - ولكن حجابًا من السرية يحجب الأمريكيين وليس الأفغان الذين تنفجر هذه القنابل فوقهم. وتصرُّ حكومتنا على أن المدنيين ليسوا مستهدفين، وأن طالبان تزعم وقوع أعداد كبيرة من الضحايا المدنيين كنوع من الدعاية. ولكن أيًّا كان مقدار توقنا إلى أن نجد عزاءنا فى التمييز بين الأهداف المدنية والأهداف العسكرية، فإن القصف بالقنابل على طريقة «مسح السجادة» لا علاقة له بهذا، ويشى تاريخ القصف بالقنابل بأن هذا التمييز فى حد

ذاته كـذب فى كـذب . و«تاريخ القصف بالقنابل ـ A History of Bombing» هو عنوان كتاب ألفه كاتب سويدى هو سڤين ليند كڤيست ، واكتشافاته ، تعلمنا الكثير .

وأحد البلاد الأولى التى تم قصفها كانت ، من سخرية القدر ، هى أفغانستان ، فى أثناء فترة المغامرة الإمپريالية البريطانية سنة ١٩١٩م . وبعد الحرب العالمية الأولى ، أعلنت هيئة القوات الجوية البريطانية أنها سوف تفرض قيوداً لحماية المدنيين من أعمال القصف ، ولكن مذكرة داخلية حددت هذا الإعلان بأنه صدر «للحفاظ على المظاهر» لأن «الحقيقة هى أن أعمال الحرب الجوية قد جعلت مثل هذه القيود عديمة الفائدة ومستحيلة» . وهكذا طرحت المعضلة نفسها عند بداية انطلاق عصر القصف الجوى ذاته . وفى سنة ١٩٤٠م ، امتد التعريف البريطانى «للهدف العسكرى» لكى يشمل المراكز الصناعية ومنازل العمال ـ وهو ما كان يعنى أن مراكز المدن سوف يتم ضربها . وقد قاوم الاستراتيچيون الأمريكيون مثل هذا الاستهداف المتوازن للمدنيين فترة من الوقت ، ولكن بنهاية الحرب العالمية الثانية ، اشتبكت الولايات المتحدة بسعادة فى قصف جوى ضخم لكل المدن اليابانية ، وبخاصة طوكيو .

وحتى فى ذلك الوقت ، كانت ثمة تفرقة بالشفاه بين المدنى والعسكرى على سبيل التعزية ، كما لو كانت هناك مراعاة لذلك حقا . ومن المذهل أن تتذكر مع ليند كڤيست أنه عندما أعلن هارى ترومان للعالم أن أمريكا قد استخدمت القنبلة النووية ، كان قد حدد هدفها بأنه «قاعدة مهمة للجيش اليابانى» . وقال إن القنبلة النووية قد أسقطت على «القاعدة» لأننا «نحن كنا نرغب فى الهجوم الأول أن نتجنب بقدر الإمكان قتل المدنيين» . وكان ٩٥ بالمائة من المائة ألف الذين قتلوا فى الحال بتلك «القاعدة» التى تسمى أيضا هيروشيما ، كانوا من المدنيين كما كان ترومان يعرف بالتأكيد . ولكنه كان يعرف أيضًا أهمية «الحفاظ على المظاهر» .

وأكاذيب الولايات المتحدة بشأن القصف الجوى فى ڤييتنام ، حيث كان القتلى من المدنيين يضافون بشكل روتينى إلى عدد القتلى العسكريين ، أمر معروف تمامًا . وبعد الكشف عن لاأخلاقية الحرب ، كان من حق الأمريكيين أن يفترضوا أن القصف الجوى على طريقة «مسح السجادة» بواسطة القاذفات B 52 كان شيئًا من الماضى . وخلال حرب الخليج سنة ١٩٩١م ومع ظهور القنابل «الذكية» والصواريخ الموجهة بالليزر ، بدا وكأن القصف الجوى «الأخلاقى» الذى يستبعد المدنيين قد وصل ، بيد أن هذه المزاعم

أيضا، كانت زائفة. وقد عملت قاذفات B 52 هناك أيضا. كما أن الحرب الجوية التى خاضها حزب الناتو ضد صربيا سنة ١٩٩٩م، وعلى الرغم من كل المزاعم العظيمة عن الغرض «الإنسانى»، قد تميزت بإستراتيچية جعلت القاذفات تطير على ارتفاعات عالية لحماية الطيارين، ولكنها كانت عالية جدا بحيث لا يمكنها حماية المدنيين فى كوسوڤا على الأرض من عدم دقة القصف أو من الهجمات التى كان القتلة الصرب يشنونها. ويوحى التاريخ بأن مديرى الحرب لم يذكروا الحقيقة أبدًا عن الأغراض الحقيقية والتأثيرات الحقيقية لحملات القصف الجوى التى قاموا بها.

والآن؟ فى الأسبوع الماضى انكشف الإفلاس الأخلاقى للقصف الجوى عندما رفض وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أن يستبعد استخدام الأمريكيين للأسلحة النووية فى هذه الحرب. وينبغى أن نكون واضحين بشأن ما يعنيه هذا: وهو أن الولايات المتحدة، مستعدة تحت ظروف معينة، أن تتخطى العتبة النووية لتدخل إلى منطقة القتل الجماعى للمدنيين - وذلك، لحماية حياة المدنيين؟ وكيف لشعار «السلام حرفتنا»، أن يترجم إلى اللغة العربية؟ إن هذه التناقضات تشى بأن نوعًا من العمى الأخلاقى قد صاحب ظاهرة القصف الجوى منذ البداية. والواقع، أن العمى الأخلاقى ضرورى لها، لأنه يحجب أبصارنا عن، مثلا، الطريقة التى تقوم بها الولايات المتحدة بالقصف، على أقل تقدير، فى خلق ظروف كارثة إنسانية هذا الشتاء. وأنا أعتقد أن أسامة بن لادن يعول على مثل هذا العمى، وأننا بالقصف الجوى الذى نقوم به، لم نخيب أمله.

لماذا أحب هذه البلاد؟

١٤ نوفمبر ٢٠٠١م

قال «حسنا» بينما كنت أجلس. كان رجلاً ضخما فى حوالى الثلاثين من عمره، وفيه ثقة بالنفس للاعب كرة قدم سابق، مثلاً. وكان يجلس على الكرسى بجوار النافذة، وكنت أنا بجوار الممشى. وكنا بالقرب من مقدمة الكابينة. وكان هذا بعد حوالى شهر من كارثة مركز التجارة العالمى. وكانت رحلة خطوطنا الجوية الأمريكية تأخذنا من شارلوت بكارولينا الشمالية، إلى سان فرانسيسكو.

سألته: «حسنا؟».

أجاب «نعم، جيد»، وقام بفحصى، ومن الواضح أنه وافق على قامتى التى تبلغ ستة أقدام. وحول رأسه تجاه بقية الكابينة «لا أحد يقدر علينا».

وعلى هذا النحو بالضبط بدأت التعرف على الوعى الأمريكى الجديد. ولم يكن هناك أدنى شك فى أن هذا الرجل كان مستعداً للدفاع عن نفسه وعن المسافرين معه، كما أن توقعه بأننى سوف أنضم إليه ببسالة كان كاملاً. وقلت بقدر ضرورى من التواضع: «لا أحد يقدر عليك أنت». وضحكنا سويّا. ولكننى كنت طبعًا أجلس بجوار الممشى.

وإذ بدأت بمحاضرة فى مدينة نيويورك فى ٢٥ سبتمبر، كنت أسافر عبر أرجاء أمريكا كافة، متحدثًا فى الجامعات، ومشاركًا فى محادثات دينية مشتركة فى الكنائس والمعابد اليهودية، ومنضمًا إلى مناقشات حول الطوارئ الوطنية. وقد خبرت عن قرب الطرق التى يستجيب بها الأمريكيون لهذه الأزمة، من الطلاب إلى المتقاعدين، ومن الناشطين ضد الحرب فى كواكر كوليج إلى سماسرة وول ستريت الذين فقدوا زملاء لهم ومكاتب فى الهجوم؛ إلى العاملين فى مجال السفر الذين تجلى نبلهم فى انتظامهم فى العمل. وقد هزنى ما رأيته بعمق.

وكانت إحدى الرحلات الجوية الباكرة عائدة بى إلى بوسطون من تورنتو. وفى أثناء الطيران كان طاقم الطائرة من المضيفين يوزعون القهوة «الفطائر ـ Muffins». ونظر الرجل الذى فى الصف أمامى إلى الفطيرة وقال: «أين الفطور الساخن؟»، وأجابت المضيفة: «إننا نقدم فطائر النخالة هذا الصباح يا سيدى».

«ولكنكم تقدمون دائمًا فطوراً ساخنًا على هذه الرحلة».

«فى الوضع الجديد يا سيدى نقدم فطائر».

سأل الرجل: «كم من المال يمكن أن يوفر هذا للشركة؟».

وأجابت المضيفة الجوية «ليس كثيراً». ثم ثبتت الرجل بنظرة باردة: «التوفير فى مرتب مضيفة جوية نحتاجها لخدمتك. وبالنسبة لك هى فطيرة من النخالة يا سيدى. أما بالنسبة لصديقتى فهو خسارة وظيفة». قال الرجل «آه» بلهجة مرتبكة. ولم تكن عدم رحمته شيئا إلى جانب كرامة المضيفة الجوية.

وفى مرة أخرى، تصادف أن كنت أعبر مطار شيكاجو أوهار الدولى عندما مر رجل يحمل حقيبة ملأى بالسكاكين من خلال الأمن، وقد تسبب فى وقت لاحق فى إطلاق الإنذار الذى أدى إلى إغلاق المطار. وفى يوم وصولى إلى تاكوما بواشنطن، بعيداً جداً عن الساحل الشرقى المجروح، كان هناك جسر معلق قريب عُدَّ هدفًا محتملاً للإرهابيين. وكانت أفراد شرطة الولاية منتشرين. وفى محطة أتوبيس ببلدة صغيرة فى ڤيرمونت، أحسست أننى أبعد ما أكون عن التهديد، ولكن ذلك الإحساس تبدد عندما قرأت فى اليوم التالى فقط أنه تم القبض على إثنين مشتبه فيهما عند الحدود الكندية كانا قد استقلا حافلتهما من المحطة نفسها. القلق عالمى. وأنت تلاحظه على وجوه المسافرين المنتظرين فى محطات الوصول، وعندما يحملقون فى شاشات المطار وهى تبث الأخبار من شبكة CNN، التى لا تفعل شيئا سوى التحذير والتهديد. وأنت تحسه فى السهولة التى يتحدث بها الغرباء أحدهم إلى الآخر. وأنت تراه فى الخطوة السريعة التى يمشى بها الناس للوصول إلى منازلهم. وأنت نفسك تشعر بذلك.

وتشى صناديق استطلاع الرأى بأن الجماهير الأمريكية، وهم فى قلقهم، متوحدة بشكل تلقائى خلف رئيسها فى الحرب، وكان يمكن أن توضح الأعلام التى ترفرف فى كل مكان إعادة ظهور نزعة وطنية عاطفية. ولكن ما رأيته فى دستة من المواقع المختلفة هو شعب يغوص فى مشاعره، فى تأمل أخلاقى مركب على العكس تمامًا من الذين يطلقون الشعارات. وقد أهلنى عملى لأن أطرح الأسئلة عن مصادر الكراهية الدينية، شهدت الخزى الذى نشعر به - نحن غير المسلمين - بسبب جهلنا الشامل بمثل هذه الظاهرة العالمية المهمة. وبعبارة أخرى، يرفض الأمريكيون النصيحة بأن يروا هذه الأزمة ببساطة، على أن جذورها قد نبتت فى مكان آخر. وليس هناك تناقض بين الشعور الجياش بالوطنية ومعرفة أن الافتراضات الأمريكية قد تصدعت بشكل كارثى. إن الناس يرفعون العلم ويطرحون أسئلة قاسية عن أنفسهم فى الوقت نفسه.

نحن نتحدث عن «الجيل الأعظم»، أولئك الذين هزموا النازية حينما خاضوا الحرب. وكان للجيل التالى حربه أيضا. وعظمة ذلك الجيل تكونت فى الاختيار المأساوى لقبول الهزيمة لأن الحرب كانت خاطئة. وتتعرض أمريكا للاختبار ثانية. وفى الوقت الراهن تغلبت نزعة الإلحاح الغريزية للانتقام على الحكمة المتأنية التى تتمثل

فى الدفاع الحقيقى عن النفس، ولكننى أؤمن بأن الشعب الأمريكى - «جيد!» - لن يترك الحكومة تواصل هذه الحرب الوحشية الطائشة لوقت طويل.

هذه الحرب غير عادلة

٢١ نوفمبر ٢٠٠١م

فى الأيام الأخيرة، انضم المحررون العقلاء، والزعماء الدينيون، والسياسيون، والمعلمون الليبراليون، وأصحاب الأعمدة الحائزون على إعجاب القراء إلى جوقة رامسفيلد - رايس التى تمدح الحرب الأمريكية فى أفغانستان بحسبانها حربًا «عادلة». وتوصف طالبان بأنها مدحورة مهزومة. و«الخناق» حول أسامة بن لادن يضيق أكثر فأكثر حسبما يقولون. ويتم تصوير الأفغان على أنهم مبتهجون فى الشوارع، وأن النساء بينهم قد تحررن. وكل هذا لأن الولايات المتحدة قد أطلقت كل قوتها ونيران أسلحتها ضد العدو الشرير. وأى واحد يرفض التوقيع لهذه الحملة بالموافقة يُعَدّ غير وطنى.

ليس بهذه السرعة. إذ إن الاتفاق الأمريكى الواسع على أن حرب بوش حرب «عادلة» يمثل تقييما ضحلاً لهذه الحرب، وهى ضحالة نتجت عن أشياء ثلاثة:

* أولاً: الجهل. إذ إن الولايات المتحدة كشفت عن قدر ضئيل مما حدث فى منطقة الحرب، والصحفيون منعتهم القيود المفروضة عن الوصول للمعلومات، والوطنية العمياء جعلت حجم المعلومات التى أزيح عنها النقاب أقل. ترى كم من أولئك الذين وصفوا - بحماقة - هذه الحرب بأنها «عادلة» من خارج المؤسسة العسكرية يعرفون بالفعل ما تنطوى عليه هذه الحرب؟ من الواضح أن قصفًا جويًا شاملاً قد حدث فى كل أنحاء أفغانستان، ولكن ما تأثيره؟ وضد من؟ هل التركيز على طالبان التى كانت مستهدفة فعلاً، فى الحقيقة، قد أتاح للقاعدة الأكثر قدرة على المراوغة بالهرب بعيدًا؟ إن الحكم الحاسم حول «نسبية» حرب ما، وهو مركز أى استنتاج يتم الوصول إليه عن كونها «عادلة»، لا يمكن ببساطة أن يقوم على أساس المعلومات المتاحة حاليًا. وكيف تكون هذه الحرب «عادلة». إذا ما كانت الحرب غير المبررة ضد العراق والتى تتهيأ للانتقال إليها غير عادلة؟

* ثانيًا : السياق الضيق : إن النتائج المحتفى بها التى تبعت الحرب الأمريكية حتى الآن ـ انهيار طالبان ، وتحرير المرأة ـ هى محل ترحيب حقا ، بيد أنها حصاد هامشى نسبيّا ، ولا علاقة لها بهدف الحرب الأمريكية الذى تم إقراره وهو هزيمة الإرهاب . وهذه النتائج باهتة فى مغزاها إذا ما تم النظر إلى الصراع فى سياق المسألة الأكبر : هل يكسر هذا التدخل ؛ أو يعرقل على الأقل ، دائرة العنف الذى يمثل الإرهاب آخر انعطافاتها فقط؟ أو بتأكيد حتمية العنف ، هل تجهز هذه الحرب الأرض للحرب التالية؟ بإطلاق مثل هذه القوة النيرانية الضخمة ، هل نصنع أعداء محتملين قد يحاولوا مجاراتها بنفس أسلحة الدمار الشامل التى نرتعد منها إلى هذا الحد؟ واأسفاه ، إن الإجابة واضحة . إن هذه الممارسة «المهيمنة» للقوة الأمريكية كان تعزيزاً فجّا لأسوإ الدوافع فى التاريخ الإنسانى ؛ ولكن هذا هو العصر النووى ، وينبغى التحكم فى هذا الدافع ببساطة . إن هذه الحرب الأمريكية على النمط القديم حرب غير حكيمة فى النهاية ، وإذا بدأت أمم أخرى ـ باكستان ، والهند ، وإسرائيل ، وروسيا ـ تلعب وفق قواعد «حيّا أو ميتا» ، فهل سيظل هذا النموذج الأمريكى يبدو «عادلاً»؟

* ثالثًا : التعريف الخطأ لاستخدام القوة . هذه الحرب ليس «عادلة» لأنها لم تكن ضرورية . ربما تكون هى النوع الوحيد من القوة التى يعرف البنتاجون ممارستها ، بيد أن ذلك أيضا لا يجعل منها حربا «عادلة» . إذ كان يمكن تعريف الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر بأنها جرائم ، لا عمل من أعمال الحرب . كانت هذه هى الغلطة الأولى ، وقد لوح أحد الناقدين من أمثالى بهذا بينما كانت الهجمات تحدث . وبحسبانها واحدة من أكثر الجرائم وحشية فى التاريخ ، كان ينبغى الرد على الأعمال الإرهابية باستجابة سريعة قوية ذات أهداف أبعد كثيراً من الحرب الدائرة الآن . عمل من أعمال الشرطة ، وليس الحرب . فالمجرمون ، وليست الأمة التى أضناها الفقر ، هم الذين كان يجب أن ينالهم العقاب . وبدلاً من ذلك ، تم شن الحرب الشاملة ضد عدو بديل وتركت الشبكة الإجرامية المتنامية سليمة ـ ربما فى أفغانستان ، ومن المؤكد فى مدن رئيسية فى أماكن أخرى . وفى الوقت نفسه ، وبسبب الحرب ، يتم تقويض حكم القانون فى الوطن . وبسبب الضغط الذى تولده الحرب «للاتحاد» ، فإن عدم كفاءة أجهزة الأمن الداخلية الصادمة فى الولايات المتحدة لا تجد من يتحداها .

وفى فترة باكرة من الحرب، شجع كبار الموظفين الرسميين بالولايات المتحدة، بمن فيهم الرئيس ونائب الرئيس، فكرة أن هجمات الأنثراكس كانت تنبع أصلاً من شبكة أسامة بن لادن. وكان الخوف المفهوم الذى كبل بالتالى خيال العامة ـ عدو يمكنه أن يغلق الكونجرس ـ جانبًا حاسمًا فيما قاد كلاً من الصحافة والسياسيين لقبول فكرة أن حربًا شاملة ضد عدو شرير ستكون ضرورية وأخلاقية فى الوقت نفسه. والآن، فإن الافتراض الجارى هو أن حالات الأنثراكس، لا علاقة لها بأسامة بن لادن، وإنما هى جرائم محلية، وليست عملاً من أعمال الحرب. ولكن للحظة حاسمة، أدت بفعالية دورًا فى هذه الحرب يشبه الدور الذى قام به «الهجوم» على خليج تونكين فى حرب ڤييتنام، أى بوصفه مصدر هستيريا الحرب التى «وحدت» الأمة حول السبب الخطأ. وفى مثل هذا السياق، فإن من يبدى شكوكًا أكثر يوصم بعدم الولاء أكثر. وكلما زاد وصف هذه الحرب بأنها «عادلة»، بدا أكثر أنها خطأ.

الطريقة التى تنتهى الحرب بها

١٨ ديسمبر ٢٠٠١م

كتب توماس سى. شيلنج فى مؤلفه الكلاسيكى الذى يحمل عنوان «السلاح والنفوذ ـ Arms and Influence» «الطريقة التى انتهت بها الحرب كان يمكن أن تكون أكثر أهمية من الطريقة التى بدأت بها. وربما تكون الكلمة الأخيرة أهم من الضربة الأولى». ومن المؤكد أن حقيقة هذه الملاحظة كانت واضحة فى الطريقة التى انتهت بها الحرب العالمية الأولى بمعاهدة تعاقب العدو وتزرع بذور حرب فى المستقبل. وانتهت الحرب العالمية الثانية والحلفاء يتخطون حافتهم الأخلاقية بإطلاق غارات جوية وحشية ضد المدن، وبخاصة هيروشيما وناجازاكى. وكانت نهاية تلك الحرب بداية الرعب النووى.

أما نهاية حرب الخليج سنة ١٩٩١م فكانت قصة مختلفة، فعلى الرغم من أنها الآن عرضة للاستهزاء على نطاق واسع بحسبانها انهيارًا عصبيًا، فإن قرار چورچ بوش الأب والجنرال كولن پاول بوقف مذبحة جيش العراق المهزوم كان عملاً إنسانيًا. وإذ

ثم ترك صدام حسين الملعون فى السلطة تفضيلاً على سيادة الفوضى كان ذلك عملاً من أعمال الواقعية المتزنة. وعلى أى حال، كانت «الكلمة الأخيرة» فى تلك الحرب هى العقوبات التى، على مدى عشر سنوات، عوقبت بها الجماهير المدنية فى العراق بوحشية، دون أن تنال من صدام أو سلطته. وإذا كان هناك نذير فى حرب بوش الأب، فإنه لم يكن فى النهاية وإنما كان فى البداية. إذ إن التاريخ الذى ألقى فيه خطبته التى تحدد «النظام العالمى الجديد» أمام الكونجرس - «حكم القانون يحل محل حكم الغاب» - كان يوم ١١ سبتمبر ١٩٩٠م.

وبعد ذلك بإحدى عشرة سنة فإن السؤال هو: كيف ستنتهى الحرب الأمريكية ضد طالبان، وأسامة بن لادن، والقاعدة؟ أيًا كان حكم المرء على هذه الحرب سواء بالموافقة أو بالرفض، فإنه يبدو واضحًا أن أحد تأثيراتها كان تأسيس مناخ عريض «للقوة المهيمنة» فى مواجهة الهجمات الإرهابية - وهو ما كان يسمى فى عصر مضى «بالإفراط فى القتل». ونتيجة لهذا، تغير الجو السياسى بشكل جذرى فى الشرق الأوسط، وربما فى حرب روسيا فى الشيشان، ومع الهجوم الإرهابى فى الهند خلال الأسبوع الماضى، فى النزاع حول كشمير. وتتجمع السحب فى أماكن أخرى. وروح «حيًا أو ميتًا»، مع الرخصة الأمريكية الجديدة، تهدد بتصعيد العنف إلى مستويات لم تكن متوقعة من قبل فى كل موقف من مواقف الصراع. فقد انكسرت الآن روابط التبادلية، التى كانت فيما سبق تلزم الخصوم بالمفاوضات والديپلوماسية، والتعددية - وقرار الولايات المتحدة بخرق معاهدة الحد من الأسلحة النووية فى الأسبوع الماضى فقط يبرز هذه الظاهرة المرتبطة بزمن الحرب. وفى إنهاء الحرب بأفغانستان، ما الذى يمكن لأمريكا أن تفعله لكى تعيد على وجه السرعة بناء مبادئ التقييد وروابط التضامن العالمى التى قطعتها إستراتيچيتنا، حتى وإن كانت مبررة بالهجوم الوحشى الذى حدث داخل الوطن يوم ١١ سبتمبر؟

وفى إنهاء هذه الحرب هناك أربعة مسائل تؤخذ فى الاعتبار:

* تشجيع استسلام مقاتلى القاعدة، بما فى ذلك أسامة بن لادن نفسه، بالتأكيد على أنهم سوف يعاملون حسب مبادئ القانون الدولى. تجنب طرق الحروب القبلية

الأفغانية وتهديدات التحالف الشمالى بقتل ليس المحاربين فقط ولكن كذلك القرويين الذين يساعدونهم، طالما أن القهر مستشر فى لعبة النهاية اليائسة.

* التخلى عن بلاغة «حيًا أو ميتا» التى لا معنى لها بذاتها، وإعلان تفضيل حاسم لـ «حيًا» ـ بالضبط لتقديم بن لادن وحاشيته للمحاكمة. وحكم قضائى عام يدين جرائم ١١ سبتمبر سوف يقدم المجرمين للعدالة، ولكن الأهم من ذلك، أن المحاكمات الصحيحة سوف تقضى على الجاذبية العدمية لمثل هذه الأفعال الشنيعة فى أذهان الإرهابيين المحتملين.

* التحرك قدما إلى الأمم المتحدة بوصفها السلطة المنظمة ليس فقط للإنقاذ السريع للاجئين وإصلاح أفغانستان، ولكن لحل المسائل المتعلقة بالحرب مثل وضع السجناء ومدى استحقاق زعماء طالبان للوم. فالأمم المتحدة، وليست الولايات المتحدة المتباهية المختالة، هى التى يجب أن تكون مركز المعارضة العالمية للإرهاب. إن القاعدة الجديدة الكامنة فى هذه الحرب، ومؤداها أن الدول يمكن أن تعمل فى عزلة مطلقة ضد الإرهابيين، ينبغى أن تقوض قبل أن تصبح فاعلة فى كل من إسرائيل، والهند، وروسيا.

* التأكيد على أن الحرب فى أفغانستان لن تمتد إلى العراق، أو كوريا الشمالية، أو أى مكان آخر. ينبغى إصلاح نسيج التقييد، وأن يتم معه إصلاح فكرة أنه فى مواقف الصراع يجب أن تكون القوة العسكرية الملجأ الأخير، وليست أول رد فعل. ويجب نزع أسطورة الإيمان بالعنف حلاً للمشكلات مرة أخرى. ولتكن الحملة ضد الإرهاب الآن بوصفها فرضًا للقانون، وليست حربًا. ويجب أن يتم التأكيد على مطاردة الإرهابيين المحتملين والتركيز على حماية السكان المدنيين.

والجدل الدائر بشأن «الحرب العادلة» حول الوسائل المستخدمة فى «القضية العادلة» لوقف الإرهاب، حسب التمييز الذى يضعه المؤرخ هوارد زين، سوف يستمر على نحو سليم، بيد أن لا حاجة هناك لجدل حول الكيفية التى نبدأ بها الآن. وفى إنهاء هذه الحرب، يجب على أمريكا أن تضع فى ذهنها اختلاف الإدراك الأخلاقى القديم: إذا لم تكن الغاية تبرر الوسيلة، فلا يمكن لشىء آخر أن يبررها.

* * *

(٣)

الحرب فى الوطن

فى ١٩ أكتوبر، سنة ٢٠٠١م، بينما كان القصف الجوى الأمريكى لأفغانستان دائرًا، كانت هناك خطابات تحتوى كميات يحتمل أن تكون قاتلة من الأنثراكس قد وصلت إلى وكالة CBS للأخبار فى نيويورك، وفى مكاتب الكونجرس بواشنطن. وأصيب رجل بريد فى نيوچيرسى. واضطربت الخدمات البريدية اضطرابًا شاملا. وتم إغلاق مكاتب الكونجرس.

وبعد أكثر قليلاً من أسبوعين كان الأنثراكس المرسل بالبريد قد قتل أربعة أشخاص وأصيب ثلاثة عشر شخصا آخرين على الأقل. وعلى الرغم من أن الضحايا كانوا محدودين، فقد كان هذا أول استخدام «للسلاح من أسلحة الدمار الشامل» المحددة بشكل رسمى - بغض النظر عن الاختبارات الذرية - فى أمريكا الشمالية. وكانت الخطابات المصاحبة، مع تهديدات فجة ضد إسرائيل، مقصودًا بها أن تؤخذ على أنها ذات صلة بهجمات ١١/ ٩ الإرهابية، وقال المسئولون فى FBI إنها ربما كانت كذلك.

وفى غضون سبعة أيام بعد التقارير عن الأنثراكس، كان الكونجرس قد مرَّر مرسوم الدفاع عن الوطن، وفى ٢٦ أكتوبر، وقع الرئيس قانونًا به. وهذا المرسوم الذى لم يُقرأ تقريبًا، ولم تحدث مناقشة حوله فى الكونجرس، قد مدَّ سلطات الحكومة لتشمل التنصت على الهاتف والاحتجاز، ومعاقبة المشتبه فيهم، ووسعت سلطة الحكومة لترحيل غير المواطنين دونما إجراءات قانونية. وقد سأل ممثل الولايات المتحدة، بارنى فرانك قائلاً: «من الذى قرر أننا لكى ندافع عن الديمقراطية كان علينا أن نحط من قدرها؟».

وقد أعلن المدعى العام چون أشكروفت عن إعادة تنظيم كبرى لوزارة العدل وهيئة المباحث الفيدرالية FBI للتركيز على مقاومة الإرهاب. واعترف بأنه تم احتجاز أكثر من

ألف شخص داخل الولايات المتحدة، وفى نوفمبر، بقى منهم أكثر من ستمائة رهن الاعتقال. وأصر أشكروفت على أن تهديد الإرهاب كان يتطلب من الحكومة أن تحتفظ بشكوكها حول المحتجزين سرّا. وعندما سئل عن تكتيكاته هو وغيره فى وزارة العدل ضد الإرهاب من جانب أعضاء اللجنة التشريعية فى الكونجرس فى ٦ ديسمبر ٢٠٠١م، عرّف المدعى العام النقد الموجه لوزارته بأنه خيانة. وقال لأعضاء مجلس الشيوخ: «إن تكتيكاتكم تساعد الإرهابيين، لأنها تفتت وحدتنا الوطنية وتقضى على عزيمتنا. تعطى الحصانة لأعداء أمريكا، وتتردد أمام أصدقاء أمريكا».

وفى الوقت نفسه كانت المباحث الفيدرالية ووزارة العدل عاجزتين عن تطوير خيوط مهمة فى قضية الأنثراكس. وفى النهاية اعترف الموظفون بأنه لايوجد دليل يربط بين القاتل الذى يستخدم الأنثراكس وبين هجمات ١١ ـ ٩ أو القاعدة، ولكن فى ذلك الحين كان الهلع من الأنثراكس قد ترك أثره بالفعل فى الغيظ المكبوت حول الاستجابات الأمريكية تجاه الإرهاب فى الوطن وفى الخارج. فقد أشارت كل الأدلة، عندما تم فحصها، إلى أن مجرم الأنثراكس كان أمريكيّا، وربما كان موظفًا سابقًا ساخطًا يعمل ضمن مجهودات وزارة الدفاع البحثية فى مجال الإرهاب البيولوجى. هذا القاتل الذى ما يزال مجهولاً يشترك مع أسامة بن لادن فى شىء واحد، على أى حال: هو أنه مطلق السراح.

روبرت كنيدى وجون أشكروفت

٢٠ نوفمبر ٢٠٠١م

اليوم فى واشنطن سوف يكرم الرئيس بوش روبرت كنيدى بأن يسمى مبنى وزارة العدل باسمه. وبأى مقياس، فإن هذا حدث عام غير عادى، بيد أنه يحمل معنىً شخصيّا مؤثرًا بالنسبة لى. كان ذلك فى صيف سنة ١٩٦١م، وكنت طالبًا بالجامعة وأعمل متدربًا لفترة الصيف فى FBI بالداخل. وفى تلك الأيام، تم إعطاء النصف الشمالى الشرقى من مبنى وزارة العدل إلى مكتب التحقيقات، وكان مكتب ج. إدجار هوڤر فى الركن المواجه لمكتب كنيدى. وكان أولئك الموجودون منا على ناحية المكتب يعرفون أن هوڤر يكره المدعى العام الشاب، وهو ما كان يبدو معقولا بدرجة قليلة لأن

كلاً من الرجلين كان يبدو مكرسًا لنفس القضايا: الحملات ضد الشيوعية والجريمة المنظمة. وذات يوم، كنا نحن المتدربين بالداخل قد استدعينا إلى قاعة الاستماع التابعة للوزارة فى ناحية وزارة العدل من المبنى. وكان المدعى العام فى سبيله لمخاطبة موظفى الوزارة من طلاب الجامعة، وليدعونا إلى التوقيع على «الحدود الجديدة» بعد التخرج.

وأنا أحتفظ بذكرى حية عن كنيدى على تلك المنصة - شعره المنكوش، وأكمام قميصه، وراحة يده تضرب الخشب للتأكيد - ولكن ما يبقى معى بوصفه التعميد الذى يتأقلم على مدى الحياة هو محتوى خطبته. فبدلاً من الهجوم المتوقع ضد الشيوعية أو الجريمة تحدث المدعى العام حديثا يفيض بالأحاسيس عن الحقوق المدنية. فقد جعل نهاية الفصل العنصرى أهم التحديات التى تواجه أمريكا - ووزارة العدل. وكان ذلك صادمًا بالنسبة لنا، ولاسيما بالنسبة لأولئك الذين من ناحية FBI، لأن مكتب التحقيقات كان كله من البيض تقريبًا - وعرفنا أنه كان قصد هوفر أن يبقى عليه بهذه الطريقة. وفى سنة ١٩٦١م، كانت حركة الحقوق المدنية ما تزال تُعَدّ بشكل عام من جانب البيض حركة تهديد، وربما هدّامة مخربة. وبالنسبة لكنيدى حين يقف مع الحركة، ويجلب أجندتها إلى قلب الحكومة، كان هذا يمثل تحولاً فى العمل - على المستوى الشخصى وكذلك على المستوى السياسى. وعدت إلى الناحية الأخرى من مبنى وزارة العدل فى ذلك اليوم وقد تغيرت. إذ إن كلمة «العدالة» لن تطرق سمعى بنفس الطريقة مرة أخرى.

وروبرت كنيدى له مكانة غالية فى الذاكرة الأمريكية لأنه كان يجسّد إمكانية التحول الشخصى والسياسى. وكان المنحنى فى حياته الخاصة هو قصة مثل هذا التغير، بيد أن أثره فى الحكومة كان كذلك. كان صيف سنة ١٩٦١ - قمة فى ڤيينا، وأزمة برلين - ذروة المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤييتى. كان الرجال العسكريون يتحكمون فى الاستجابات الأمريكية، وبعضهم يحبذ «الحرب الوقائية». وقد أدى روبرت كنيدى دوراً حاسمًا فى مساعدة أخيه على تحويل المواجهة الصعبة إلى روح من التفاوض، خصوصًا فى أثناء أزمة الصواريخ الكوبية. وكان لإفلات آل كنيدى من الحرب فى تلك اللحظة الحاسمة أثره فى أن يحدد شكل المستقبل. وقيض لموت الرئيس منذ ثمانية وثلاثين عامًا فى يوم الخميس، أن يعزز التحول الشخصى لدى روبرت

كـنيدى وأن يجهـز الأمـة لأن تتعرف على حاجتهـا الخاصة لأساليب جـديدة لفـهم ذاتها.

ومع الوقت الذى بدأ فيـه روبرت كنيـدى حـملتـه الانـتـخـابية لمنصب الرئيس سنة ١٩٦٨م، كـان تحوله قد صار تامًا. وقد عرف المحرومون من حقوقهم هذا الرجل ابن الطبقة الممتازة بوصفه المدافع عن الشعب. فالعمال أصحاب الياقات الزرقاء، الذين كـان الكثيرون من محـرريهم يحتـقرونهم، يرون فيـه مـدافعًا عنهم. وأولئك الذين ابتعدوا داخليًا عن الحرب فى ڤيتنام وجدوا فى تبنيه للسلام سببا يدعوهم للعودة إلى السياسة مرة أخرى. وبدا أن التمييزات التقليدية بين اليمين واليسار غير منطبقة على أولئك الذين استجابوا له، وكانت تلك الظاهرة هى أكثر جانب واعد فى التغير الذى كان يمثله. ومصادفة اغتيال روبرت كينيدى فى أعقاب اغتيال مارتن لوثركنج كان يمكن رؤيتها على أنها ليست مصادفة فى ذلك الوقت. فقد ختم موتها معًا إلى الأبد معنى الأمل السياسى الأمريكى ـ وبالنسبة لكثير من الأمريكيين استمر الاسم روبى والاسم مارتن يرنان علامة على حملة لم تكتمل.

هذا هو السبب فى أن تسمية مبنى وزارة العدل على اسم روبرت كنيدى أمر جيد. ولكن هناك أيضـا تناقـضـا فى العـمل الذى يجـرى اليـوم. ذلك أن چون أشكروفت بوصفه المدعى العام، هو الذى محا تمامًا ما كان روبرت كنيدى قد جاء من أجله، كما أن مقـاربة إدارة بوش لفرض القانون فى وقت الطوارئ الوطنية يستحضر ذكرى چ إدجار هوڤر بشكل أكبر كثيراً من استدعاء ذكرى خصمه الشاب. إذ إن الهجوم على الحريات المدنية باسم «أمن الوطن»، ولاسيما الاحتقار الواضح لغير المواطنين وأوامر الرئيس بإنشاء محاكم عسكرية، لا تمثل فقط تهديداً للعدالة وإنما هى علامات على الاستسلام للإرهابيين الذين يهدفون إلى تقويض الديمقراطية. كما أن الحرب المنفلتة فى أفغانستان، مهما كانت «ناجحة»، تعاكس نفس التقدم الذى تجسد فى رحلة روبرت كنيدى من المقاتل الشرس فى الحرب الباردة إلى مدافع عن التفاوض والسلام.

عند هذه النقاط الكثيرة يلوح فى خيال المرء أن روبرت كنيدى يقاطع انتخابات اليوم بكلمة ـ يلقيها وراحة يده تضرب المنصة ـ ليقول إنه غير موافق.

احتفالات ما قبل عيد الميلاد فى زمن الإرهاب

٨ ديسمبر ٢٠٠١م

كنت قد رجعت لتوى من حضور صلاة القداس مساء السبت للاحتفال بالطقس المسيحى فى أيام الآحاد الأربعة التى تسبق عيد الميلاد، عندما بثت أخبار التليفزيون أول أنباء الهجمات الإرهابية فى القدس. ومثل كثيرين غيرى، اتصلت بأصدقائى بسرعة لكى أطمئن على سلامة أقاربهم. فمنذ شهر مضى فقط كنت أتمشى فى منطقة تسوق المشاة التى تحولت توًا إلى آخر مشاهد المجزرة. قال أحد أصدقائى الإسرائيليين: «لقد قتلوا القدس». وقد اندفع الحزن والغضب فى جوانح كل الذين يحبون القدس.

وفى عقلى تردد صدى المقطع المتكرر من ترنيمة احتفالات هذه الأيام ـ «تعال، تعال يا عمانويل لتنقذ إسرائيل الأسيرة..» ـ على مدى الساعات التالية واليوم التالى عندما تكشفت القصة المرعبة، وتوجتها أنباء الهجوم المميت أكثر فى حيفا. وقد تحولت إسرائيل التى تتحدث عنها الترنيمة إلى إسرائيل الموجودة فى الواقع فجأة، شعب محتجز، إن لم يكن أسيرًا، يتعرض لخطر جسيم من الانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم ـ أولئك الشباب الذين يثيرون الأسى والحزن المقتنعين بقضيتهم على نحو جذرى مطلق بحيث يضعون وجودهم ذاته فى خدمة القتل. إنهم محزنون وخطرون بشكل شامل(*).

ظللت فى حيرة بشأن ما يمكن أن أفعله حيال هذا التصاعد المرعب للعنف. وكما هو معتاد، بطبيعة الحال، فإن الإجابة هى، لا شىء أكثر من هذا. بيد أن العنف الذى يضرب العالم لا يحدث فى فراغ. فالواقع، أن المستويات المتصاعدة للأذى تتطلب منا جميعًا أن نستبعد فى مواقفنا ما قد يورطنا فى مناخ الكراهية، على الرغم من إحساسنا الأولى عن أنفسنا بأننا أبرياء. ما علاقتنا، مثلا، بالسؤال الكامن حول النزعة المطلقة الدينية، التى تغذى بالوقود حركة الدائرة الإرهابية الحلزونية؟ إننى أطرح السؤال

(*) لا نوافق المؤلف على رأيه ـ مع احترامنا الشديد له ولرأيه ـ ونرى أن الظلم الصهيونى والأمريكى المساند لإسرائيل، واليأس من تحقيق أى تقدم بالوسائل السلمية، فضلاً عن وحشية الجيش الإسرائيلى وهمجية شارون ـ كل هذا جعل أولئك الشباب من الاستشهاديين يضحون بأرواحهم فى سبيل قضيتهم. (المترجم).

بوصفي مسيحيًا وأدرك في الحال أن موسم احتفالات ما قبل عيد الميلاد تقدم مفتاح الحل.

فموسم الاحتفالات التي تسبق عيد الميلاد فترة شوق وتوقع، عندما يلتهب الخيال المسيحي بكل ما يفتقر إليه في الأحوال الإنسانية، «بعبارة «ليس بعد» المهيمنة الواقعية في التاريخ ذاته» على حد تعبير اللاهوتي الكاثوليكي داڤيد تراسي، المسيح المنتظر، سوف يحقق وعد الحياة، ويكشف الأسرار المتعلقة بالوجود ـ «ويؤسس حكم الرب». ومعظم المسيحيين الذين يبشرون اليوم يتوقعون مجيء المسيح في الكريسماس، والواقع، تؤخذ احتفالات ما قبل عيد الميلاد في أيام الآحاد الأربعة، على أنها توطئة لعيد التجسد السنوي. ولكن التأكيد على يوم ٢٥ ديسمبر بحسبانه التحقيق الوحيد للأمل المسيحي خطأ، لأنه يتضمن مغزى للسؤال المأساوي الذي يطرحه العنف القائم على أساس الدين.

ويمكن فهم احتفالات ما قبل عيد الميلاد على نحو أفضل بوصفه تعبيرًا عن الشوق المسيحي، لا لقدوم المسيح أول مرة، أي ميلاد ليسوع، وإنما هو شوق إلى مجيء المسيح الثاني في آخر الزمان. وتبدو هذه مثل نقطة ملغزة خفية، ولكنها حاسمة. إذ تؤكد العقيدة المسيحية القديمة على أن حياة المسيح وموته، وإعادة تجسده كانت تحقيقًا جزئيًا لخطة الرب، ولكن الخلاص والعتق ـ الرحمة ـ لم تتحقق تمامًا إلا مع مجيء المسيح الثاني. ويعني هذا أن المسيحيين الذين يزعمون أنهم بالفعل يمتلكون الحقيقة تمامًا، أو الذين يفهمون التجلي المرتبط بالمسيح التاريخي الذي ظهر في الناصرة بحسبانه الكشف والتجلي الكامل والنهائي للرب ـ مثل هؤلاء المسيحيين تخلوا عن عنصر أساسي في الإيمان التقليدي، وهو عنصر ربما يحفظ المسيحية من أن تكون ديانة النزعة المطلقة الراديكالية. وهذه هي الكيفية التي يضع بها اللاهوتي الكاثوليكي جريجوري بوم: «بما أن التحرير الإلهي لم يكتمل في المسيح، إلا عن طريق التوقع، فإن الكنيسة ليست هي الأداة الوحيدة للنعمة: إذ يبقى مكان في تاريخ العالم لطرق أخرى للنعمة، ولديانات كثيرة، وبشكل خاص لعقيدة أخرى تؤمن بالكتاب المقدس، أي اليهودية».

ونادراً ما يكون القدوم الثانى للمسيح موضوع المواعظ المسيحية، وربما لأنه بحسبانه المستقبل المطلق، فإنه حتما يؤدى إلى نسبية المزاعم المسيحية الحالية عن الحقيقة. لقد كبرنا نحن المسيحيين مغرمين بعالميتنا الحصرية - كنيسة حقيقية واحدة، وطريق واحد إلى الرب. ولكن الحوادث التى جرت هذا العام - هذا الأسبوع - قد أوضحت لنا أيضا كم هى خطرة مثل هذه النزعة المطلقة الدينية. وكل من الإسلام واليهودية يأخذ ثقل هذه المشكلة بطريقته الخاصة. أما بالنسبة لنا، نحن المسيحيين، فإن الدواء للنزعة المطلقة الدينية هو الاعتقاد فى القدوم الثانى للمسيح، الذى يحدد صراحة الحقيقة هنا والآن بحسبانها مرئية فقط «من خلال زجاج معتم» بعبارة القديس بولس. أيها المسيحيون، والمسلمون، واليهود، وأتباع الديانات الأخرى، والناس الذين لا دين لهم - إن السلام فيما بيننا يفترض أن يكون هناك تكريم متبادل لمختلف العدسات المعتمة التى نرى من خلالها جوانبنا المختلفة من الحقيقة. وبالنسبة لأولئك المسيحيين منا، فإن هذا الاحترام للآخرين إنما هو نداء خاص فى هذا الفصل، عندما نشتاق لا إلى احتفال محدد بشكل ضيق بانتصارنا، ولكن لإنجاز التاريخ نفسه، بالنسبة لجميع الناس، أى القدوم الحقيقى للسلام على الأرض.

وزارة الظلم

١١ ديسمبر ٢٠٠١م

بينما تحول الحرب الأمريكية فى أفغانستان بؤرتها من الحملة التى أوشكت على الختام ضد طالبان إلى المطاردة الأصح والأضيق نطاقًا لأسامة بن لادن، تتحول الاهتمامات فى أمريكا أيضا. إذ إن كثيرا من الذين كانوا قد أيدوا بحماس إدارة بوش فى استجابتها لكارثة سبتمبر يعلنون شكوكهم الخطيرة حول توجهات الحكومة ومقاصدها، لاسيما داخل الوطن. ومعظم الاعتراضات تهتم بسياسات وزارة العدل، مع طرح تساؤلات عن وضع مئات من الناس الذين كان قد تم احتجازهم؛ وعن مخاطر التدخل الحكومى بين المحامين وعملائهم؛ وعن المناخ الذى يقلل المبادئ الدستورية حول «الدقة واللطف» ويضحى بها فى زمن الطوارئ.

ويبرز سؤال أكبر حينما يحدث فجأة أن تتحول أولوية التأكيد الحكومى ضد الإرهاب إلى المكان الثانى بعد هدف الجمهوريين القديم فى حماية حقوق حملة

البنادق. ففى سياق كل ما تم التخلى عنه باسم القبض على الأشرار، فى الماضى وفى المستقبل، يبدو الأمر شاذًا عندما تمنع وزارة العدل مكتب التحقيقات الفيدرالى FBI التابع لها من أن يحدد ما إذا كان أى من المشتبه فيهم بالإرهاب قد اشترى بندقية. وقد شرح الشخص المتحدث باسم وزارة العدل فى الأسبوع الماضى أنه تم اتخاذ هذا القرار بعد أن قررت الوزارة أن القانون الذى يفوض بجمع مثل هذه المعلومات لا يسمح باستخدامها فى تحديد هوية أشخاص بعينهم، حتى فى التحقيقات الخاصة بالإرهاب. ومثل هذا الاهتمام الحكومى الراقى بحقوق الأفراد يمكن أن يكون مهذبًا لو لم يكن على هذا القدر من الاستثنائية، ويبدو الأمر أكثر من مجر مصادفة أن المستفيدين الرئيسيين من حالة التردد القانونى الوحيدة هذه، بالإضافة إلى الإرهابيين الذين يحتمل وجودهم، كانوا هم الذين يشكلون القلب السياسى للإدارة.

ولم يبذل المدعى العام چون أشكروفت سوى القليل لكى يبدد مثل هذا القلق، وفعل كثيرًا لكى يزيد من وطأته. ففى الأسبوع الماضى مثلاً، زاغ من المد المتصاعد من الأسئلة والانتقادات بوصمها بأنها تكتيكات «تقدم المساعدة للإرهابيين». إنها دائمًا تكون لحظة فارقة عندما يقوم أولئك الذين عهد إليهم بحماية دستور الولايات بتعريف النشاط الذى خلق الدستور، والذى جاء الدستور لكى يكفله ـ حرية تبادل الأفكار ـ بأنه خيانة. وقد حدث هذا من قبل. إذ إن أحد الأسباب فى أن حرب ڤييتنام استمرت هذه الفترة الطويلة كان هو أن ليندون چونسون، ثم ريتشارد نيكسون، نجحا فى مثل التلاعب: النقد يساعد العدو؛ ومن ثم يتم إخراس النقد وتهميشه. وكان تأثير هذه الاستراتيچية فى أثناء حرب ڤييتنام هو أن حربًا كان ينبغى أن تنتهى سنة ١٩٦٨م، عندما صوت الناس ضدها، انتهت سنة ١٩٧٥م. وفى استغلال أشكروفت لهذه الحيلة المثيرة للسخرية، لم يكن حتى يتحدث عن المجهود الحربى فى أفغانستان، الذى كان النقد بشأنه قليلاً للغاية. وإنما كان يتكلم عن الأسئلة الموجهة عن السياسات التى تؤثر على حياة الأمريكيين بشكل مباشر.

ولهذه الأسباب، ربما يبدو أن أشكروفت متجاوز فى إثارة مثل هذه الفكرة مجددًا، ولكن بالنسبة لمقاصد الإدارة التى ينتمى إليها مكان محقًا فى محاولة إسكات أصوات الرفض قبل أن تتجمع. وكان يمكن للقلق المتصاعد حول معالجة مسائل الجبهة

الداخلية أن يحدث شرخًا فى الاتفاق الوطنى على مساندة السياسات الخارجية - وبخاصة الحرب التى تهدد بانتشارها إلى العراق. والواقع أنه مع هزيمة طالبان، صار واضحًا بالفعل أن نظرة الرئيس بوش، التى تبالغ فى تبسيط الأمور والتى قسمت أفغانستان وغيرها من الأماكن فيما بين «نحن وهم»، لم تطبق أبدًا. ذلك أن حلفاءنا الشماليين وحلفاءنا الپاكستانيين يرفضون تبسيط الأمور من جانبنا بشأن طالبان، وبعضهم يساند هروب المحاربين والبعض الآخر يستعد بوضوح للسماح لزعيم طالبان الهارب بأن «يعيش بكرامة». وأسامة بن لادن هو الهدف المحورى لرد الفعل الأمريكى القاسى، ولكن عندما ينقشع الغبار عن هذه المرحلة الأولى من الحرب، يبقى الأمر غير واضح حول كيفية وصول الآخرين إلى هناك. وعندما يتم جمع حساب الدمار الذى سببته الحرب، سيكون هذا السؤال مطروحًا بقوة.

لقد أشعل تأسيس الرئيس بوش المحاكم العسكرية أشد النيران حرارة، ولكن هنا أيضا من المستحيل أن نحصر المسألة فى نطاق الاهتمام المحلى، دون أى مضامين لحكم أوسع عن الحرب ذاتها. وتحظى المحاكم العسكرية باستهزاء الناقدين على أساس دستورى، ولكن هذه المحاكم العسكرية تشير إلى المشكلة الكبرى المتعلقة بهذا الموضوع برمته. وبوصفها ممارسة غير منظمة للسلطة، وتتطلب القليل لتقديم الدليل المقنع، ولفرض الشهادة، والاهتمام بالإجراءات، وإمكانية الاستئناف، أو احترام التعقيد فى الموضوع، فإن هذه المحاكم العسكرية سوف تؤسس أخلاقيات الإدارة فى التسويغ لنفسها. إذ إن المحاكم العسكرية سوف تضفى الشرعية على تفضيل بوش التأكيد والإصرار على أنه محق بدلاً من المناقشة، وسوف تضفى الشرعية على تفضيله الإملاء بدلاً من التعبير عن وجهة النظر. وعند بداية هذه الأزمة، طلب زعماء أفغانستان أن يروا الدليل الذى تملكه أمريكا ويربط أسامة بن لادن بجرائم ١١ سپتمبر، وهو طلب استبعده بوش على أنه دعوة مستعصية للمفاوضات. وأزاح ذلك جانبًا بحيث جعل عداوة طالبان حتمية.

وعلينا أن ننتظر لنرى ما إذا كان يمكن لإدارة بوش أن تستمر فى معاملة المطالب السليمة بتوخى المسئولية سببًا للحرب فى الخارج، أو عَدّها خيانة فى الداخل. ولكن السؤال الملح يطرح نفسه بالفعل: هل تستغل حكومتنا هذه الحالة الطارئة لتحقيق أغراضها الخاصة الضيقة؟

الكريسماس الأحمر

٢٥ ديسمبر ٢٠٠١م

اليوم عيد ميلاد يسوع فى الناصرة، واليوم أيضا الذكرى السنوية العاشرة لميلاد الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها القوة العظمى الوحيدة فى العالم. ففى ٢٥ ديسمبر ١٩٩١م، تم إنزال علم الاتحاد السوفييتى للجمهوريات الاشتراكية من فوق الكرملين للمرة الأخيرة. فقد انتهى وجود الاتحاد السوفييتى رسميًا. وبعد ذلك بشهر أعلن الرئيس چورچ بوش الأب فى خطاب حالة الاتحاد أن أمريكا انتصرت فى الحرب الباردة.

وكون أن الحدث السياسى المعاصر الفريد وقع فى يوم العطلة الدينى الدورى ربما بدا وكأنه مصادفة لا أهمية لها، إلا أن التوازى الزمنى يمكن أن يقضى على المعنى بالنسبة لتفوق أمريكا الجديد والتحدى المركب الذى تطرحه القصة البسيطة لميلاد المسيح.

ومن الواضح، أن الذكرى السنوية لميلاد يسوع - عيد التجسد - يتم الاحتفال بها وتبجيلها من المسيحيين حول العالم، ولكن الشكل المخصوص للاحتفال الذى حدث فى الولايات المتحدة كان محملاً بمضامين سياسية، وثقافية، واقتصادية. فكل ما نعنيه بالكريسماس - التسوق المسعور، وإعطاء الهدايا، وپاپا نويل، والزينات، والنباتات دائمة الخضرة، والموسيقى المرتبطة بهذا الموسم، والتحيات بين الأصدقا، وتجمع العائلات، بل حتى الأمل فى نوع معين من الطقس - كلها أمور صارت داخلة فى نسيج جوهر الهوية الأمريكية. هذا هو موضوع كتاب Christmas Unwrapped: Consumerism, Christ, And Culture, (Edited By Richard Horsley And James Tracy) وهو كتاب جديد يلهمنى تأملاتى.

واحتفال العطلة فى الولايات المتحدة لا شبيه له فى أى بلاد أخرى - إلا عندما يتم تقليد الأسلوب الأمريكى عن وعى. وتبنى خصوصيات هذا الاحتفال يمثل إحدى الوسائل التى يتوسل بها المهاجرون لاتخاذ الهوية الأمريكية. وبطبيعة الحال، فإن أمريكا ليست مجرد بلد «مسيحى»، ولكن المركزية الثقافية للكريسماس اتضحت فى الطريقة التى رفعت بها احتفال الحانوكة، الذى كان احتفالاً صغيراً بين اليهود من قبل،

وفى ابتكار احتفال الكوانزا، الذى تبناه السود الذين أخفقوا فى التعرف على ذواتهم فى الكريسماس «الأبيض».

والحقيقية، أن الأغنية التى تحمل ذلك الاسم، والتى تُعَدّ أبرز أنشودة أمريكية فى الكريسماس، هى التى تقدم حلّ اللغز. وتلاحظ الباحثة كاثلين. إم. ساندز، أنه عندما يتوق بنج كروسبى إلى كريسماس أبيض «تمامًا مثل الذين اعتادوا أن يعرفوا» فإنه فى الواقع يستدعى للذاكرة ماضيًا عاطفيّا لم يكن موجودًا قط. ويصبح الحنين إلى الوطن «النسيان الذى يقدم نفسه فى شكل الذاكرة» على حد التعبير الذكى لساند. وقد قدَّم كروسبى أغنية إيرفنج برلين أول مرة فى فيلم «هوليداى إن»، وهو فيلم أنتج فى بداية الحرب العالمية الثانية، ثم أعيدت مرة أخرى فى فيلم «الكريسماس الأبيض» سنة ١٩٥٤م. وفى كل من الحالين، «يقدم الكريسماس ليس فقط بوصفه ذكرى معزية للجنود فى الحرب، ولكن أيضًا بوصفه شعارًا يرمز إلى الذاتية الأمريكية نفسها، الوطن الذى كانوا يحاربون من أجله». وحسبما أشار الفيلم الثانى عند ظهوره عندما كانت الحرب الباردة تجرى بشكل مخيف، كان الكريسماس آنذاك، حسبما يكتب ساند «قد اكتسب أهمية أكبر؛ لأنه حينئذ أعلن عن وجود اقتصاد جديد من «النعمة»، والوفرة، والحب بين الأشخاص، والحرية الفردية - وهو اقتصاد فهم على أنه يتناقض بشكل درامى مع الاقتصاد الشيوعى الذى يقوم على «العمل»، والمعيشة، والمواطنة الاشتراكية، وسيطرة الدولة». وإذا ما رأينا الكريسماس الأمريكى بهذه الطريقة فإنه يكون احتفالاً بكل ما ساعدنا على «كسب» الحرب الباردة. وإنزال العلم الأحمر فى موسكو تأكيد على التفوق الأخلاقى والثقافى والاقتصادى للطريقة الأمريكية. وهكذا يكون الكريسماس، فى هذه الذكرى السنوية العاشرة، أكثر أمريكية عن ذى قبل.

وفى الذاكرة المسيحية السائدة، تضع حكايات ميلاد المسيح يسوع ضد اليهود. فاليهود هم الذين لا يفسحون مكانًا، والملك الذى يحاول قتل الطفل ملك يهودى، على حين يجىء الأغيار من أماكن نائية لكى يعبدوه. والقراءة المعادية لليهود فى الإنجيل تثبت الافتراض التقليدى بأن «الأخبار الطيبة» موجهة إلى المسيحيين، وبالتالى، إلى أمريكا المسيحية. ولكن ماذا لو أن المعارضة التى تضعها هذه القصة ليست بين يسوع واليهودية، ولكنها بين يسوع وروما، التى كانت قوة إمبراطورية

قاهرة؟ ويكتب هورسلى: «إن مسيح إسرائيل المولود حديثًا، كان هو النقيض تمامًا لرمز القوة التى تتحكم فى مصائر الناس. فقد كان يمثل الآمال والإبهام لدى شعب خاضع لكى يكون حرًا من النظام الإمبراطورى المستغل الذى كان يتحكم فى حياتهم». إن المعنى الأساسى لقصة ميلاد المسيح، إنما هو معنى سياسى أكثر منه دينى. فبدلاً من تثبيت بناء سلطة قائمة، بافتراضاتها الاقتصادية والثقافية، فإن مجىء هذا الطفل يتحدى أى سوء استخدام للسيادة المطلقة.

وأمريكا ليست هى الاتحاد السوفييتى، كما أنها ليست روما القديمة. إذ إن ديمقراطيتنا الليبرالية توفر الأمل للعالم. بيد أن وضعنا الجديد بحسباننا «القوة العظمى» الوحيدة الناجية، يحمل إغواء بنزعة الانتصار التى تزداد خطورتها بمرور الوقت. ويجب أن تجعلنا قصة الطفل اليهودى الذى واجه أول إمبراطورية نتساءل عما إذا كان هذا الاحتفال بمولده يكشف بحد ذاته عن الإمبراطورية التى نتحول نحن إليها.

حلول العام الجديد

١ يناير ٢٠٠٢م

سوف تفقد خمسة أرطال. سوف تصلح النافذة المكسورة. سوف تنظف السرداب. سوف تقوم بتمرينك خمسة أيام فى الأسبوع بدلاً من يومين. سوف تزور المقابر حيث دفن الأب والأم. سوف تتصل بأخوتك وأخواتك. سوف تشجع أطفالك. سوف تكون زوجًا أفضل.

سوف تقرأ پروست حتى النهاية. سوف تتأمل كل يوم. سوف تقضى وقتًا أقل على مكتبك. سوف تصل إلى السيمفونية قبل رحيل سيچى أوذوا. سوف تتعلم تقدير الموسيقى التى يستمع الشباب إليها، أو تتعلم على الأقل أن تستمع إليها بحسبانها موسيقى. وسوف تستأنف دروس البيانو. سوف تغنى تحت الدش. سوف تحصل على اشتراك المسرح. سوف تذهب لمشاهدة الأفلام الفرنسية. وسوف تعمل على تحسين لغتك الفرنسية.

لن تستخدم أبدًا تليفونا يعمل بالخلية فى مكان عام. سوف تبقى بعيدًا عن حارة المرور إلا لكى تمر بها. سوف تبطئ، وتفسح الطرق على المحاور. سوف تقوم بصيانة السيارة حسب الجدول. سوف تستقل المواصلات العامة. سوف تمشى أكثر. سوف تقوم بالربط بين البترول والسياسة، وبين السياسة والاقتصاد. سوف تكون واعيًا بأحوال العمال ذوى الأجور المنخفضة الذين يصنعون ملابسك.

سوف ترد على بريدك بقدر أكبر من التفكير. وسوف تقبل الدعوات، وتتعلم أن تقول، حاضر. سوف تعمل فى الكتاب الذى تم تكليفك بكتابته. وسوف تعتقد أنه يمكن أن تتفوق على نفسك، على حين تتخلى عن الطموح العبثى. سوف تتذكر ما الذى جعلك ذات مرة تفترض أنك شاعر. سوف تعيد قراءة ريلك Rilke. وسوف تقرأ بروست إلى نهايته.

سوف تتذكر موتى سبتمبر، على حين تحمل الأبطال فى قلبك. سوف تنظر إلى المضيفين الجويين، والطيارين ورجال الأمن فى المطارات باحترام مطلق. سوف تتعلق بوطنيتك المتجددة، حتى وأنت تستمتع إلى الأصوات الصادرة عن أولئك الذين يرون أن الميزة الأمريكية حلم مستحيل. وسوف تسأل عن دورك فى هذه الميزة. وسوف تفهم التساؤل بوصفه أعظم امتياز. وسوف يساورك الشك فى الإجابات إذا جاءت مصحوبة بحراسة مسلحة، لأنها مريبة حتى أكثر من العنف. سوف تزيد من حدة مناقشتك ضد الحرب، حتى الآن. ولن تدع المدافعين عن الحرب يصنفونك بأنك غير عملى لا من أصحاب المقاصد الحسنة. سوف تجعل القضية لصالح الدبلوماسية وضد الحرب، لا على أساس النزعة الأخلاقية المسالمة ولكن على أساس التصورات الأسمى للنجاح الحقيقى والدائم. وسوف تظهر كيف أن القصف بالقنابل لا يميز بالضرورة بين الضحايا، وكيف أن نظام الدفاع الصاروخى يؤدى إلى هزيمة الذات، وكيف أن استخدام القوة لا يحمى. ولن تنتابك الدهشة عندما يصبح الذين لا يوافقون يتحولون إلى شخصيين، وتترك ذلك على أنه مشكلتهم. وسوف تصر على أن زمن الحرب قد ولى. وسوف تصر مرة أخرى.

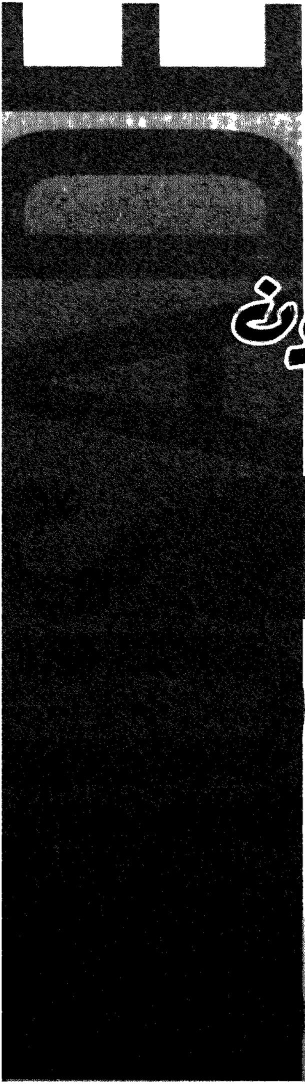
سوف يعلو صوتك. وسوف تعبر عن نفسك حتى عندما لا تكون واثقًا. وسوف تجرؤ على أن تخطئ، ثم تجرؤ على الاعتراف بهذا. سوف تتصل بصديقك الذى طال

ابتعاده وتدعوه إلى شرب القهوة. وبعد القهوة سوف تلتقط الفاتورة لدفع الحساب. وسوف تترك صديقك يدفع إذا ما عرض ذلك. وسوف تضحك من نفسك. وسوف تقول، إذا وافق صديقك: إن الحياة أقصر من أن نبددها فى المشاعر السيئة. أو حتى إذا لم يوافق صديقك.

ومن حين لآخر، سوف تتذكر موتك. وسوف تقوم باختياراتك على ضوئه. سوف تختار أن تؤمن بالحياة الآخرة دونما حاجة لتعريفها. وسوف تصلى دون أن تتوقع إجابة. سوف تستقيل من موقعك الذى عينت نفسك فيه مديراً لشئون الكون. سوف تسامح نفسك على فكرة أنه لكى تكون إنسانًا ينبغى أن تتسامح وتغفر. وسوف تسمح للمقدس أن يكون بعيداً عن أى تخيل، حتى بينما تشعر بحضور المقدس فى حلاوة الحياة، وفى رقة الغرباء، وإخلاص أولئك الذين يحبونك. سوف تعترف بحقيقة الشر، وإمكانية أن يمسك بك فى قبضته، دون أن تتخلى عن الأمل، والعاطفة، والتوقعات الحسنة. وسوف تتعامل مع كل يوم بحسبانه البداية. وسوف تظهر. وستكون حيا بالمعنى التام على المدى القصير، تاركا المدى الطويل يعتنى بنفسه. وسوف تعطى ما تقدر عليه. وسوف تتلقى.

سوف تولى اهتمامك لما يستحق الاهتمام أكثر من غيره. سوف تخسر خمسة أرطال من وزنك. وسوف تصلح النافذة. وسوف تنظف السرداب. وستكون رحيمًا بنفسك، وهى أول الرحمة للآخرين. وبالنسبة للمبتدئين، لن يدهشك ألا تستطيع الحفاظ على هذه الحلول، لاسيما ذلك الحل المتعلق بپروست. وفيماعدا هذا: ستكون طيبًا مع عائلتك. وسوف تشجع أطفالك. سوف تحب زوجتك.

***



THE AMERICAN EMPIRE PROJECT

الجزء الثانى

الجنود يزحفون

CHRONICLES OF AN UNJUST WAR

٤- حيًّا أو ميتًا
٥- القدس
٦- خائف
٧- قرع الطبول
٨- الرهينة
٩- الذاكرة الأخلاقية

JAMES CARROLL

(٤)

حيًّا أو ميتًا

فى ١٣ ديسمبر ٢٠٠١م نتج عن هجوم انتحارى بالقنابل على البرلمان الهندى أربعة عشر قتيلا وأزمة كبرى بين الهند وباكستان. وقد أرسى المثال الأمريكى القائم «حيا أو ميتًا»، السوابق التى يقتدى بها زعماء كل من البلدين، وسرعان ما تصاعدت التهديدات.

وأمر رئيس الوزراء الهندى بإخلاء القرى بالقرب من المناطق المتنازع عليها. وبدأ القصف. وتمت تعبئة الصواريخ والقوات على كلا الجانبين وتحركت إلى الحدود بينهما. وبدا ممكنا تبادل القصف النووى.

وفى اليوم نفسه، فى واشنطن، أعلن الرئيس بوش أن الولايات المتحدة لن تَعُدّ نفسها بعد ذلك مرتبطة بمعاهدة الحظر من الصواريخ الباليستية مع روسيا، والتى كانت قائمة منذ سنة ١٩٧٢م. وقال فى حديقة الأزهار بالبيت الأبيض «على نحو ما أوضحت حوادث ١١ سبتمبر تمامًا، فإن أعظم التهديدات التى تواجه بلدينا معًا لا تأتى من أحدهما ضد الآخر، أو من قوة كبرى أخرى فى العالم، وإنما من الإرهابيين الذين يضربون دونما إنذار أو من الدول المارقة التى تسعى إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل». إلا أن روسيا، وكذلك الصين، عارضتا هذه الحركة. وقد نظر إليها على نطاق واسع بحسبانها ضربة أخرى ضد نظام المعاهدات ـ تركيبة الاتفاقات الدولية ـ الذى كان قد جلب بعض الاستقرار فى العصر النووى.

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، أى فى ٨ يناير ٢٠٠٢م، أنتج البنتاجون تقريره عن مراجعة الوضع النووى، الذى حل محل تخزين الأسلحة النووية لتخفيضها، ليضع الخطوط العريضة لخطة الولايات المتحدة فى استئناف الاختبارات النووية، وينتهك محظورًا ظل قائما لفترة طويلة، بوضع برنامج لبناء الأسلحة النووية التى «يمكن استخدامها» ـ جيل جديد من الأسلحة «النووية الصغيرة» لتدمير المخابئ تحت الأرض. وقد توقع التقرير أيضا صراحة إمكانية الاستخدام الأمريكى للأسلحة النووية

فى المستقبل فى الصراعات بين العرب والإسرائيليين، والصين وتايوان، وكوريا الشمالية وكوريا الجنوبية - أو بين العراق وأحد جيرانه.

وكان فى هذا السياق أن تصاعد التوتر طوال شهر يناير ٢٠٠٢م بين الهند وپاكستان. كما أن تجدد اعتناق أمريكا للإرهاب النووى مصدراً للقوة هو أيضًا السياق الذى يجب أن نرى فيه «محور الشر» الشهير الآن والتحذير الذى صدر بشأنه من الرئيس بوش فى خطابه عن حالة الاتحاد يوم ٢٩ يناير ٢٠٠٢م. فعلى الرغم من أن غرض الرئيس الذى تم توضيحه هو الحيلولة دون «تكاثر الأسلحة النووية»، فإن سياساته كانت هى أكثر المحبذين له حماسة. فإذا شعرت الهند وپاكستان بمزيد من الحرية فى استخدام ترسانتيهما النوويتين مصدراً للتهديد والإرهاب، وإذا سعت العراق وإيران وكوريا الشمالية وغيرها من الدول إلى تطوير مثل هذه الترسانات أو هددت بتطويرها (أو غيرها من أسلحة الدمار الشامل) سواء من أجل قوة الإرهاب أو لمواجهة التهديدات، فقد كان هذا راجعًا جزئيًا إلى أن تكتيكات من نوع «حيًا أو ميتًا» قد تم إضفاء الشرعية عليها حديثًا على يد الولايات المتحدة.

تحركات الولايات المتحدة تؤجج الولع بالحرب فى كل مكان

١٤ يناير ٢٠٠٢م

قال القائد الأعلى للقوات المسلحة الهندية فى الأسبوع الماضى: «إذا تعين علينا أن نخوض الحرب، فإنه أمر جيد مبهج». ثم أضاف، كما لو كان بلغة حداد حزين: «أما إذا لم نضطر إلى ذلك، فإننا سنظل نتدبر الأمر».

ذات مرة، كان بوسع الأمريكيين أن يسمعوا مثل هذا الكلام المولع بالحرب، ويرون أمتين مثل الهند وپاكستان على الحافة الدموية لحرب كبرى، مع وجود قسم متفوق وإن كان مستنفراً. ولكن لا أكثر من ذلك. وسوف يقوم وزير الخارجية كولين پاول بالسفر إلى المنطقة هذا الأسبوع لكى يضغط على قادة نيودلهى وإسلام آباد المتشددين لكى يركنوا إلى الديپلوماسية والتنازل المتبادل وسيلة لحل خلافاتهم، حتى حول كشمير. وتريد أمريكا من پاكستان أن تكبح جماح العناصر المتطرفة التى شنت هجمات إرهابية ضد الهند، وأمريكا تريد من الهند أن تعطى پاكستان مزيداً من الوقت لكى تفعل هذا.

وقد أظهر زعيم باكستان، الجنرال برويز مشرف، علامات على التعاون فى نهاية الأسبوع الماضى، ولكن الهند ردت بأنها تريد أفعالاً لا كلامًا. وهكذا يواجه باول عقبة رئيسية وهو يحاول أن ينهى أخطر مواجهة منذ نهاية الحرب الباردة. هل هى مشكلة باول؟ إن القواعد الجديدة الخشنة الطائشة التى تلعب الهند بمقتضاها، قد كتبت، للأسف، فى واشنطن.

والحقيقة أن الخطاب المكتوب المثقل بالتهديدات، والذى قرأه رئيس الوزراء الهندى آتال بيهارى ڤاچ بايى،، إنما هو رجع الصدى للخطاب المكتوب الذى ظل چورچ دبليو بوش يقرؤه على مدى شهور. وڤاچ بايى يخبر مشرف أنه يرى العمليات الإرهابية المنفلتة والموجهة من باكستان ضد الهند مبررًا لأن تقوم الهند بشن هجوم كامل- على باكستان. إن مشرف قد تسلم صيغة من إنذار بوش «نحن أو هم»، ولكن مشرف الآن، وقد أعلن عن نيته فى أن يحمل على المتطرفين المعادين للهند فى باكستان، يقول إن هناك حدودًا للمدى الذى يمكن أن يذهب إليه لتلبية هذه المطالب. فعلى سبيل المثال، يبدو أنه رفض من حيث المبدأ الطلب الهندى بتسليم المسئولين عن الهجوم الانتحارى فى ١٣ ديسمبر على برلمان الهند، بحيث يؤكد بالفعل سيادة باكستان وحقها فى تطبيق العدالة فى مصطلحاتها الخاصة. والآن ينتظر العالم ليرى، فى الواقع، ما إذا كانت خطوة نيودلهى التالية سوف تكون تكرارًا لما فعلته واشنطن.

فى هذا العمود، دعوت القراء مرات ومرات إلى أن يتأملوا شكل العالم الذى تصير فيه استجابة أمريكا المفرطة فى عسكريتها ضد الإرهاب هى النموذج الجديد فى ممارسة القوة. إن الأمر لم يعد مجرد منظور افتراضى. وحتى قبل أن ننجز هدف الحرب الوحيد فائق الأهمية - «تفكيك القاعدة» - كانت حربنا قد حولت معنى الصراع إلى مكان آخر وأجبرت أممًا أخرى، تقلدنا، إلى اللجوء لمستويات لم تكن متخيلة من قبل للولع بالحرب. وليس فقط فى شبه القارة الهندية. ذلك أن صيغة «حيًا أو ميتًا» الأمريكية، التى تبناها آرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل منذ أكتوبر بغلظة، قد أدت بالفعل إلى انهيار كارثى فى الشرق الأوسط، ولا تعد بشىء سوى المزيد من المصائب. إذ إن الإرهابيين الفلسطينيين(*) يشعرون أن لديهم رخصة فى تصعيد العنف ضد

(*) لا نوافق على تسمية المقاومة الفلسطينية بالإرهاب، وسجل إسرائيل فى الإرهاب طويل وثقيل ومتنوع - المترجم.

المدنيين، وهو ما سوف يفعلونه بالتأكيد. وعندما تضغط واشنطن على الإسرائيليين لكبح العنف، فلماذا لا يضحك الإسرائيليون بمرارة؟

وبما أن حربًا أحادية شكلت جوهر استجابة أمريكا لأحداث ١١ ـ ٩، فإن أعظم تحول أخلاقى كان له أن يحدث بين الأمم فى القرن العشرين ـ الفكرة الهشة، ولكن الثمينة، لتأسيس الاعتماد العالمى المتبادل ـ قد تمت إعاقته. إذ إن الأمم يدين بعضها لبعض بالقدر الأدنى من التعاون والاحترام، بل وحتى المراعاة. ومن المعترف به أن هذه الفكرة قد سُحقت بالفعل، لاسيما بفعل احتقار أمريكا بعد الحرب الباردة للأمم المتحدة. ولكن مع الإعلان الأمريكى بأنها سوف تطارد الإرهابيين بالطريقة التى تحلو لها، دون حساب لأحد، ولا تهم العواقب التى تقع على الآخرين، فإن حلم العالم بوصفه جماعة من الشعوب، كل منها جدير بالاحترام، قد مات وانتهى. والآن العالم هو المسرح الذى تقف فوقه أمة واحدة تسعى لفرض قوتها، تاركة للآخرين أن يقرروا فقط ما إذا كانوا سينحنون أمام تلك القوة أم يخاطرون بالتعرض للقصف الجوى.

وهنا تكون النكتة: أن هذه الإستراتيجية الفجة للتباهى بالقوة لا تنجح. فهى لا تؤدى إلى تحقيق الحد الأدنى من الأهداف الأمريكية. هذه الحقيقة غير المواتية تتحول لأن تصبح واضحة بشكل محرج بينما تخفت الحرب فى أفغانستان. وثمة مجموعة من الأشخاص المحرومين اليائسين تم إحضارهم إلى مركز الاعتقال التابع لأمريكا فى كوبا، بيد أنه لا يوجد سبب يدعونا لأن نصدق أن نخبة القاعدة موجودون بينهم. وإذا كان أسامة بن لادن قد هرب حقًا، على الرغم من القصف الجوى، وما قد يكون نتج عنه من موت آلاف القتلى من المدنيين الأفغان، فهل سنظل راضين بأن هذه كانت هى الطريقة الصحيحة للاستجابة على أحداث الحادى عشر من سبتمبر؟.

وإذا ما خاضت الهند وباكستان الحرب الآن فهل ستجد أمريكا حتى فى ذلك الحين أنه يمكن أن تعيد النظر فى القوة الدامغة التى أطلقناها؟ أم أن مثل عمليات إعادة النظر هذه غير جديرة بتكساس الغرب المتوحش الذى تحولت أمتنا إليه؟ فرعاة البقر السكارى ـ يمكن أن تسكرهم القوة ـ لا يأبهون للعواقب، أو حسبما قالها القائد العسكرى الأعلى فى الهند، فى يوم آخر: «عندما يقرر ثوران وحشيان أن يتقاتلا فى الغابة، فإنهما يهجمان دونما أى اعتبار».

محور الخوف

٥ فبراير ٢٠٠٢م

كانت هزيمة هتلر، التى جاءت بعد أسابيع فقط من موت فرانكلين. د. روزفلت، علامة على نهاية عصر وبداية عصر آخر، عندما ذهب الاتحاد السوفييتى فى الحال من كونه شريك أمريكا الذى لا غنى عنه لكى يصير خصم أمريكا. وكان ميل روزفلت للتعاون مع موسكو قد أخلى مكانه لتطلع ترومان الواضح نحو المواجهة. وفى ٢٣ إبريل ١٩٤٥م، تقابل الرئيس الجديد فى واشنطن مع وزير الخارجية السوفييتى ف. م. مولوتوف. وكان الروسى قد طلب المقابلة على أمل تجنب «اختلافات الترجمة والتعقيدات المحتملة» التى لم تكن لتظهر «لو عاش روزفلت».

ولكن مولوتوف قوبل بما يسميه المؤرخ دانييل يرچين «محاضرة صارمة» من ترومان. واحتج مولوتوف بقوله: «لم يحدث أبدًا أن كلمنى أحد على هذا النحو فى حياتى». وقد أجاب ترومان على قوله: «نفذوا اتفاقياتكم ولن يكلمك أحد بهذه الطريقة». هذا فى اللحظة التى كان الجيش الأحمر الذى بذل دماء كثيرة، ينفذ اتفاقه النهائى، ويطبق على برلين. ويعلق يرچين فى كتابه الكلاسيكى «Shattered Peace»، بقوله: «كانت المحاضرة الصارمة التى ألقاها رئيس الولايات المتحدة على مسامع وزير الخارجية السوفييتى بالكاد هى سبب الحرب الباردة. إلا أن هذا التبادل قد رمز بالفعل إلى التباعد الذى حدث بعد الحرب وأدى إلى المواجهة».

وبعد ذلك بأسابيع قليلة، وفى الاجتماع التنظيمى للأمم المتحدة فى سان فرانسيسكو، صعَّد الوفد الأمريكى المواجهة مع السوفييت، مما دفع الصحفى والتر ليبمان لأن يصيح محذرًا. فقد كتب: إن المواجهة الأمريكية ـ السوفييتية «ليست داخلة فى طبيعة الأشياء وإنما هى راجعة إلى عدم الخبرة وعدم الاستقرار العاطفى فى وفدنا. . ما كان يجب أبدًا أن يحدث هذا. . إننى أشعر إننى واثق بأن هذا لم يكن ليحدث أبدًا لو أن الرئيس روزفلت كان ما يزال حيًا، وسوف يؤدى إلى متاعب كبيرة».

هذه الحوادث غالبًا ما يتم تذكرها فى سياق التساؤل عما إذا كانت الحرب الباردة ضرورية. ولكن اهتمامى أشد بساطة. فقد كان من ينفذون سياسة ترومان مقتنعين بأن

السوفييت سوف يستسلمون أمام مثل هذا الضغط. وعلى أى حال، فإن الولايات المتحدة الأمريكية وقفت وحدها قوة عظمى لا يمكن تحديها، وكانت هى الأمة الوحيدة التى خرجت من الحرب العالمية الثانية سليمة، وأقوى كثيراً مما كانت عليه. ولم يكن أمام الاتحاد السوفييتى المنهك من جراء الحرب أى خيار، على حد تعبير يرچين، سوى «أن يقبل دوراً مساعداً فى عالم ما بعد الحرب».

هل يبدو الأمر مألوفًا؟ إن الوضع الأمريكى الجديد فى التفوق المطلق كان أوضح ما يكون فى خطاب الرئيس بوش عن حالة الاتحاد الأسبوع الماضى. إذ إن واشنطن تملى إرادتها بصراحة على كل شيء من المعاهدات الدولية إن قررت انتهاكها أو تجاهلها، إلى السياسة النقدية، إلى أرض المعركة التالية فى الحرب ضد الإرهاب. وعندما أعلن الرئيس بوش عن استعداده لمهاجمة «محور الشر» كان الأمر الأقل أهمية هو أنه لا يوجد مثل هذا المحور بين الدول الثلاث التى سمّاها، أما الآن، فلدى الدول الثلاث كل الأسباب لخلق هذا المحور لمواجهة تهديد بوش. والنزعة المانوية لدى الرئيس الإيڤانجليكى تتطلب «شريراً» يمكن أن تكون أمريكا فى مواجهته هى «الخيِّر». أوه، وعلى فكرة، فإن مثل هذا الصراع الكونى، الذى إذا تم إعلانه، يبرر أكبر بناء عسكرى منذ إدارة ريجان الأولى.

ضد أى عدو؟ ليس الإرهابيين. ويتجلى عجز الإخفاق الأمريكى أشد ما يكون فى الحقيقة المحرجة - والتى نادراً ما يلاحظها أحد - القائلة بأن الحرب الظافرة ضد طالبان لم تؤد إلى اعتقال أسامة بن لادن ولا من أرسل الأنثراكس. إن الحرب ضد الإرهاب تتطلب استجابات أكثر حذقًا بكثير من مطرقة البنتاجون. وإضافة الثقل إلى رأس المطرقة، بتكلفة تصل إلى الملايين، لن تجعلنا أكثر أمنا من مجانين الأنثراكس أو المتعصبين الانتحاريين. ولكنها ربما تؤدى إلى ما هو أسوأ.

عندما حذر والتر ليبمان من المتاعب فى سنة ١٩٤٥م، لم يكن بوسعه أن يتخيل مدى الكفاءة التى سوف يستجيب بها الاتحاد السوفييتى للإنذار المتغطرس الذى تلقاه من واشنطن. فقد رفضت موسكو أى مفهوم عن الدور المساعد. إذ إن تطويرها السريع - والذى لم تتنبأ به أمريكا على الإطلاق - لترسانتها النووية كشفت عن تباهى ترومان

الأولى على حقيقته: حماقة صبيانية مغفلة. واليوم؟ لا يبدو مقنعًا أنه لن تبرز قوة دولة لكى تتحدى السيطرة الأمريكية، ولكننا نحتاج بالمثل إلى أن نكون مغفلين لأن نفترض أن سيطرتنا ستكون دائمة.

نعم، نحن أقوى أمة فى تاريخ كوكب الأرض. ومع ذلك فإننا مرعوبون. فبعيدًا عن المخاوف المتولدة عن نوع واحد من التهديد، قائم على أساس قدرة الأفراد الفوضويين على التسبب فى المعاناة الشاملة، فإننا نخلق استجابة مهيمنة لنوع مختلف تماما من التهديد، وهو تهديد لا يوجد سوى فى خيال مخططى البنتاجون ـ وفى خيال المقاولين الذى يسعدون بعقود الدفاع. إذ إن البناء العسكرى القادم، الذى لا علاقة له بالإرهاب، ربما يؤدى بدلاً من ذلك إلى خلق وحش يمكن حقًّا أن يعارضنا. فقد حدث هذا من قبل. «فعدم الخبرة وعدم الاستقرار العاطفى»، بالإضافة إلى غرور القوة الصبيانى، وأخلاقيات الهياج، والغطرسة الفائقة ـ تخلق محوراً للخوف.

بوش الراديكالى

١٩ فبراير ٢٠٠٢م

يُعَدّ چورج دبليو بوش، على نطاق واسع، تجسيداً لإعادة النزعة المحافظة، ولكنه على النقيض من ذلك. وهذه الرئاسة علامة على الإطاحة الجذرية بالقيم الأمريكية التقليدية والسياسات الأمريكية التقليدية. ومن الواضح أن الحريات المدنية على المحك فى النظام الجديد للأمن الداخلى، بيد أن أكثر التحولات حدة يتضمن المواقف الأمريكية تجاه الحرب.

على مدى جيل، كانت ترسانة الولايات المتحدة الضخمة تدار بغرض «ألاَّ تستخدم». وباستثناء حرب الخليج الأولى، والحرب الجوية التى شنها حلف الأطلنطى ضد صربيا، تم تحقيق هذا الغرض. فقد ترسخ فى وعى ما بعد ڤيتنام أن الحرب هى الملاذ الأخير، ويجب تجنبها كلما كان ذلك ممكنًا. وتأكد ذلك عندما انتهى الصراع المرعب مع الاتحاد السوڤييتى بلا عنف، وهو انتصار لسياسات المنع والاحتواء التى ساعدت فى النهاية شعوب الاتحاد السوڤييتى أنفسهم لأن يستعيدوا حكمهم لأنفسهم. ذلك أن شيئًا يسمى «العملية السلمية» تحرك من الهوامش المثالية إلى قلب ممارسة القوة الأمريكية.

والآن، ثمة افتراض مختلف جذريًا يطوق القصد الأمريكى، وهو القضاء على تجربة السنوات الخمسين الماضية. فمع الزعم بوجود ميادين قتال حول الكرة الأرضية، تم تعريف الحرب فجأة بأنها أساس هويتنا، ولا شيء يوضح هذا أكثر من ميزانية البنتاجون الجديدة.

فبالنسبة للسنة المالية الجديدة، تقترح إدارة بوش إنفاق حوالى ٤٠٠ بليون دولار على الدفاع. وفى الأسبوع الماضى، وفى شهادة أدلى بها لورنس ج كورب، وهو من مجلس العلاقات الخارجية وعضو قادة الأعمال للأولويات المحسوسة، أمام لجنة الميزانية، وضع هذا الرقم فى منظور ما. وهو يمثل زيادة قدرها ٣٠ بالمائة عن السنة الماضية، ومستوى ١٥ بالمائة فوق ما كانت تتطلبه الحرب الباردة، وهى أكبر قفزة للميزانية منذ ڤيتنام، وإذا ما تمت الموافقة على هذه الميزانية، فإن إنفاق أمريكا العسكرى سوف يتجاوز كل نفقات الدفاع «للخمسة عشر بلدا التالية فى العالم مجتمعة».

وقد لاحظ كورب أن طلب الميزانية يتجاوز أى ميزانية أرسلها دونالد رامسفيلد إلى الكونجرس عندما كان يخدم وزيراً للدفاع فى ذروة الحرب الباردة. ولكن ألا تتطلب حرب رامسفيلد ضد الإرهاب مثل هذه الزيادات الطارئة؟ لا. وحسبما يلاحظ كورب، فإن الحرب فى أفغانستان قد تكلفت حوالى ٦ بلايين، وتخصص ميزانية العام التالى ١٠ بلايين دولار للصراع الدائر ضد الإرهاب - وكل من الرقمين بعيد تماما عن الزيادات الجديدة التى سوف تدفع إجمالى الميزانية إلى ٥٨٠ بليون دولار بحلول سنة ٢٠٠٧م، حسبما يجادل كورب.

والاقتراح يوفر الميزانية للبرامج والتجهيزات التى لن تؤدى أى دور فى أى حرب ضد الإرهابيين الذين لا دولة لهم: فهى طائرات ذات تكنولوچيا فائقة، وغواصات، ودبابات ونظام الصواريخ الدفاعية. وتحقيق مثل هذه الالتزامات سوف يتكلف أكثر من مائة بليون دولار. وكلها، من وجهة نظر كورب عبارة عن «إلقاء.. المال إلى البنتاجون، ورفض أى خيارات أخرى». ولكن كورب صوت وحيد منعزل فى هذا الجدل، وهو بالمصادفة ليس صوتا يرتفع من اليسار. فقد خدم مساعداً لوزير الدفاع فى عهد رونالد ريجان.

وهنا بعض الأسئلة التى يفرضها اقتراح إدارة بوش بالميزانية العسكرية :

* ما الفوائد التى تعود من ذلك؟ للأسف ، أن الإجابة القديمة ، فى عصر إنرون ، تطرح نفسها فى ثوب جديد . هذه النفقات التى لم يسبق لها مثيل ، بقيمتها الأمنية الملتبسة سوف تثرى مقاولى الدفاع الذين تنعشهم هذه النفقات ، كما أنها ستعيد انتخاب السياسيين الذين تنفق عليهم . وإذا ما قورن إنرون بهذه الرابطة من الفساد السياسى المشترك ، فإنه يظهر لطيفًا .

* وإذا كنا ندرك أن الاستعداد للحرب له قوته الدافعة الخاصة ، فهل نحن نطلق قوى لا يمكننا أن نتحكم فيها؟ وهل حالة «أطلق النار أولا ، ثم اسأل بعد ذلك» فى الحرب على الإرهاب قد أدت إلى استهتار جديد فيما يتعلق بالحرب المتوقعة ضد بعض الدول هى التى تبرر وحدها مثل هذه الميزانية؟

* إذا ما تمت الموافقة على هذه الميزانية ، فهل سيعنى هذا أننا نحن الأمريكيين قد استجبنا لموسمنا الملىء بالجراح والخطر بوضع عسكرى جذرى جديد لأنه يبدو بلسمًا شافيًا للجراح؟ إن العنف العالمى أكثر احتمالاً ، والصحة الاقتصادية طويلة المدى لبلادنا قد تقوضت ـ وفى سبيل ماذا؟ هل لكى نشعر بأننا أفضل؟

هذه الأسئلة تغلى لتطرح تساؤلات عن رئيسنا . ففى اقتراح مثل هذه الميزانية غير المتناسبة للدفاع ، هل چورچ دبليو بوش مخدوع ، أم أنه شكاك متشائم؟ وهل هو يستغل عن وعى لحظة الوطنية غير الناقدة التى تمر بها الأمة ، أم أنه هو نفسه غير قادر على النقد من الناحية المعرفية؟ وما هو الأسوأ فى ذلك؟

وإذا ما لفَّ نفسه فى العلم ، على حين يضع مصالح مقاولى الدفاع قبل مصالح الوطن ، فهل يخون الرئيس بوش المعنى الذى يدل عليه العلم؟ وبينما يتم القيام بهذا التغيير الجذرى فى واشنط ، لماذا لا يطرح المحافظون مثل هذه الأسئلة؟

أمريكا تقوم بدور اسبرطة

١٢ مارس ٢٠٠٢م

متى صارت أثينا هى إسبرطة؟ متى قامت أمريكا بتعريف نفسها على هذا النحو

الشامل حول الحرب؟ لقد أدت الحوادث التى جرت هذا الشتاء إلى بلورة هذا السؤال، ولكن منذ يومين نشرت نيويورك تايمز الأنباء الصادمة عن تقرير البنتاجون عن الوضع النووى. ذلك أن حكومتنا عاكست اتجاها طويل المدى للبعد عن الاعتماد على الأسلحة النووية، وهى تعد صراحة لمشروع إستراتيچية عسكرية أمريكية على أساس الأسلحة النووية التى يمكن استخدامها، مع احتمال غير مسبوق للاستخدام الأول ضد دول غير نووية، ولتطوير أسلحة نووية جديدة، بل وحتى استئناف الاختبارات النووية. وهذه حركة تحول عن الدمار المتبادل الأكيد، حسبما تصوغها التايمز، إلى الدمار الأكيد لجانب واحد ـ أى دمار عدونا. إن واشنطن تفكر فيما لا يجوز التفكير فيه.

كيف حدث هذا؟ فى أقل من نصف سنة أعدنا اختراع أنفسنا بحسباننا أكثر شعوب الأرض ولعًا بالحرب. لماذا؟ إن الإجابات التقليدية هى أن الهجمات الإرهابية التى وقعت فى سپتمبر تطلبت هذه الاستجابة، وأن ذلك محور للشر يسلط علينا تهديداً مميتًا. بيد أن إجابة أكثر عمقًا، ربما، هى أن ضربة سپتمبر إلى النفسية الأمريكية تسببت فى رد فعل من الأسى والغضب والخوف الذى لم يحدث من قبل أن كان الإحساس به على هذه الدرجة من القوة. إن الحرب ضد الإرهاب يمكن أن تبدو تطهيراً لمثل هذه العواطف. ويمكن للوجه المتوحش الذى يجسده الوضع النووى الجديد أن يظهر وكأنه تعبير كامل عن الجرح الذى عانيناه، سواء كان يجعل المعاناة مستقبلاً أقل احتمالاً أم لا.

بيد أن السهولة التى جعلنا بها جيلاً آخر من الشباب يشفى غليله فى دفاعنا، كما نتخيله، والروح الحمقاء التى نرمى بها الآن زهر القوة النووية، تصرخ مطالبة بتفسيرات أخرى. ما هى الملاحظات فى الشخصية الأمريكية التى يمكن أن نعول عليها فى هذا التحول المذهل؟ هناك أربع ملاحظات خطرت لى:

* الزمن الأمريكى. نحن وحدنا دون بقية الأمم الذين نعرف أنفسنا بالمستقبل لا الماضى. وهذا هو منبع تفاؤلنا، ومفتاح عظمتنا. ولكنه يعنى أيضا أننا نبذل جهداً قليلاً فى نقد الذات، وتعلم دروس التاريخ، ومن ثم فإننا دائمًا أبرياء ومسرعون فى النظر إلى أولئك الذين يعارضوننا على أنهم أشرار. وإذا ما تصرفنا بنوايا حسنة، فإن فى هذا الكفاية. وننسى أن نوايانا الحسنة غالبًا ما انحرفت فى الماضى.

* المال الأمريكى. بتقييم النشاط فى مجالات المقاولات، نجد أننا نثق فى شركاتنا، وأن ذلك مفتاح آخر لعظمتنا. ولكن الشركات منحازة بشكل لم يتم فحصه تجاه الحرب. فقد صارت صناعة السلاح آلة اقتصادية على مدى نصف قرن من الزمان، ومصدراً من مصادر الرخاء. ثم ما أن توجد الأسلحة، سرعان ما يصير الضغط من أجل استخدامها صعبًا على المقاومة، مما يطلق دورة جديدة من التطور والتصنيع. والكابح لهذه الدورة هو السياسة، ولكن الساسة الآن خاضعون تمامًا للشركات التى تدفع لهم «بالإسهامات». واقتصاد الحرب الذى انتكس بعد انفراج العلاقات مع موسكو، استعاد حيويته حالاً.

* الهوية الأمريكية. ونحن نكون على طبيعتنا أكثر ما نكون، عندما نمضى وحدنا، من «الفرد ذى العزم» إلى حراس تكساس. وعلى الرغم من الطبيعة الجماعية لأحسن أعمالنا (العلوم، التكنولوجيا) فإن شكوكنا الفطرية تجاه الجماعية العالمية (مثل الأمم المتحدة) تحول دون تطبيق القانون عبر الحدود (مثل المحكمة الجنائية الدولية) التى يمكنها وحدها ضرب الإرهاب بفعالية. والحرب الأحادية تبدو عادية بالنسبة لنا لأننا نوجهها بشروطنا الخاصة، ولا نهتم بأحد ـ مثل الأمريكيين الحقيقيين.

* الاستثناء الأمريكى. لأن هجمات سبتمبر كانت أول عنف شامل تعانيه الولايات المتحدة فى الداخل منذ الحرب الأهلية، فإنها تركتنا فى شك وخوف. ولكن فى أى مكان آخر فإن الخراب الذى سببته الحروب عادى للغاية. أما بالنسبة لنا فإن دمار الحرب يبقى أموراً مجردة. وذكريات سبتمبر، فى الحقيقة، تبرز كيف أن أهوال الحرب الحديثة لم تمس أبدًا مدن أمريكا. هذا هو السبب الوحيد فى أننا نستطيع إعادة اختراع تسليط القوة الأمريكية حول ضربات بالروبوت، والقصف الجوى الإستراتيجى، بل وحتى الأسلحة النووية التى يمكن استخدامها. ويمثل هذا كله إخفاقًا فى الخيال الأمريكى لاستيعاب الأثر الحقيقى على الناس الحقيقيين فى مثل هذه الهجمات. فماذا لو أن النيويورك تايمز نشرت نعيًا مفرداً لكل شخص قتلته قوات الولايات المتحدة؟

فى كل من هذه الأمثلة، يبرهن مصدر عظمة الشخصية الأمريكية على أن له جانبًا مظلمًا، وأن قواها تنطلق من خلال الحزن والغضب والخوف المسيطر. إنه الظلام حقًا. ولكن نفاذ البصيرة العظيم فى الأدب المأساوى ـ الذى أعطته أثينا للعالم ـ هو أن الحزن

والغضب والخوف يمكن أن تؤدى إلى الحكمة لا الانتقام، فى سر الحرية الإنسانية . فما الحكمة فى ظروفنا الراهنة سوى أنها طريقة أخرى للتفكير فى الحرب؟ انتبه للحرب ضد الإرهاب، وانتبه لتقرير الوضع النووى. انتبه لاستغلال إدارة بوش لحزننا، وغضبنا وخوفنا. إننا ينبغى بشكل ملح أن نعيد النظر فى الطريق الذى سلكناه هذا العام قبل أن يؤدى بنا إلى نهاية مميتة من صنع أيدينا.

وعندها سوف يسأل الناجون: متى صارت أمريكا إسبرطة؟ وستكون الإجابة: لقد حدث هذا الآن.

الپاكستان فى مواجهة الهند

٢٨ مايو ٢٠٠٢م

إن صدمة العناوين الرئيسية تتركنا غير قادرين على التمييز بين التهديد الرهيب المجرد والتهديد الذى يهدد العالم تاريخيا. إن أزمة السلوك الجنسى المنحرف بين قساوسة الكنيسة الكاثوليكية بل والحرب ضد الإرهاب ستكون مجرد هوامش على العصر الحالى إذا ما تحول الصراع بين الهند وپاكستان من مناوشات الحدود إلى حرب عامة. وبما أن مشهد مثل هذا التصعيد يبدو أكثر احتمالاً يومًا بعد يوم، فهنا بعض النقاط التى تحتاج إلى أن نؤكد عليها مجدداً:

* لم يحدث أبدًا من قبل، حرب تبادل القذائف بين قوتين نوويتين. والحرب، تحديداً، تحمل قوتها الدافعة غير العقلانية. واحتمال وقوع عدة حوادث جديدة مثل هيروشيما فى شبه القارة الهندية، احتمال حقيقى، وربما كان احتمالاً وشيكًا.

* من داخل النزاع بين الهند وپاكستان، تبدو مسائل السيادة الوطنية والهوية الدينية جديرة بالمخاطرة حتى بحرب نووية، ولكن من الخارج، ليس هناك أى تبرير مقنع لتلك المخاطرة. وهذا هو وضع الولايات المتحدة والأمم الأخرى.

* بيد أن ذلك التناقض ينطبق فى كل موقف حرب. فمن داخل النزاع، أى عمل خطير مبرر على الدوام. ومن الخارج، الحل الوسط، والمفاوضات، وضبط النفس تبدو كلها أموراً مفضلة على العنف. وبعبارة أخرى فإن الحرب بين الهند و پاكستان،

تكشف عن عبثية الحرب فى حد ذاتها . ومن ثم فإنه لا يكفى للولايات المتحدة وغيرها من الأمم أن تلح على نيودلهى وإسلام آباد لضبط النفس .

* ولم يحدث التصعيد فى هذا الصراع فى فراغ . إذ إن شيئين جعلاه ممكنا : مناخ عالمى واسع المدى من الاستحسان الأخلاقى للحرب ، ولامبالاة واسعة الانتشار تجاه التهديد الذى تشكله الأسلحة النووية . وينبغى للتوقع الماثل والحقيقى للحرب النووية أن تولد تغيرات على كل من هاتين الجبهتين .

كان هناك وقت تنطلق فيه جماهير الأمم لتسبق حكوماتها فى المسألة الملحة للحرب النووية . ومن حركة «حرموا القنبلة» «ban the bomb» فى خمسينيات القرن العشرين ، إلى حركة «التجمد النووى» «nuclear freeze» فى الثمانينيات ؛ ومن الطلاب الناشطين إلي دعاة السلام الكبار ؛ ومن علماء پوجواش إلى الأمهات فى جمعية «العمل النسائى من أجل نزع السلاح النووى» Women's Action for Nuclear Disarmament ؛ ومن المنظمات العاملة ضد الأسلحة النووية من علماء الطبيعة والمحامين إلى الجمعيات التى كونها رجال المال والأساقفة ـ ارتفعت أصوات المواطنين العاديين فى الماضى لتحدث تأثيرًا هائلاً فى هذه المسألة . والواقع ، ربما يكون الأمر هو أن سباق التسلح فى حد ذاته قد انقلب على عقبيه بتأثير هذه الأصوات ، عندما اضطرت الحكومات إلى الاستماع إليها .

أين مثل هذه الأصوات اليوم؟ أو لنطرح السؤال بطريقة أخرى : ما الذى حدث لتقاليد «المقاومة»؟ ففى أثناء ذورة الحرب الباردة اكتشفت جموع كثيرة من البشر فى جميع أنحاء العالم أن الطريقة الوحيدة للحياة بطريقة إنسانية فى العصر النووى تتمثل فى المعارضة النشطة للمشهد القادم للكابوس النووى . وبعد سنة ١٩٩٠م ، بدا أن الخطر قد تراجع ، وتبخرت المقاومة . ونفس الجماهير العريضة التى كانت ذات مرة ترى أن مخاطرة الحرب النووية مشكلة عامة ملحة ، تقبلت الأسطورة القائلة بأن الحرب النووية لن تقع أبدًا . وفى أمريكا ، أدى هذا إلى اللامبالاة حتى عندما تخلى المسئولون الحكوميون عن معاهدات الحد من الأسلحة النووية ، واقترحوا برامج لإنتاج أسلحة نووية جديدة (القنابل النووية لتدمير المخابئ ، وتسليح الفضاء) وأعادوا الترويج للعقيدة القائلة بأن قوة أمريكا ترتكز على ترسانتها النووية الباقية . ولم يلاحظ أحد أن

هذه الاتجاهات فى الولايات المتحدة أعادت فرض تصميم الأمم الأخرى على امتلاك مثل هذه القوة. ولم يلحظ أحد بطريقة أشد قوة، أن القدرة الأخلاقية للولايات المتحدة على اعتراض الاختبارات النووية التى تجريها الهند وپاكستان قد انتقص منها رفض مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة لاتفاقية المنع الشامل للاختبارات النووية قبل ذلك مباشرة.

وهكذا فإن السياق الذى تحركت فيه الهند وپاكستان إلى حافة الحرب النووية هذه قد تم تحديده لا بانعدام المسئولية لدى الحكومات الأخرى، ولكن بتجريد المواطنين فى كل مكان والذين لم يعودوا يرون فى منع مثل هذه الحرب أمرًا يخصهم. والآن، هل سنشهد حقًا حل الأزمة على طول حدود الهند وپاكستان، كما لو كانوا هم الأساقفة الكاثوليك فى نضال مع الصحافة؟ وكما لو كانت الـFBI فى منافسة لتبادل اللوم مع CIA؟

إنه ينبغى علينا تجاه «مصير الأرض»، على حد تعبير جوناثان شل الرائع، أن نفعل ما هو أكثر من ذلك. يجب علينا، أولا، أن نفكر فيما لا يرد على البال مرة أخرى، ونتصور ما سيكون عليه شكل العالم حتى بعد حرب نووية محدودة. ويجب أن نواجه السؤال الذى يطرحه هذا المستقبل الممكن على كل منا: ماذا أنت فاعل لكى تحاول أن تمنع مثل هذه الكارثة؟

إن الطريقة الوحيدة لكى نعيش بطريقة إنسانية ـ ما تزال ـ تتمثل فى مقاومة الحرب. ويجب أن يكون منع الحرب، فى العصر النووى، هدفًا مركزيًا فى حياة كل فرد. أيها العلماء والأطباء، والمحامون، والأساقفة، والأمهات، والآباء، والطلاب، ورجال الأعمال والكتاب ـ أين أنتم؟ يجب أن نتذكر ما تعلمناه بالفعل ولكننا نسيناه، إن ما يظهره لنا زعماء الهند وپاكستان مرة أخرى؛ إذا ما تركنا نحن البشر هذه المشكلة لحكوماتنا فإننا هالكون.

***

(٥)

القـدس

فى غضون أسابيع بعد هجمات ١١/ ٩ فى نيويورك وواشنطن، أدى هجوم فلسطينى على مطعم بالقدس إلى مقتل وزير السياحة الإسرائيلى رهافام زئيفى. وعُدّ اغتيال مسئول حكومى تصعيدًا رئيسيًا فى حملة الإرهاب.

وربما تم استهداف زئيفى لأنه صوت مؤيد لفكرة «ترحيل» الفلسطينيين من الأراضى المتنازع عليها(*). وعندما تم تعقب آثار المشتبه فى قيامهم بعملية الاغتيال إلى مقر الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات فى رام الله - وجدوهم هناك مما يرمز إلى ازدواجية عرفات - أحاطت الدبابات والجنود الإسرائيليون بالمجمع. وقام رئيس الوزراء الإسرائيلى، آرييل شارون، باستغلال الاستفزاز الفلسطينى الجديد مع نزعة واشنطن الجديدة «حيًا أو ميتًا»، بوصفها مناسبة لتعريف حملة إسرائيل بحسبانها خط المواجهة فى الحرب ضد الإرهاب. وكان لابد من استخدام معيار «القوة المهيمنة» الذى وضعته واشنطن لتبرير التكتيكات الإسرائيلية الأشد فظاظة، بما فى ذلك هدم المنازل، والعقاب الجماعى، والاغتيالات غير القانونية وإغلاق الضفة الغربية غزة مما أدى إلى خنق الاقتصاد الفلسطينى، وانتشار البطالة بين الشباب الفلسطينى - وهم المورد الأول

(*) نرى أن هذه صياغة تظهر الانحياز لإسرائيل، فالفلسطينيون يعيشون على تلك الأرض منذ آلاف السنين، وقرار الأمم المتحدة الذى قامت على إثره إسرائيل عام ١٩٤٧، يقضى بتقسيم فلسطين إلى «دولة عربية» و«دولة يهودية، قامت الدولة اليهودية، ولم تقم الدولة العربية (الفلسطينية)، ثم احتلت إسرائيل عام ١٩٦٧م أجزاء من الدولة العربية (الفلسطينية)، وأصبح - بمنطق الواقع والقوة، أو شريعة الغاب - لليهود من شتى أنحاء العالم أن يدخلوا فلسطين، أو إسرائيل، ولا يتمكن الفلسطينيون الذين خرجوا من فلسطين عام ١٩٤٨م، إثر مذابح الإرهابيين اليهود، من العودة لبلادهم ومنازلهم التى لا يزالون يحملون مفاتيحها - (المترجم).

لتجنيد الإرهابيين - والوصول إلى مستويات محزنة من سوء تغذية الأطفال الفلسطينيين.

وسرعان ما أدى هذا الإغلاق إلى «حاجز أمنى»، وهو حائط وسور كبير محصن أدى فى الواقع إلى اقتطاع أجزاء من الأرض المتنازع عليها. وفى إشارة إلى اتفاق السلام الذى عقد بين إسرائيل والفلسطينيين سنة ١٩٩٣م، قال شارون فى أوائل ديسمبر ٢٠٠١، «لقد انتهت أوسلو منذ زمن طويل». واستمرت غالبية الإسرائيليين فى الاعتقاد فى مبادئ أوسلو - دولتان والاتفاق حول القدس، وانسحاب معظم المستوطنين اليهود من الأراضى المتنازع عليها(*)، والتزام فلسطينى ثابت بأمن إسرائيل - بيد أن هذه الأغلبية، وهى تشعر أنها تحت الحصار(**)، تقبلوا أيضًا استجابة شارون القاسية للهجمات الفلسطينية.

وفى رام الله صار عرفات سجينًا بالفعل. ولم تعد إسرائيل تعامله بوصفه شريكًا مفاوضًا. وجددت حماس والجهاد الإسلامى حملاتهما لتدمير دولة إسرائيل(***). وتم قبول الأسلوب العدمى للاغتيال الانتحارى بحسبانه عملاً مشروعًا من جانب كثير من الفلسطينيين ومؤيديهم. وفى جميع أنحاء العالم العربى، انتشر الاعتقاد بأن الهجمات على مركز التجارة العالمى والپنتاجون كان من عمل اليهود، وصار الخطاب البلاغى المعادى للسامية صراحة ملمحًا من معظم الخطب الإسلامية(****). أما فى

(*) راجع هامش صفحة ٩٥ - المترجم.

(**) إذا شعر الإسرائيليون أنهم تحت الحصار، فبماذا يشعر الفلسطينيون؟ - المترجم.

(***) حماس والجهاد يقومان بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي، والجيش الإسرائيلي من أقوى جيوش العالم، وتحت يده ترسانة نووية، وموارده بدون حدود، سواء كانت من يهود العالم، أو من حكومة الولايات المتحدة، وترفض إسرائيل قيام دولة فلسطينية، وتتحجج فى ذلك بشتى أنواع الحجج. أما حماس والجهاد فمحظور عليهما من العالم كله بما في ذلك البلاد العربية - إمدادات السلاح والمال، وتوافق حماس والجهاد علي قيام دولتين علي أسس حدود الأمم المتحدة وما قبل ١٩٦٧م. فمن يدمرون؟

(****) هذا التعبير السخيف الذى نجحت الصهيونية فى زرعه فى العقلية الغربية لا معنى له على الإطلاق عندما يستخدم ضدنا - نحن العرب والمسلمين - لأننا ساميون قبل غيرنا لا سيما يهود أوروپا وأمريكا الذين ينتمى أغلبهم إلى الشعوب السلافية، ولاسيما الخزر الذين اعتنقوا اليهودية فى العصور الوسطى، ومنهم معظم قادة إسرائيل (المترجم).

أوروبا فإن الشكاوى حول إسرائيل تحولت إلى حالة مرضية من تلطيخ اليهود، على حين كانت نزعة «معاداة الصهيونية» تغذى نزعة «معاداة الأمريكان».

وألقى متحدث باسم إدراة بوش بجزء من اللوم على مبادرات إدراة كلينتون للسلام فى الشرق الأوسط فى زيادة التوتر، وسخر منها بحسبانها محاولة «لإطلاق النار على القمر». وكان لابد أن تتأثر سياسات بوش المتناقضة تجاه الشرق الأوسط - فلا جهود جادة للسلام، ولا حتى انتقاد للاستيطان المستمر فى الضفة الغربية - بشكل حاسم بتحالف المحافظين الجدد فى اشنطن مع الليكود، الحزب اليمينى الحاكم فى إسرائيل. وكان لابد لمن يحبذون الخط المتشدد الذى ينتهجه بوش أن يرحبوا بشارون. وكان التعاون بين الزعيمين قد تبلور فى رمز، عندما سمى بوش فى ١٨ إبريل سنة ٢٠٠٢م، شارون «رجل السلام».

المسلمون واليهود والمسيحيون والسلام

٢٣ أكتوبر ٢٠٠١م

أكتب هذا وأنا فى طريقى إلى مؤتمر للديانات تم التخطيط له منذ زمن طويل فى معهد شالوم هارتمان فى القدس. فعلى مدى ربع قرن من الزمان، كان المعهد مركزاً للمصالحة بين الأديان، بحيث يجعل اليهود والمسيحين، ثم المسلمين أخيراً، يتبادلون الآراء حول أشد المسائل صعوبة. ويرأس المعهد الربى داڤيد هارتمان، ولم يكن عمله الدينى أبداً أكثر أهمية مما هو واضح الآن. وحسبما قرر اللاهوتى الكاثوليكى هانز كونج فى صياغة مشهورة للمسألة: «لاسلام بين الأمم بدون سلام بين الديانات. ولا سلام بين الديانات دونما حوار بين الديانات. ولاحوار بين الديانات بدون البحث فى أصول الديانات».

خذ، مثلاً، عنوان جلسة المؤتمر التى سأحضرها: «تصحيح ذكرياتنا وتقاليدنا - مواجهة انفعالات الأصولية الدينية». فإذا ما مضى الأمر على ما يرام، فإنه فى الوقت الذى تقرأ فيه هذا سأكون قد انضممت إلى المسلمين واليهود فى تدبر مسألة كيف «نصحح تراثنا» على حد تعبير المؤتمر «عندما يظهر على أنه غير إنسانى» وكيف

يمكن القيام بالتغيير الأساسى فى التأكيد الدينى «دون أن نقوض سلطة» التقاليد نفسها.

إننى أضع تحت البحث تجربة مسيحى يدرك التحدى الذى يواجهه الضمير المسيحى من جراء تاريخ من معاداة الكنيسة للسامية. ولأن هذا التحدى صار خطيراً ـ حوالى ألفى سنة من الاحتقار المسيحى لليهود، الذى لم يكن ممكنًا أن يحدث الهولوكوست بدونه ـ فإنه خيط واحد فقط من المشكلة الدينية التى تجعل مستقبل الإسرائيليين والفلسطينيين غير مضمون على هذا النحو، والتى تجعل من العالم مكانًا خطيراً بهذا الشكل المتجدد. إن «الصدام بين الحضارات» بين الغرب والإسلام، بعد كل ذلك، ليس فقط محتمل الظهور أمامنا، بل إنه أيضًا يحدد الكثير مما هو خلفنا. ومع وجود مثل هذه الفجوة فى الفهم التى تفصل بين الأغلبية الواضحة من المسلمين وخلفاء الغرب المسيحى، فما الفرصة المتاحة أولاً، لتجنب الصراع الأوسع الآن، وثانيًا، لتحقيق الاحترام المتبادل؟ والصيغة المحلية الأكثر كثافة لذلك السؤال، بعيداً عن أوروبا وبقايا المسيحية، تقول: ما الأمل الذى يمكن أن يوجد للسلام بين إسرائيل والفلسطينيين؟ هذه الأسئلة الصعبة بالفعل أسئلة مركبة، طبعا عندما تُظهر وجوه الفرقاء المتنافسين «انفعالات الأصولية الدينية».

ولأننى توقعت هذه المناقشات، فليست هناك لدى أوهام حول صعوبتها. ذلك أن الحقائق السياسية والاقتصادية مروعة بالقدر الكافى حتى بدون عدم الإدراك الدينى. بيد أن تاريخ الحوار المسيحى ـ اليهودى الذى هو تاريخ ضيق نسبيّا، يوحى بأن هناك إمكانية للتقدم الحقيقى مع الإسلام. أولاً، لأن الخصومة بين المسيحية واليهودية كانت جوهر العلاقة بينهما، ولا يصدق هذا على الخصومة بين كل منهما والإسلام. ولم يكن الأمر مقصوراً على أن الكنيسة "أبطلت" اليهودية، مثلما يرى الإسلام نفسه «يَجُبُّ» اليهودية والمسيحية، وإنما تمثل فى أن الكنيسة كانت تعوف نفسها بمصطلحات إيجابية فى مقابل مصطلحات سلبية تعرف بها اليهود والديانة اليهودية. وقد انعكس هذا البناء المعرفى للعقول فى كتب المسيحية المقدسة (العهد الجديد فى مواجهة العهد القديم) فى المسيحية (يسوع المعبد الجديد) وفى اللاهوت (اليهود بوصفهم شهوداً منحطين ـ Degraded witnesses) هذه تلميحات إلى التقاليد المسيحية المؤسسة التى

بقيت حتى تم تصحيحها بعد الاعترافات المرتبطة بالهولوكوست. هذا مستوى من التصحيح المطلوب والذى يبقى أعمق كثيراً من أى تصحيح مطلوب لعلاج التوترات بين الإسلام واليهودية أو بين الإسلام والمسيحية.

والسبب الثانى لتوقع إحراز التقدم مع الإسلام يتمثل فى أن ثمة توجها نحو هذا التصحيح المطلوب فى المواقف المسيحية تجاه الإسلام. وهناك أمل يلوح بالنسبة للعلاقات مع الإسلام، يتمثل فى التقدم الذى أحرزه اليهود والمسيحيون مع كل منهما الآخر. إذ إن الكنيسة ترى باطراد ما ينبغى تصحيحه فى عقائدها ومواقفها، وعلى الرغم من حقيقة أن مثل هذا التغير يمكن أن يبدو تقويضاً لسلطة التراث، فإن المحاولات الدءوبة فى إنجاز هذه التصحيحات تجرى الآن. وينبغى الاعتراف بأن مثل هذا الاصلاح يمضى على نحو متقطع، ولكن تصحيح التعصب الأعمى ضد اليهود صار واضحاً لاسيما فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بعد الهولوكوست. وإذا كان من الممكن اجتثاث أشد اشكال الانحياز الدينى اللاإنسانى تأصلاً، فإنه يمكن كذلك استئصال أشكال التعصب والبربرية المبررة دينيّاً - من تفوق الذكور، إلى الشوفونية العرقية، وإلى الوطنية الوثنية، إلى الرضا عن النفس الذى يميز أولئك الذين يخطئون فى إفراطهم سعيّاً إلى البركة الربانية، إلى غضب المحرومين الذين يمكنهم أن يروا فى العنف الانتحارى أمراً مقدساً.

ونحن نكاد نأخذ ظاهرة المصالحة اليهودية - المسيحية المعاصرة على أنها أمر مسلم به، ولكن منذ زمن غير بعيد، لم يكن ممكنًا لمثل هذا التقدم أن يطرأ على البال. واأسفاه، إن هذا التقدم ينتج عن الإدراك الذى ينمو من ثنايا أكثر الجرائم وحشية فى التاريخ، وهو ما يوحى بما هو محل الرهان فى الأزمة الراهنة. ذلك أننا فى العمل من أجل المصالحة الدينية قبل حدوث انفجار أكبر من انفجارات العنف اللاإنسانى، نبنى على إعادة المصالحة ما أدى العنف اللاإنسانى فعلا إلى جعله إجبارياً ملزماً. لقد أدى الماضى المأساوى بين المسيحيين واليهود إلى فتح الباب أمام مستقبل جديد. ويمكن لهذا المستقبل أن يضم الإسلام أيضاً. ومن ثم فإن هذا المسيحى يعود إلى القدس وهو يحمل أملاً، حتى فى ظل الظروف الراهنة.

الفلسطينيون والإسرائيليون

٣٠ أكتوبر ٢٠٠١م

وصلت بوصفى ضيفًا على العشاء إلى منزل أستاذ بجامعة القدس فى القدس العربية، وهو ابن لعائلة فلسطينية بارزة. وعند وصولى، يرقص مضيفى وابنته ذات السنوات الخمس فى غرفة المعيشة، وكلاهما يرفع سبابته فى الهواء، رقصة ترحيب. وثمة ضيوف آخرون، منهم أستاذ آخر من جامعة القدس، وهو فلسطينى أيضًا، واثنان من المثقفين الإسرائيليين. وجلسنا نحتسى شرابناونتبادل الأحاديث القصيرة. وتبرز صورة مارك توين عن القدس، ثم نناقش مشاعر توم سوير بأنه محصور بين عالمين.

وتأخر العشاء لأن الضيفة الأخيرة لم تكن قد وصلت، وتبادل مضيفنا وزوجته نظرات قلقة. ثم رن الهاتف، إنها الضيفة المنتظرة، تتحدث من بيت لحم التى لا تبعد أميالاً كثيرة عن القدس. وبعد الانتظار يشرح مضيفنا أن الضيفة لن تحضر. ذلك أن الدبابات الإسرائيلية فى البلدة، وإحداها تطلق النار خارج منزلها مباشرة. وهى آسفة وترسل تحياتها.

ليس هناك مارك توين. ويدعونا مضيفنا إلى مائدة عامرة، بيد أن الكرب الناجم عن الحرب عبر التلال احتل مكان الضيفة الغائبة. وبدأت دورة العنف الجديدة تتحول إلى الطريق الآخر عندما تم اغتيال الوزير الإسرائيلى رهافام زذيفى على يدى أحد الفلسطينيين، وكان زئيفى على الجانب المتطرف من السياسات الإسرائيلية، وكان محبذًا «للترحيل» الفلسطينيين العرب جميعًا من إسرائيل، وهى معادلة لحرب شاملة: بيد أنه لم يحدث أبدًا من قبل أن تم اغتيال وزير إسرائيلى على يد فلسطينى. وفى الجنازة التى أعدتها الدولة، بدا أن غضب عائلة زئيفى قد صار غضب إسرائيل كلها. ولا شك فى أن قاتل زئيفى كان يأمل فى اشعال شرارة من ردود الفعل التى تجعل من عملية التفاوض من أجل السلام أمرًا أقلّ احتمالا. إن ردود الأفعال المعاكسة فى الطريق. فقد تم قتل عشرات من الناس.

وعلى المائدة، نرفع أكوابنا، وكل منا يحاول لمس أكواب الآخرين جميعًا. ولكن حينئذ، حدث بشكل حتمى مع الطعام، أن سيطر الموضوع المؤلم على الجميع. فقد أخذ زميل ضيفنا فى جامعة القدس يكرر فى لهجة عاطفية قصة تجريد الفلسطينيين من

ممتلكاتهم. ويجيب أحد الإسرائيليين، وهو موظف سابق بالأمم المتحدة، بحرارة بقصة عودة اليهود إلى وطنهم. ولكن وطن من؟ وكل منهما يلخص مأساة الحكايتين. فاليهودى نفسه ناج من الهولوكوست، ولكن الحافة الحقيقية من قصته تأتى من صلوات شعب على مدى ما يقرب من ألفى سنة «السنة القادمة فى القدس». أما الفلسطينى فهو نفسه ابن لرجل تم إجباره على النفى من وطنه، يعيش فى المدينة التى ولد بها بتأشيرة زيارة. ويشير كل منهما إلى تاريخه على أنه برهان. إنهما حقًا عالمان مختلفان(*).

ويملأ الأذى والغضب الغرفة. ولم يحدث فى حياتى من قبل أن سمعت الحقائق المتضاربة وهى تتقرر على هذا النحو من الحيوية، وهى قصص يمكن أن تبدو كل منها لاغية للأخرى تمامًا. والواقع أن «الإلغاء» صار الحاكم للسياسات الإسرائيلية الاستراتيچية الفلسطينية على السواء. فمنذ شهور مضت فقط، كان الفرقاء على كلا الجانبين قادرين على سماع الحيوية التى تتسم بها مزاعم الآخر، ولكن الآن هناك كثيرون على كل جانب يقولون إن واحدًا من الجانبين فقط هو الذى يمكن أن ينتصر. ويبدو من سوء الأدب أن نسأل: وما هو النصر؟

حتى فى هذه اللحظة اليائسة، من الواضح أن الأهم من أى كلام مجرد عن «الحقوق» هى الحقيقة التوءم لشعبين جنبًا إلى جنب فى المكان نفسه، وكلاهما عقد العزم على البقاء. و«الترحيل» يمثل ڤانتازيا مميتة لأى من الجانبين. ومن الواضح أيضًا أن الأغلبية فى كل من الجانبين قد اعتنقت هذه الحقيقة التوءم، وما تزال تفترض ضرورة التسوية بالتالى. والآن، فإن الاقليات التى ترفض التسوية هى المسيطرة. وعرفات تحت رحمة القتلة(**) الذين كان يشرف عليهم فى الماضى ويبقيهم على الحياة اليوم. أما حكومة شارون، مع هذا الهجوم الوحشى، إنما تطبق كتابا كتبه الإرهابيون أنفسهم. هل هناك مزيد من الأمن لإسرائيل فى إشعال غضب الصبية الفلسطينيين الذين يمكن تجنيدهم الآن فى التفجيرات الانتحارية؟

(*) هذه مقارنة غير عادلة بين الجانى والمجنى عليه؛ ولا عبرة هنا بأسطورة الهولوكوست، لأن ضحاياها «أوروپيون عانوا من حاكم أوروپى، ولم يضطهدهم العرب أو الفلسطينيون. أما الفلسطينيون فهم ضحايا حقيقيون لعدوان الصهيونية (المترجم).

(**) كم عدد ضحايا قتلة عرفات وكم عدد ضحايا قتلة شارون. ومن الذى سلب حقوق الآخر؟ وأى دولة احتلت الدولة الأخرى طبقًا لقرارات ومبادئ الأمم المتحدة؟ ـ المترجم.

إن العنف المنفلت تم تبـريره في الماضى بألف طريقـة، ولكن عندمـا ينبـغى لقـتل الأعداء أن يحتل المكان الثانى بعد كسب المزيد من الجماهير الذين ينمـو العدو فيما بينهم، فإن مثل هذا العنف يصبح بلا فائدة. ويبرهن غزو بيت لحم على هذا، وكذلك قصف أفغـانستـان بالقنابل. لقد أعيد تعريف معنى النصـر، ولكن المحاربين الذين يؤمنون بمبدإ «حيّا أو ميتًا» لم يسمعـوا. إنهم لا يرون كيف أن أسلحتهم الثقيلة لا تتماشى مع الصراع الجديد الذى يواجهنا جميعًا.

وفى نهاية حفل العشاء، جعل مضيفونا الكرماء من الممكن لنا أن نرحل وكل منا يتمنى الخير للآخر، بما فى ذلك الخصوم، وهذا وحده يبدو علامة صغيرة على الأمل. وعـدت إلى فندقى، وقـفـت فى النافـذة أتطلع إلى التـلال التى تـدور الحـرب وراءها. وقمت بالصلاة من أجل الضيفة التى لـم تستطع الحضـور، ولهـذه المدينة، ولبلادى، وللعالم. إننى آمن فى غرفتى ومع ذلك فأنا خائف.

الأطفال المفقودين فى الصراع

١٩ مارس ٢٠٠٢م

«يا هذه القطعة المدمرة من الطبيعة. إن هـذا العالم العظيم سوف يتمزق إلى العدم». هذا السطر، الذى نطقت به جـلاوستـر فى الملك ليـر، يشيـر إلى الفناءالفـردى، ولكن المصير المخيف للعالم العظيم يمكن أيضًا أن نلمحه فى شئون الأوطان. إذ إن الصـراع بين الفلسطينيين والإسرائيلين مزعج لأسباب كثيرة ـ ليس أقلها حقيقة أن التصـميم العربى القـديم على القضـاء تمامًا على دولة إسرائيل يبـدو أنه حاز قبـولاً متـجددًا بين الفلسطينيين(*). ويمكن حساب هذا على أنه نجاح عرفـات الوحيد، بيد أنه من المؤكد معيار أيضًا لفشل شارون ـ ومقياس لفشل سياسة بوش بمبدإ «حيّا أو ميتًا» التى أعطت الرخصة لشارون فى هذا التصعيد المميت.

(*) هل يمكن محـاسبـة كل الفلسطينيين على تصريحات لقلة قليلة منهم، تراجعت عنها، ولا نحاسب، إسرائيل على تصريحات أسوأ لقادة فى الحكومة وحاخامات بارزين، وفى الإعلام، وبصورة أفظع كمّا وكيفًا، بالإضافة للأفعال؟ ـ المترجم.

ولكن الآن، مع قوة الدفاع الإسرائيلية والاستشهاديين من المنظمات الفلسطينية مشتبكين فى صراع لا يستطيع أيهما الإنسحاب منه، فإن المرء يرى مثالاً على أفظع سيناريو مخيف يمكن تخيله. هذه هى الطريقة التى يمكن بها للأرض ذاتها أن تتحرك صوب تدمير نفسها ـ قوتان فى صراع، حتى لو تم حله، يفهمه كل منهما على أنه يؤدى حتما إلى الدمار المتبادل، ومع ذلك فإن أيا من الفريقين لا يمكنه التوقف. إن الانعدام الكامل للعقلانية فى العنف لم يكن أبدًا أكثر وضوحًا مما هو فى الشرق الأوسط هذا العام، إلا أن قبضة العنف على عقول القادة الإسرائيليين والفلسطينيين لا يمكن أن تكون أقوى. وفى أمريكا، فى الوقت نفسه، نقول لأنفسنا إن حربنا العنيفة على الإرهاب قد مضت بشكل جيد، إلا أن التجربة الإسرائيلية توضح كيف يتم بكفاءة تجنيد الانتحاريين من المناطق المدمرة فى الطبيعة التى أحدثتها «القوة الغالبة». ومعضلة إسرائيل نذير لأمريكا بأن: «هذا الوطن العظيم سوف يتمزق هباء كذلك».

أين الأمل؟ اليوم فى همرشولد پلازا بالأمم المتحدة فى نيويورك، سوف يتم رص أكثر من ألف كفن فى صفوف. وسوف يتم تغطيتها بالأعلام ـ أعلام بالأزرق والأبيض لدولة إسرائيل وأعلام بالأحمر والأخضر والأسود والأبيض للسلطة الفلسطينية، وتمثل الأكفان كلاً من الاشخاص الذين قتلوا فى ثمانية عشر شهراً من الحرب، وهو عرض يرفض التعامل مع أعداد الضحايا بوصفها رقمًا مجردًا. لقد كان كل من الموتى شخصًا يحمل اسمًا، وتاريخًا، وأملاً؛ كان كل منهم شخصًا له عائلة. وكان كل منهم ابنا لشخص ما. وسوف يتم تقديم كل منهم فى الپلازا اليوم.

والملفت للنظر، أن آباء الموتى الإسرائيليين والفلسطينيين هم الذين رتبوا اليوم لعرض الأكفان ـ وهو رد فعل للحزن وانكسار القلب الذى لم يؤد إلى صرخة انتقام وإنما إلى دعوة للسلام. ودائرة الآباء Parents هى مجموعة تتخطى الصراع، تتكون من ١٩٠ إسرائيليا، ١٤٠ فلسطينيا لهم تجربة رائدة مشتركة فى فقد أحد الأبناء بسبب العنف. وبرؤية العنف بعدسات هذا الفقد، فإنهم يرونه على نحو مختلف. وفجأة يدخل الميلاد والشباب وأمل الأجيال فى الصورة لكى يوازن الموت المرعب للعجوز. وبالإصرار على حقيقة أن حياة الأولاد هى المهمة أكثر من غيرها فى هذه الحرب، تطلب دائرة الآباء بديلاً عن اليأس الذى يولده العنف.

ليس هذا فـقط . إن دائرة الآباء، وهى تذكـرنا بأن أولئك الموتى بدءوا أطفـالاً محبوبين ومايزال الحداد عليهم بهذه الصفة، تضع مصير الأبناء أمام صانعى القرار بشكل عادل ـ ليس بوصفها مسئولية فقط ولكن بوصفها فرصة. «إن كل طفل جديد يأتى إلى العالم يحمل داخله وعداً بالمستقبل البراق»، هذا ما قالته دكتورة چين شالر، من بوسطون ورئيس رابطة أطباء الأطفال العالمية، لتجمع كبير فى إسرائيل فى الشهر الماضى. وقالت: «لا يوجد طفل وفى ذهنه أى تفرقة، أو حقد فى قلبه، أو حجارة فى يده. فكل هذه أحـوال مكتـسبـة». إنهـا ليـست صـفـات فطرية. وهى ليـست ضرورية. وليست حتمية. ويمكن للمستقبل أن يكون مختلفاً.

وفى خضم حرب لا نهاية لها ما المطلوب لرؤية هذا؟ فى حالة دائرة الآباء يستدعى الأمر تحطيم الأمل الشخصى لخلق إمكانيـة الأمل السيـاسى. إن هؤلاء الفلسطينيين والإسرائيليين العاملين سوياً قد نصبوا لوحة إعلانات عبر مناطق المعارك فى إسرائيل والضفـة الغربيـة وغزة، تقول ببساطة: «إن آلام السلام أفضل من عـذابات الحرب ـ إسحق رابين» ولأن هؤلاء الآباء فقدوا أبناءهم، فإنهم يرون أفضل من أى أحد آخر كيف أن الحرب تجر العالم العظيم إلى الفناء. كل تلك الأكفـان. ومع ذلك، فإنهم يدعون إلى طريقة أخرى «عندما يمكن للناس الذين قدمـوا أكبر تضحية أن يلزموا أنفسهم بالتصالح والسلام، من منطلق معاناتهم للخسارة والحزن الشامل، فإن أولئك الذين يهتـمـون منا بالإقليم لا يحق لهم أن يفـقدوا الأمل»، حسـبـمـا أخبـرنى أحد مؤيديهم الأمريكيين.

الحدود المتلاشية

١ مايو ٢٠٠٢م

إن السر، عندما يقابل آرييل شارون الرئيس بوش فى واشنطن اليوم، هو: لماذا لا يعامل مؤيدو إسرائيل شارون بقدر أكبر من الشك؟ لقد فعل شارون المزيد مما يشين الدولة اليهودية بأكثر مما فعله أى زعيم آخر، كما أن وجوده الحالى بالمنصب كارثة لا توازيها كـارثة ـ ومن الواضح أنها كـذلك بالنسبـة للفلسطينيين، ولكنهـا كـارثة أكبر

بالنسبة للإسرائيليين . لماذا لا يتوقف شارون عند أهم اختبار أساسى للحكم : هل هو يدعم سلامة مواطنيه ، أم أنه يقوضها؟! اطرح السؤال وتاريخه المهنى الطويل فى ذهنك .

فى أوائل سبعينيات القرن العشرين ، كان شارون قوة قائدة وراء «خلق الحقائق» ، أى زرع الضفة الغربية وغزة بالمستوطنات اليهودية . إن الحركة المنفلتة هى أرض الصراع الحالى . كانت «الحقائق» التى تولدت عن المستوطنات الإسرائيلية فوق الأرض المتنازع عليها ينظر إليها أصلاً من جانب أقلية صغيرة من اليهود بوصفها حقًا من الأرض التوراتية ، على حين رأى معظم الإسرائيليين أن المستوطنات ، لاسيما تلك البعيدة عن القدس ، أوراق يمكن بها المقايضة فى المفاوضات النهائية . الأرض مقابل السلام . ولكن مع تشجيع شارون وغيره ، قويت مزاعم الأقلية الهامشية على مرِّ السنين ، وازدادت «الحقائق» صلابة . ويسكن المستوطنات الآن أكثر من مائتى ألف شخص ، وأعلن شارون فى الأسبوع الفائت فقط أنه لن يوافق على إزالة حتى مستوطنة واحدة منها . إن ما بدأ أساسًا خدعة تهدف إلى الحل قد صار ، تحت حكم شارون ، أكبر عقبة فى سبيل الحل . وما بدأ حركة هامشية فى إسرائيل تحول ، تحت حكم شارون ، إلى المركز السياسى .

وفى الوقت نفسه ، كانت المستعمرات بالنسبة للفلسطينيين ، لا سيما تلك التى شيدت بعد اتفاق أوسلو ، دليلاً على أن إسرائيل لا يمكن الوثوق بها . والمستعمرات التى وضعت بشكل إستراتيجى على قمم التلال ، والمزدهرة بالمقارنة مع المجتمعات الفلسطينية المجاورة ، إنما هى توضيح صارخ لعدم المساواة ، ومن ثم فهى منابع للغضب الفلسطينى . كما أن طرق الوصول للمستوطنات تمثل «حقائق» إضافية تقوض دعاوى الفلسطينيين فى أرضهم . وهذه الشكاوى معروفة تمامًا .

أما ما يلاحظ غالبًا فهو النتيجة الوحيدة الأشد قسوة على دولة إسرائيل والناتجة عن حركة المستوطنات التى يقودها شارون . وإذا كانت هناك كلمة واحدة لتعريف أمل يهود إسرائيل ، فهذه الكلمة هى «الأمن» . كانت المسئولية الأساسية لحكومة إسرائيل ضمان الأمن لمواطنيها ، والقاعدة الأولى فى مهمة الدولة الحديثة هى أن مثل هذا الأمن

يبدأ بحدود وطنية محددة بشكل واضح، ومتفق عليها. وقد حدث فى معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨م، والتى أنهت عقوداً من الحرب الدينية فى قلب أوروبا، أن تم تكريس مبدأ الحدود السياسية المحددة بشكل نهائى مطلق بحسبان أن ذلك هو البناء الأساسى للسلام. وقد أعاد كونجرس ڤيينا سنة ١٨١٥م تأسيس هذا المبدإ، وكذلك فعلت معاهدة ڤرساى سنة ١٩١٩م. فلا سلام دونما حدود واضحة تقرها الدول القائمة على جانبى تلك الحدود.

وفى نموذج يدل على تدمير الذات بشكل مذهل، فإن الحكومات الإسرائيلية قامت مرات ومرات بتعمد إخفاء الحدود الشرقية للدولة وتحريكها بالفعل، وهذا هو ما فعله شارون ومستوطناته من إسرائيل - دولة بلا حدود واضحة، والنتيجة؟ انعدام الأمن بشكل جذرى وبغض النظر عما يفعله الفلسطينيون. وحتى الدول الصديقة، مثل الولايات المحتدة وكندا، تعتمد على حدود واضحة مرسومة ومتفق عليها. والحفاظ على هذه الحدود وحمايتها هى الواجب إذا ما كان الجار عدواً محتملاً.

إلا أنه لا توجد حكومة إسرائيلية يمكن أن تحافظ على الحدود أو تحميها فيما بين الضفة الغربية وإسرائيل، لأن هذه الحدود ببساطة غير موجودة. وهناك نقاط تفتيش عسكرية على امتداد الخط الأخضر الوهمى، وهى حدود سنة ١٩٦٧م، ولكن الخط الحقيقى بين الأراضى الآن وبين إسرائيل غامض ومرتبك بالضرورة لأن عدداً كبيراً من المستوطنات اليهودية مزروعة فى وسط كثير من المدن والمعسكرات الفلسطينية. وكون أن كثيرين من المستوطنين اليهود قد قدروا قيمة هذا الغموض لأنه ساعدهم على الإدعاء بملكية المزيد من الأراضى الفلسطينية يجعل من عهودهم ومواثيقهم أمراً مثيراً للسخرية.

والمستوطنات اليهودية، التى تحيط بها جماهير من السكان المعادين، مكشوفة كليًا ومعرضة لهجمات الفلسطينيين. وبالمثل فإن قوة الدفاع الإسرائيلية غير قادرة على «تأمين» مثل هذه الأراضى التى جرى تحديدها بشكل سيئ، وهو ما يفسر جزئيًا السبب فى أن قوة الدفاع الإسرائيلى، بسبب الإحباط التى يعتريها، تضرب بهذه الطريقة اللاإنسانية فى الأسابيع الأخيرة. وعمليات التوغل الإسرائيلية فى الضفة الغربية صارت غير معقولة وأدت إلى نتائج مضادة لأن وجود مستوطنات إسرائيلية هناك أمر غير

معقول ويجلب نتائج مضادة. وعندما يشكو القادة العسكريون الإسرائيليون من أن المستوطنات لا يمكن الدفاع عنها، على نحو ما شكوا مرة أخرى فى الأسبوع الماضى، فإنهم حقّا يشجبون عدم وجود الحدود التى يمكن الدفاع عنها. وفى القاع، يشتاق المدافعون الإسرائيليون عن مسألة "الفصل" الإشكالية، إلى حدود بسيطة، بيد أنه لا يمكن أن تكون هناك حدود متفق عليها عندما يتم تقطيع خط الحدود بأراضى يدور من حولها النزاع. لقد كانت المستوطنات التى تشوش الحدود أمراً سيئًا بالنسبة للفلسطينيين، ولكنها كانت أسوأ بالنسبة لإسرائيل، لأنها اخترقت الأمن اليهودى.

ومن هو مهندس بيت الورق المتمايل هذا؟ إنه آرييل شارون الذى يزعم أنه المدافع عن إسرائيل. ومع هذا فإنه لو كان عدو إسرائيل اللدود، كيف كان سيمكنه إلحاق الأذى بدولة إسرائيل أكثر من هذا؟

القاتل الانتحارى

٢٥ يونيو سنة ٢٠٠٢م

ذات مرة كان ينظر إلى الانتحارى على أنه فعل شخصى بدرجة كبيرة، وبعد موت كثيرين بحلول منتصف القرن العشرين من الفنانين والكتاب (فيما بين ڤيرچينيا وولف سنة ١٩٤١م، مثلا، وآن سكستون سنة ١٩٧٤م) أصبح محل جدل أدبى وفلسفى. وقد شهدت حرب ڤيتنام الاحتجاج انتحاراً من جانب رهبان بوذيين فى سايجون، ثم من دعاة السلام الأمريكيين (مثل آليس هرتز، ونورمان موريسون، وروچر لاپورت سنة ١٩٦٥م). مثل حالات الانتحار هذه، أيا كان تقدير المرء لها، كانت بيانات سياسية قوية. (كانت تقارير وزير الدفاع الأسبق روبرت ماكنمارا قد اضطربت بشكل خاص بسبب موت موريسون، الذى حدث فى البنتاجون). وفى أثناء تسعينيات القرن العشرين حدث وباء من حالات الانتحار بين المراهقين، وكان أكثرها فى بوسطون، وأخذت على أنها علامة خطر شبابى، وعمل المجتمع الأوسع بجدية على الاستجابة. وهكذا فإن فعل قتل النفس ينتهك على هذا النحو غريزة الحياة بحيث يتطلب الانتباه، سواء كان السياق شخصيّا وخاصّا أو عامّا وسياسيّا، فالانتحار فعل إنسانى واحد لا يمكن تجاهله.

ثم ظهر الانتحار فى السنة الماضية بفعالية جديدة فى شكل قتل جماعى، مع المتعصبين الذين يحولون موتهم إلى أسلحة. وقد شهد التاريخ هذا من قبل، مثلما حدث مع الطيارين الكاميكازى مثلاً، ولكن مع جلب مثل هذه الأفعال من نطاق المعركة الضيق إلى أوضاع الحياة فى المدن، بحيث تستهدف المدنيين بشكل عشوائى، يبدوا هذا الشكل من القاتل الانتحارى جديداً. والآن، فى إسرائيل، فإن الذين يزعمون أنهم شهداء من أجل فلسطين قد حولوا انتفاضة الأقصى إلى حرب كبرى فى الشرق الأوسط بتحويل أجسادهم إلى قنابل. إن الرعب الذى يخيم على القدس وغيرها من المدن الإسرائيلية يستعدعى ماهو أكثر من الاشمئزاز من الجناة وحماتهم المثيرين للسخرية، وماهو الأكثر من التعاطف مع الضحايا. ويتسرب نوع من النشاط الإشعاعى الاجتماعى من مثل هذه التفجيرات الانتحارية، وكلنا نعيش داخل منطقة تلوثها. إن الغبار الساقط عنها روحى.

ومثل أى انتحار، فإن هذه الاعمال تسترعى الانتباه ـ ولكن ليس مجرد الانتباه للدافع أو للظروف التى تنتجها، كما لو أن التعاطف مع مأزق الفلسطينيين يمكن أن ينتج بشكل صحيح عن هذه الأفعال الفظيعة. إذ إن القتلة الإنتحاريين يناقضون كل تطلع فلسطينى مشروع. إنهم أعداء لشعبهم، لأن الفلسطينيين أيضًا، بشر لديهم ما يفقدونه مثل غيرهم إذا وجدت أخلاقيات الانتحاريين بالقنابل مكانًا مشرفًا فى خيال القرن الحادى والعشرين. لقد جلب القتلة الانتحاريون الجنس البشرى إلى عتبة إذا ما عبرناها، فإننا سنفقد كل ما كان له قيمة عند البشر فى الماضى. وهذا ينطبق على الحدود التى تحدد الوطن والعرق والطبقة والثقافة ـ والخط الأخضر، وحدود ما قبل سنة ١٩٦٧م التى تفصل ما بين إسرائيل والضفة الغربية. إن السمة الهشة جدا للحياة الإنسانية على الأرض على المحك(*).

فكر فى نفسك وأنت تقود سيارتك تقطع الطريق السريع بسرعة ستين ميلاً فى الساعة. وأنت محاط بسائقين آخرين، غرباء، وكلهم يفعلون الشىء نفسه. وهناك

(*) مع احترامنا الشديد للمؤلف ورأيه، فنحن نرى أن الظلم الإسرائيلى والأمريكى دفع الفلسطينيين إلى حائط اليأس. ومن ناحية أخرى، فإننا لا نوافق المؤلف بأى حال على الأوصاف التى يسبغها على الأعمال التى يقوم بها الاستشهاديون الفلسطينيون ضد العدوان الصهيونى المستمر بدعم من الولايات المتحدة ـ (المترجم).

شيء واحد يساعد على رقصة الموت هذه في حركة المرور - هي ثقتك في السائقين الآخرين وثقتهم فيك. هذه الرابطة المسكوت عنها تمامًا بين غرباء بعضه عن بعضهم كليًا ثمينة بلا حدود، بيد أننا نأخذها على أنها أمر مسلم به تمامًا. وعلى الطريق، يثق الجميع في الجميع ويعهدون إليهم بحياتهم نفسها. هذه الثقة تقوم على أساس افتراض أن غريزة الحياة كونية، وأنها مطلقة تقريبًا. ولايكاد يكون هناك شيء جدير بانتزاع الحياة - سواء حياة المرء أو حياة أي فرد آخر. ونحن نثق في بعضنا البعض من حيث الإيمان بذلك.

هذه الثقة هي الهدف الحقيقي للانتحاريين بالقنابل، والنشاط الإشعاعي الذي ينتشر، غير مرئي، من تفجيراتهم، يجعلنا مرضى بالفعل. إننا قوم مضطربون بشكل عميق، مع كثير من مصادر القلق أخيرًا - من فضائح الدين(*) والاقتصاد إلى الحنين العام للوطن في العالم الأكثر بساطة وبطأ. بيد أن الانتهاك المشترك لاثنين من المحرمات الأولية - ضد الانتحار والقتل - يقطع نظامنا الاجتماعي بسرعة. وفي سبتمبر الماضي، تم خرق هذا التحفظ بشكل كبير فوق نيويورك وواشنطن، ولكن الانتظام الدنيوي الفظيع الذي تنزل به الآن على إسرائيل قد أخل بتوازن شيء في دوران الأرض: لقد توقفت حركة آلة التوازن.

وا أسفاه، إن فائدة أسلوب الانتحاري في التغلب على من لا حول ولا قوة لهم نسبيًا قد باتت واضحة بشكل صادم. ومن ثم فإن الابتهاج الغريب بين كثيرين من الفلسطينيين إنما هو تحذير في حد ذاته. واحتمال أن الانتحاري سوف يبرز كاستراتيجية في الصراع العالمي، الذي تسوقه جيوشه ممن ضللوا أنفسهم وحماتهم المستهزئون، يحركه بالفعل ليس الخوف من التفجير في مقهى بـ «بوسطون» مثلا، وإنما الخوف الأعمق من أنه لا ينبغي أن نثق بالغرباء على الإطلاق. ونحن نرى ما فعلته المرحلة الأولى من هذا الخوف في مطاراتنا.

وإذا لم يتم دفع القتل الانتحاري بثبات من جانب كل البشر، تخيل ما يمكن أن يفعله بطرقنا السريعة.

(*) ربما يقصد المؤلف الفضائح الجنسية لبعض من قاسوسة الكنيسة الكاثوليكية - المترجم.

(٦)

خـائـف

> في السنوات الست التي قضاها چورچ دبليو بوش حاكمًا على تكساس، أعدم ١٥٢ شخصًا. هذا الاستعداد المسرف لإعدام الكائنات البشرية يذهب به بعيدًا، وربما كان نذيرًا بقسوة قلبه في شن الحرب بصيحة «أحضروهم إلى هنا».

ولكن في الولايات المتحدة، ينتشر التأييد لعقوبة الإعدام، وغالبية المواطنين يؤيدونها في صناديق الانتخاب، ويخسر السياسيون الذين يعارضون القتل تحت إشراف الدولة في الانتخابات. وفي حملة الانتخابات سنة ٢٠٠٤م كان كل متحد رئيس لبوش يؤيد عقوبة الموت ـ بما في ذلك بعض الذين كانوا يعارضونها ذات مرة، ولكنهم الآن حفظوها للجرائم الخسيسة مثل الإرهاب.

ومع هذا فإن عقوبة الإعدام الأمريكية عقبة خطيرة في طريق شن حرب ذات فعالية كاملة ضد الإرهاب. والسبب في هذا أنه في البلاد الصناعية، تُعَدّ عقوبة الإعدام عقوبة بربرية بشكل متزايد. ولا تسمح أي دولة في الاتحاد الأوروبي بها. وهكذا، فإن الحلفاء الذين يؤدي تعاونهم في تعقب الإرهابيين والقبض عليهم دورًا حاسمًا، سوف يتعاونون في فرض القانون الأمريكي إلى نقطة معينة فقط. وقد رفضت ألمانيا تسليم المشتبه بأنهم إرهابيون إلى الولايات المتحدة، وكما أوضح الكاتب سامانثا بورز وغيره، نبهت لندن واشنطن إلى أنه إذا ما قبض الجنود البريطانيون على أسامة بن لادن، فلن يتم تسليمه إلى السلطات الأمريكية دون ضمانات بألا يتم توقيع عقوبة الإعدام عليه.

فلماذا تكاد الولايات المتحدة تقف وحدها في هذه المسألة؟ هل هي مسألة انتقام؟ أم أن هناك شيئًا آخر؟ في الثقافات البدائية، كانت طقوس التضحية بالبشر تهدف إلى تهدئة الآلهة المعادية. فهل التعطش إلى الدماء المتضمن في القتل تحت إشراف الدولة،

والمتجسد بهذا الوضوح فى چورچ بوش، مؤشر على مثل هذا التخويف اللاعقلانى الكامن فى الأعماق؟ إن عقوبة الإعدام، فى حقيقتها، تضحية بالبشر، والتضحية بالبشر ليست سوى الجهد اليائس الذى يبذله قوم مرعوبون لإبعاد تهديد غير متصور. ولكن ما الذى يهددنا بالضبط؟ ما الذى نخاف منه؟

* * *

فى المخبأ

٥ مارس ٢٠٠٢م

كان أبى من كبار موظفى الپنتاجون خلال أزمة الصواريخ الكوبية فى خريف سنة ١٩٦٢م. وكانت أسرتى تعيش فى قاعدة بولنج للقوات الجوية فى واشنطن بشارع يعرف باسم «صف الچنرالات». وكان جيراننا كبار الضباط فى القوات الجوية، وخلال حرارة الأزمة التى نشبت مع السوڤييت لم يكن أبى وزملاؤه يحضرون إلى منازلهم لعدة أيام. وعندما سألت أمى فى وقت لاحق ماذا كان شعورها هى وغيرها من الزوجات إزاء تركهن فى بولنج؟ قالت لى إنهن كانت لهن طريقة لمعرفة ما إذا كان اندلاع الحرب وشيكًا، وأنها لم تكن على وشك الحدوث أبدًا.

وسألتها «كيف عرفت؟». أجابت بأنها هى وغيرها من زوجات الچنرالات قد نظمن أنفسهن فى نوبات. وفى كل ساعة، كانت إحداهن تقود سيارتها إلى الركن البعيد من القاعدة الجوية حيث كان طائرات الهليوكوپتر تتمركز، لكى ترى ما إذا كانت الطائرات الهليوكوپتر ما تزال هناك. وقد عرفت النساء أن هذه الطائرات الهليوكوپتر كانت موضوعة لنقل كبار ضباط الپنتاجون خارج واشنطن إلى مخبأ القيادة الآمن فى جبال بلوريدچ الذى يمكن منها خوض الحرب. وطالما كانت طائرات الهليوكوپتر ما تزال على خط الطيران، كانت الزوجات يعرفن أن أزواجهن ما يزالون فى واشنطن. ولم تغادر طائرات الهليوكوپتر أبدًا. وحكت أمى هذه القصة بنفحة من الفخر، لأن زوجها «چو» كان واحدًا من أولئك الذين أداروا الأزمة بهدوء لدرجة أن المخبأ الحصين تحت الأرض لم يكن ضروريًا أبدًا.

فكرت فى هذه القصة حينما طفت الأخبار على السطح الأسبوع الماضى من «حكومة الظل» فى إدارة بوش - قوة من حوالى مائة موظف كبير كانوا يعيشون فى خنادق فترة الحرب الباردة منذ الحادى عشر من سبتمبر «فريق إدارة الطوارئ القومى». وحسب تعبير «جلين چونسون» الكاتب فى صحيفة Boston Globe: «لقد فعل أسامة بن لادن ما لم يستطع أن يفعله أبدًا «نيكيتا خروتشوف، وماوتسى تونج، وفيديل كاسترو: لقد ساق حكومة الولايات المتحدة إلى تحت الأرض».

ولكى نستعيد تذكر تناول إدارة كنيدى لأزمة الصواريخ الكوبية، لاسيما فى ضوء ما نشر حديثا من السجلات، فإننا نفعل ذلك ليكون لدينا مثال عن التصرف الثابت الحازم. وبالمقارنة مع كنيدى تحت الضغط الرهيب، لا يبدو الرؤساء الآخرون بصورة طيبة، من خضوع «ليندون جونسون» لفكرة استحوذت عليه عند بداية حرب ڤييتنام، إلى «ريتشارد نيكسون» وانهياره العاطفى الشاذ عند نهايتها. (فقد قال لـ «هنرى كيسنجر»، كما عرفنا الأسبوع الماضى، «القنبلة النووية، هل هذا ما يزعجك؟»).

إن حرب چورچ دبليو بوش المسعورة على الإرهاب يمكن أن تبدو على أنها ظهور آخر لعدم الثبات الرئاسى. والواقع، أن ريحا من الذعر من النوع المنحط كانت علامة على استجابة بوش منذ اليوم الذى تم فيه الهجوم على مركز التجارة العالمى وعلى البنتاجون. فمنذ ذلك الحين أدت بلاغة الرئيس الطائشة وصخبه الصبيانى إلى ترويع الحلفاء، وتعبئة أعداء جدد، وحولت وزارة الخارجية بالولايات المتحدة إلى مركز للتحكم فى الدمار. ومكانة نائب الرئيس بحسبانه الرجل المختبئ صارت نكتة قومية. أما وزارة الدفاع فقد بادرت - ثم أسقطت - بإنشاء مركز على الطراز السوڤييتى للتضليل. وفى الوقت نفسه، كان النشر المستمر لقوات الولايات المتحدة - فى الڤيليبين؟ اليمن؟ جمهورية چورچيا التى كانت ضمن جمهوريات الاتحاد السوڤييتى السابق؟ - يبدو خاليًا من الحكمة والتدبر. كما أن الحملة الجوية غير المركزة على أفغانستان كانت «نجاحًا» فقط بسبب خديعة وضع طالبان محل القاعدة بحسبانها عدونا المميت. فماذا عن أسامة بن لادن؟ إن الإدارة تقول الآن إنه لم يكن أبدًا على هذا القدر من الأهمية. أو ربما يكون فى الكهوف التى يجرى اليوم قصفها بحسبانها أهدافًا فى الحرب الجوية المتجددة. شبّك أصابعك و- ماذا؟ - آمل فى أن يموت؟

وفى سياق مثل هذا الاضطراب، فإن الكشف عن موظفى الولايات المتحدة الذين صدرت لهم الأوامر بأن يكونوا فى المخابئ الحصينة ربما تعيد فرض صورة رئيس خائف قليل الخبرة، يمضى اليوم من هذه الأزمة هاربًا. ولكن هل هناك شىء آخر يجرى هنا؟ وإنه لأمر غريب أن كل هذه التجليات التى أشرف عليها بوش لأمة تحت الحصار تدعم حالة الطوارئ التى قيض لهذه الحكومة أن تعتمد عليها فى ممارسة السلطة. وإذا ما كان الموظفون فى المخابئ للمرة الأولى فى تاريخ الأمة، فكيف يجرؤ أحد على أن يثير الأسئلة عن الأساليب السياسية التى ينتهجها أولئك الموظفون؟ ففى الأسبوع الماضى أبدى الديمقراطيون فى الكونجرس أخيرًا عجبهم بصوت عال من الحرب حول الإرهاب. لقد أثاروا أسئلة خجولة مثيرة للشفقة، كان يجب طرحها منذ زمن طويل، ومع هذا فإن الجمهوريين أهدروها على أساس أنها تقدم الراحة لأعدائنا المجهولين. وتراجع الديمقراطيون الذين روعهم التهديد.

ما الذى رأته أمى حينما قادت سيارتها إلى ذلك الركن من قاعدة بولنج الجوية؟ لقد رأت دليلاً على حكومة فهمت العلاقة بين مظهر التقدير الناضج والممارسة الفعلية له. وعندما يتخبط زعماء أمة، ويطلقون العنان لمخاوفهم وانعدام شعورهم بالأمن، ثم يتوارون فى يأس خلف المواقف التى يتخذونها ضد الأشياء السيئة التى يمكن أن تحدث، فإنهم يجعلون هذه الأمور أكثر احتمالاً. وعلى النقيض من ذلك، فإن هؤلاء السيدات اللاتى وقعن تحت اختبار الضغط فى «صف الجنرالات» كانت لديهن أسباب قوية للشعور بالثقة. أما نحن أبناءهن، فليس لدينا ذرة من هذا الشعور لأن طائرات الهليوكوبتر قد أقلعت.

أمريكا الخائفة

٢١ مايو ٢٠٠٢م

كلما صارت الولايات المتحدة أقوى، صرنا أشد خوفًا. فلماذا؟ سرى تيار تحتى من الهيستريا خلال الكلام الصادر عن واشنطن على مدى الأسبوع الماضى، عندما، طالب النقاد، أولا، بأن يعرفوا ما إذا كان موظفو الحكومة قد تجاهلوا التحذيرات المسبقة من الهجمات الإرهابية فى سبتمبر الماضى، وعندما، ثانيًا، أصدر أولئك الموظفون

أنفسهم ـ في الرد على هذا ـ تحذيراً جديداً من هجمات قادمة يمكن أن تكون أشد سوءاً. والتحذير الجديد حادّ بما يكفى لتوليد الخوف ولكنه غامض بالقدر الذى يحول دون أى استعداد دفاعى. ففى المطارات يخضع المواطنون كالقطيع لإجراءات تفتيش تتم بدرجة من عدم الكفاءة، بحيث لا ينتج عنها سوى القلق ـ بحيث تستدعى السؤال: هل هذا هو بيت القصيد؟ وفى الوقت نفسه، تعترف الـ FBI بأنها ليست لديها مفتاح لحل قضية الهجمات بالأنثراكس، ويظل الجنود الأمريكيون فى المطاردة بأفغانستان، ويستعد مخططو الحرب فى البنتاجون للعراق، بل وحتى كوبا يقال إنها تجهز أسلحة بيولوچية. يا إلهى.

إن الحرب على الإرهاب ليست هى التجلى الوحيد للمستويات المرتفعة لخوفنا القومى. ففى هذا الأسبوع سوف يوقع الرئيس چورچ دبليو بوش والرئيس ڤلاديمير بوتين اتفاقية لخفض التسلح ـ معاهدة موسكو ـ تتضمن شرطا أمريكيا يسمح بتخزين غير محدد للأسلحة النووية المفككة. لاحظ هذا. فالولايات المتحدة، التى تنتهك أساس التحكم فى الأسلحة النووية، هى التى تقول الآن إنه يجب الاحتفاظ بالإمدادات القاتلة فى الرءوس الحربية بها لمواجهة التهديدات فى المستقبل ـ التى هى الآن غائبة تمامًا عن التصور. إن هذا علامة على نهاية الأمل، الذى تقاسمه المحافظون والليبراليون زمنًا طويلاً، بأن البشر ربما يخلصون أنفسهم فى النهاية من هذه الأسلحة المرعبة تمامًا. فبعد هذا النزول إلى عبثية «التخفيض» لا يجب أن نسمى هذه الاتفاقية والاتفاقيات التالية START (بداية) وإنما ينبغى أن نسميها STASH (خبيئة). إذ إن بوش فى ضربة واحدة قد عكس المسار الوحيد الأشد إيجابية فى سياستنا الخارجية طوال حياتنا ـ وفعل ذلك بوازع من الخوف.

وهنا تكمن السخرية: إن أضمن الطرق لجعل العالم أشد خطورة مما هو عليه هو أن تضع الخطر بوصفه أهم شىء فيه. إن معاهدة هذا الأسبوع هى أكثر الحالات وضوحًا فى هذه النقطة. ويعنى إصرار أمريكا على حفظ آلاف من الرؤوس الحربية النووية الزائدة، أن روسيا، على الرغم من تفضيلها الثابت للتخلص من هذه الأسلحة، سوف تحتفظ بها كذلك. وما الذى سيحدث على مدى الزمان لهذه الرؤوس الحربية؟ عندما تكون ضرورة الاحتفاظ بمثل هذه المواد بعيداً عن متناول الأيدى المارقة واضحة، يتحرك الأمريكيون بعيداً عن التخلص الكامل من الأسلحة النووية، لاسيما وقد

تضاعفت فى روسيا، على النحو الذى يخلو من أى منطق. بيد أن هذه اللاعقلانية نفسها هى التى تكشف الأمور.

إننا نشبه أمة انتابها شرخ نفسى، تغوص فى مرض البارانويا. ويوضح تدمير البرجين التوءمين أن هناك أموراً يجب أن نخاف منها، ولكن استجابات حكومتنا المجنونة تجعلنا أكثر انكشافًا وتعرضًا لمثل هذه الأمور، ولا أقل من ذلك. لقد أدت الحرب على الإرهاب إلى تقوية أيدى أولئك الذين يكرهون أمريكا. إن المثال الذى تضربه أمريكا عن «القوة الغالبة» قد دفع الشرق الأوسط إلى أتون جهنم كما جر الهند وپاكستان إلى حافة جهنم. إن الحماية الحقيقية الوحيدة ضد الإرهاب العابر للحدود تكمن فى البناءات العالمية للقضاء الجنائى، مثل تأسيس المحكمة الجنائية الدولية حديثًا، إلا أن الولايات المتحدة «التى لم توقع عليها» أسقطت المحكمة من حسبانها بازدراء. ومنذ سبتمبر بددنا ثروتنا وتركيزنا على حرب ضخمة، على حين أهملنا تمامًا عمل الشرطة والمخابرات فى الوطن وفى الخارج. ومن ثم فإن غموض التحذير الجارى يصبح طبيعيّا. وكيف تجرؤ حكومتنا على أن تطلق تحذيرات عن مشروع كوبى للإرهاب البيولوچى، على حين أنها لم تفعل شيئا لضبط قاتل الأنثراكس؟ أوه- وسامحونى، فأنا أسأل فقط - أين أسامة؟

وكان من الممكن أن يبدو تحذير إدارة بوش من اهتمام كاسترو بالإرهاب البيولوچى قد تم توقيته بحيث يجهض الضغوط السياسية الناجمة عن رحلة چيمى كارتر إلى هاڤانا. كما أن تحذير نائب الرئيس ريتشارد تشينى المهيج يوم الأحد عن الهجمات الإرهابية الوشيكة، ربما يبدو توقيته بقصد إبطال الهجوم السياسى الذى شنه الديمقراطيون طوال الأسبوع الماضى بعد أن طال انتظاره. ورفض الرئيس، من حيث المبدأ، «لخفض» الأسلحة يمكن أن يبدو موجهًا لخدمة غرضه السياسى والاقتصادى الأكبر لإعادة الصناعة الحربية الأمريكية إلى مكان الصدارة. ذلك أن الرئيس ومستشاريه المقربين، بعبارة أخرى، يمكن أن يكونوا قد بالغوا فى حجم التهديدات التى تهدد أمننا القومى لخدمة أغراضهم الضيقة.

ولكن ربما يكون الأمر أسوأ من ذلك. إن شكل الرعب الذى انتابهم مفيد لهم بهذه الطرق، ولكن أيضًا، مثل الذين يعانون من الاضطراب العقلى، فإنهم يبدون مقتنعين

بأن أى خطر يتخيلونه هو خطر حقيقى. إن أمتنا يقودها رجال ونساء واقعون تحت رحمة مخاوفهم. وكونهم يبذلون جهدهم لجعل الشعب الأمريكى خائفًا ربما يبدو موحيًا بأنهم لا يريدون سوى تبديد أى إعادة نظر فى المسار الذى اتخذوه، ولكن الحقيقة أن خوفنا يعزز خوفهم. لقد صار الخوف هو استجابة واشنطن المطلقة كما أنه يشكل استجابتها ذاتها تجاه المستقبل. إن أمريكا يقودها جبناء.

الفناء الأمريكى

٢ يوليو ٢٠٠٢م

نحن نحتفل بالبدايات، سواء بدايات الأفراد أم بدايات الأمم، بوصف ذلك وسيلة لتكريم مكاننا فى الزمان. والمراسم المبهجة للرابع من يوليو، والتى لا يتم الاحتفال بها بسعادة فى أى مكان أكثر مما يحدث فى بوسطن، تذكرنا باليوم الذى خرج فيه وطننا إلى الوجود. ونحن نحتفل هذا الأسبوع بإقامة مآدب من طعام الصيف، ونستمع إلى الموسيقى الوطنية، ونطلق الألعاب النارية، وربما نرتوى للحظة من العاطفة السامية بحب هذه البلاد.

ولكن أن نعترف بأن الولايات المتحدة الأمريكية لها بداية، وأنها بذلك مربوطة بقواعد الزمن، يتضمن أن نتذكر أن هذه الأمة سوف تكون لها نهاية أيضا. وما يتم الاحتفال به فى الرابع من يوليو فى الجوهر، هو قبول أمريكا للفناء. ومثل كل احتفال عيد ميلاد، فإنه يقاوم الإغراء الإنسانى بتخيل المرء أنه سيحيا إلى الأبد. لقد كان هناك زمن مضى لم نكن موجودين فيه، وهناك زمن مستقبل لن نكون فيه موجودين أيضا. وكل شىء تنجزه أمريكا وله أهمية يجب قياسه، أخيراً، فى ضوء هذا الزوال السريع الجذرى الذى يحدث كل شىء فى إطاره.

ما الذى يمكن أن يكون أكثر وضوحًا من ذلك؟ هذا هو السؤال الذى يراودك. ومع هذا، فإن حقيقة فنائنا كأمة تراوغنا باستمرار. إن الموت النهائى للولايات المتحدة الأمريكية أمر مقلق بشكل عميق. حتى من حيث كونه مجرد فكرة. وربما يصدق هذا على وطننا أكثر من غيره، لأننا نعرف أنفسنا فى ضوء المستقبل أكثر من الماضى. وعظمة بريطانيا، مثلا، أو اليونان، مرتبطة بما كانت عليه، وهذا هو السبب فى أن

المهاجرين إلى تلك البلاد، ولا يشاركون فى ماضيها، يعتادون الهوية الوطنية بصعوبة. أما العظمة الأمريكية فهى دائمًا مرتبطة بما يصير عليه الوطن، وهذا هو السبب فى أن المهاجرين هنا يشعرون باستعدادهم للشعور بالالتزام بخلق هذه العظمة. إن المستقبل الأمريكى ينتمى إلى الجميع بقدر متساو.

ولكن ماذا لو أن المستقبل محدود؟ وهى طريقة أخرى للسؤال عن الموت. لقد اقترح أبراهام لنكولن فى جيتيسبرج أن موتانا المبجلين لم يموتوا «عبثا» إذا ما تم فى المستقبل «إنجاز المهمة العظيمة التى تنتظرنا». وهكذا نطق لنكولن بغرض أمريكى أساسى: أن التجربة الحالية مسوغة فقط بحصادها فى المستقبل. ولكن إذا ما حدث أن الاتحاد [يقصد اتحاد الولايات الأمريكية، أى الولايات المتحدة] «اختفى من العالم» فهل سيكون كل الذين ماتوا من أجله فى الماضى قد ماتوا «بلا طائل»؟ ففى عالم يبقى مرتبطا بقواعد الزمن والفناء، لايهم كيف نتغطى بالحماسة الوطنية، هل تكون الفكرة الأمريكية المميزة عن «انعدام الحدود أمام الأمريكيين» تهزم ذاتها بشكل حتمى؟ وإذا كانت الولايات المتحدة قد عرفت المستقبل بأنه المطلق الوحيد لديها، فما الذى يحدث عندما يكشف المستقبل، أيضا، عن أنه نسبى؟ هذه الأيديولوچية المتطلعة إلى الأمام كانت هى آلة كل من الصناعة والعدالة الاجتماعية، ولكن هل هى بالرغم من هذا مبنية على التناقضات؟ ولماذا لا يجب أن يبحث الأمريكيون عن سبل لتحاشى ألم مثل هذه الأسئلة؟

الرب المشترك. هذا هو السياق الذى يمكن فيه فهم استخدام ديانتنا المدنية حيث وضعناها. وعندما نزعم أننا أمة «تحت الرب» ـ وكان لنكولن هو أول من استخدم هذه العبارة فى جيتيسبرج ـ أو حينما نصلى ببهجة «ليبارك الرب أمريكا»، على افتراض أن بركة الرب لهذه البلاد فريدة فى بابها، فإننا ننسب لأنفسنا خصائص مقدسة من الخلود واللاتناهى، وهى فى الحقيقة لا وجود لها على الأرض. ولاحظ، نحن نفعل هذا عندما يكون مستقبلنا عرضة للخطر (١٨٦٣، ١٩٥٤، ٢٠٠١). إنه تغير الإيمان الأمريكى فى حُفر الخنادق. ولا ينبغى أن ندهش لأننا فى الفترة الراهنة التى تتسم بالقلق الوطنى الحاد، استأنفنا اعتمادنا المؤكد على الكلام عن الرب، ولا غرابة فى أن محكمة تجرأت على السؤال عن هذا، كان لابد من قمعها بكفاءة فى الأسبوع الماضى. إننا نحن الأمريكيين نشعر بأننا مكشوفون بما يكفى إذا لم نستسلم للإحساس بالحماية الفائقة التى نستمدها من التعبير العام عن شعورنا بالارتباط مع الرب.

وهكذا، هناك المزيد على المحك فى توسلاتنا إلى «الرب» ، بأكثر مما هى موجودة فى أسئلتنا الدستورية حول الكنيسة والدولة. لكل أمة طريقة فى التوسل إلى الالهة، وكل جيش يذهب إلى المعركة تحت حماية إله ما. ولا جديد فى هذا. ولكن التوسل الأمريكى مختلف بسبب الوظيفة التى يقوم بها «الرب» كحل للمشكلة الأمريكية. فنحن نفضل أن نفكر فى أنفسنا على أننا «الأمة التى لاغنى عنها»، على أمل أن نؤجل حساب حقيقة مضادة لأطول ما يمكن. «الرب» هو وسيلة التأجيل لدينا.

وعلى هذه الأرض، وفى حدود الزمن، ليست هناك أمة لا يمكن الاستغناء عنها. وليست هناك أمة تدوم إلى الأبد. وعندما يتعلق الأمر بالحالة الإنسانية، ليست هناك أمة استثنائية. ومن ثم، فإن الفرح الذى نحتفل به ببداية أمتنا، يجب أيضا أن يُعلمنا بأن نهاية أمتنا الأخيرة تشير إلى أننا جزء من الأسرة الإنسانية، التى تبقى هى مجدنا الحقيقى.

الحرب القادمة فى العراق

٢٣ يوليو ٢٠٠٢م

إننا نحن الأمريكيين نجد أنفسنا فى الوضع الخارق للعادة ونحن نشهد حكومتنا تتحرك ببطء ولكن بالتأكيد صوب حرب كبرى فى العراق. مثل هذه المناورة المكشوفة، مع بيانات واضحة من إدارة بوش، وتسرب خطط الحرب من البنتاجون، وإذعان الكونجرس، لم يكن ممكنًا أن تحدث عندما كانت قوة الولايات المتحدة، تقابلها، ومن ثم تكبح جماحها، قوة الاتحاد السوفييتى، ولا حينما كانت هذه القوة محكومة بمراعاة واشنطن للرأى العالمى - والآن فإن الضابط الوحيد المتصور على القوة العظمى الوحيدة يتمثل فى إرادة شعبها، والتى تتجلى من خلال التحركات السياسية، وهذا هو السبب فى أنه يجب علينا أن نعالج الموضوع بأنفسنا حالاً.

ويمكن الموافقة على أن صدام حسين خطر على جيرانه، وعدو لشعبه، وتهديد للسلام العالمى. ولكن فى هذه الصفحة يوم السبت الماضى، عبر رئيس فريق الأمم المتحدة للتفتيش عن الأسلحة فى العراق «سكوت ريتر» عن شكوكه العميقة حول مزاعم بوش بأن صدام حسين يهدد الولايات المتحدة على هذا النحو بأسلحة الدمار

الشامل بحيث تكون الحرب مبررة. واقترح «ريتر» جلسة استماع فى الكونجرس لكى «تسأل إدارة بوش أسئلة صعبة» حول أغراضها. وهذه هى بعض الأسئلة التى تخطر على بالى:

* إذا كنا قد عشنا مع صدام حسين بوصفه كعدو مميت على مدى أكثر من عشر سنوات، هل الضرورة لاستبداله الآن تبحث من أدلة حقيقية [على خطره]، أم من عقلية «نحن ضدهم» التى تدفع الحرب ضد الإرهاب؟ هل سبب الحرب شىء يفعله صدام، أم أن هذا السبب شىء نتخيله؟

* هل النزعة إلى الحرب لدى إدارة بوش تستبعد أى بدائل أخرى للحرب؟ مثلا سياسة «الاحتواء والتعويق» التى جاءت بنتيجة ناجحة ضد الاتحاد السوفييتى وكانت ناجحة حتى الآن ضد صدام حسين، وتعتمد على التعاون متعدد الأطراف مع الدول الأخرى. ولكن حديث الحرب لدى بوش المتباهى، حتى وإن قصر عن الغزو الحقيقى، يدمر مثل هذا التعاون.

* عندما يتحول هدف أمريكا من تعديل سلوك صدام حسين إلى الهدف الصريح لتغيير النظام، فما الذى سيخسره صدام حسين؟ وعندما يعرف صدام أن قوة غزو أمريكية قادمة بالتأكيد، ألن يكون عليه «أن يستخدم أسلحته أو يخسر الحرب»؟ وأيا كانت هذه ألا تجبره واشنطن على الرد بأسوإ ما لديه؟

* ما التأثير الذى سوف تحدثه حرب أمريكية كبرى ضد العراق على صراع الحدود بين الإسلام والغرب؟ إذا كانت القاعدة قد برزت من ثنايا الإذلال الذى ارتبط بحرب الخليج فما الذى سيبرز من خلال الإذلال الجديد من حرب أمريكية شاملة على العراق، بما يتطلبه ذلك بالضرورة من احتلال أمريكى طويل المدى؟

* ما العلاقة بين المشروع الأمريكى الملح فى العراق ونقص الاهتمام الأمريكى بالأزمة الإسرائيلية الفلسطينية المتفاقمة؟ هل يستخدم بوش مشكلة العراق عذراً لتجنب التصارع فى المشكلة الفلسطينية؟ كيف يكون من مصلحة إسرائيل دعوة صدام حسين إلى إطلاق صواريخه من طراز سكود مرة أخرى؟ وما الأمل فى تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة والعرب طالما بقى الفلسطينيون على بؤسهم؟

* ما معنى القول عن الولايات المتحدة بأننا على وشك أن نصبح دولة «الضربة الأولى»؟ وبالتخلى عن التعددية، هل تخلينا عن الدبلوماسية أيضا؟ هل لم تعد الحرب الملاذ الأخير، بوصفها دفاعًا عن النفس، ولكنها صارت منهجًا روتينيا لشق طريقنا، طالما أن أحدًا لا يمكن أن يوقفنا؟ هل جاء علينا الوقت لمناقضة ميثاق الأمن العالمى سنة ١٩٤٧م، والعودة إلى تسمية وزارة الدفاع وزارة الحرب؟

* هل الحرب ضد العراق، بما تحمله من مخاطر إشعال «صدام الحضارات» وإضعافها المحتمل للروابط بين الولايات المتحدة وحلفائنا، تجعل وطننا معرضًا لهجمات إرهابية؟ إذا كان الطريق الحقيقى الوحيد لتعقب القاعدة ومنع الهجمات فى المستقبل يتأتى من خلال التعددية التى سوف تضعفها حرب بوش، أليس هو بوش الذى ينفذ النص الذى كتبه أسامة بن لادن؟

* ما الذى يخبرنا مشهد مطول من صناعة الحرب؟ تذكروا أن صدام حسين كان قد بدأ عميلاً أمريكيا (مثلما كان أسامة بن لادن) عندما كنا نخوض حروبًا أخرى، أليس هو دليلاً على بطلان الأسطورة القائلة بأن الحرب تحل مشكلات أكثر من التى تسببها؟ وإذا ما وصلنا إلى هذا الاستنتاج، ألا تظهر أساليب أخرى إجبارية لمقاومة طغيان صدام حسين؟ وعلى المدى الطويل، من الذى يقول إنها لن تكون أشد فعالية؟

إن الفرق الواضح بين العراق وأمريكا هو أن هذه الأمة ديمقراطية. وهذا يعنى أننا مواطنى الولايات المتحدة مسئولون عن سلوك چورچ دبليو بوش بطرق غير متاحة لمواطنى العراق ليكونوا مسئولين عن صدام حسين. وهناك سبب قوى للاعتقاد بأن بوش، فى حملته الشخصية واللاعقلانية والشاملة والمانوية جدًا ضد صدام حسين، قد وضع العالم على مسار الكارثة. ولا أحد يمكنه تغيير هذا المسار سوانا.

أكاذيب، أكاذيب ملعونة

٣٠ يوليو ٢٠٠٢م

قال ڤاكلاف هاڤل فى خطبته الافتتاحية بوصفه رئيسًا للتشيك: «رفاقى المواطنين الأعزاء، على مدى أربعين سنة إلى هذا اليوم سمعت من أسلافى الشى نفسه بتنويعات متعددة: كيف أن بلادنا تزدهر، كم مليون طن من الصلب أنتجناها، كيف أننا سعداء

جميعًا، وكيف نثق فى حكومتنا، وما الاحتمالات التى تنتظرنا. ولست أفترض أنكم اخترتمونى لهذا المنصب لكى أكذب أنا أيضا عليكم».

كان هذا سنة ١٩٩٠م. ويبدو ذلك زمنًا عتيقًا، عندما كان الكذب العام يعرف بأنه أحد الفروق الأساسية بين الإمبراطورية السوفيتية وأمريكا. ويتكشف الكذب العام الآن على أنه مرض مستوطن فيما آلت إليه الرأسمالية فى الولايات المتحدة. تلخيص هائل للخدع الستالينية يبدو مثل تقرير قياسى للـCEO لحملة الأسهم. هذا الاكتشاف لعدم الأمانة الأساسية فى قلب «مؤسسة حرة» يمكن أن يصدمنا فى مستوى النضج الأخلاقى.

إن أسوأ تأثيرات الحرب الباردة على العقل الأمريكى كان هو التفكير ثنائى القطبين الذى شجعت عليه. لقد سمحنا لأنفسنا بأن نعتقد أن العالم يمكن تقسيمه بين ما هو فاضل جوهريًا وما هو شرير فى جذوره. وعملنا على مدى جيل على افتراض أن البشر وراء الستار الحديدى كانوا فى قبضة الشيطان، بينما نحن فى الغرب قد عهد إلينا «هنا على الأرض» - حسب تعبير چون كنيدى فى خطابه الافتتاحى - بتنفيذ أعمال الرب. وهكذا، عرّفنا الكرملين ومقاصده على أنها مقاصد توسعية إمبريالية، بينما كان هدفنا العالمى هو الوصول إلى الأسواق الحرة فقط. وكون أننا أنفقنا موارد خزانتنا وأفضل جهودنا الفكرية استعدادًا لتفجير العالم، يبدو فى الكيمياء الأخلاقية للردع، عملاً من أعمال الفضيلة السامية. ولا نثق فى التوقيعات السوفيتية على المعاهدات. ولا نتصور حسن النية الدنيوى لدى الشعب الروسى، ولهذا كنا متأكدين من أن العدو الشمولى يمكن تركيعه فقط بالعنف العالمى القادم. إن التفكير الأخلاقى التبسيطى ينذر دائمًا بنهاية العالم.

لقد عرفنا، فى الوقت نفسه، أننا وزعماءنا، كنا قادرين على الكذب، ولكن فى الرواية الأمريكية، كان الخداع العام، مثل ووتر جيت يعد استثناء يؤكد قاعدة البراءة الأمريكية. ذلك أن چيمى كارتر، فى حملته الانتخابية تحت شعار «لن أكذب عليكم أبدًا»، أوضح أن هذا ما ننتظره من الرؤساء - ومن أى فرد من السلطة. وهل كانت الأمة التى مسحت نفسها بنفسها(*) على حقيقتها أكثر من لحظة إحساسها بالتفوق الأخلاقى الكبير على بيل كلينتون الذى لحقه العار؟

(*) كما يتم مسح الأنبياء فى الكتاب المقدس.

ولكن الفشل الأخلاقى الأساسى للعاملين فى CEO ـ ورؤساء الولايات المتحدة ـ لا يدخل فى مكونات الفساد الواعى المتمثل فى التفكير فى شىء، بينما تقول شيئا آخر. إن الفوضى أعمق من ذلك، ذلك أن الأكثر احتمالاً أن مثل هؤلاء القادة مقتنعون بالمبررات الزائفة التى يقدمونها. وكون المبررات تخدم نفسها بشكل شامل، بطبيعة الحال، هو جزء من السبب فى أن القادة مقتنعون. وعندما حنث چورچ دبليو بوش حديثا بالوعد الذى قطعته أمريكا بمعاهدة ABM، لم يجعلنا أمة من الكذابين، كما قال لنا، وإنما من الواقعيين. تحققت أچندته.

إن النموذج واسع. فالتنفيذيون الذين لا يريدون سوى وضع الأرقام «فى ضوء أفضل» ينتهون بطبخ الدفاتر. والسياسيون الذين يهدفون دونما أذى إلى إخبار الناخبين ما يريدون أن يسمعوه ليس لديهم أى إدراك بما هو حقيقى. والزعماء الدينيون الذين يحافظون على مظهر الفضيلة بوصفها قيمة مطلقة، يفقدون القدرة على معرفة قابليتهم للخطإ. ولكن فى كل هذا، يتصرف مثل هؤلاء الأشخاص فقط بوصفهم أفراداً من الجنس البشرى، لأن الاتجاه نحو خداع الذات أمر عام.

وهكذا، فإن الأزواج والزوجات يمكنهم أن يمضوا أعوامًا دون أن يدركوا أنه ليست هناك ألفة. كما أن أصحاب الوزن الزائد يمكن أن يخدعوا أنفسهم حول مشكلتهم الصحية. ومن يشربون الخمر يمكنهم أن ينكروا ما صارت إليه حياتهم. والعمال المجبرون يمكنهم أن يجعلوا أنفسهم عبيداً لحلم زائف بالنجاح. والإحباط الذى يغرق الحياة يمكن أن يمرَّ بوصفه قلقًا غير ذاتى. ويمكن للطمع أن يبدو كما لو كان طموحًا. إن السعى وراء السعادة يقتلنا. إن أكثر الأكاذيب دماراً هى تلك التى نقولها لأنفسنا.

واليقظة القاسية على امتداد الوطن اليوم تثير غضبًا مفهومًا على الزعماء المخادعين، بيد أن ذلك لا يجب أن يكون ردنا الوحيد. ففى أثناء الحرب الباردة أعفينا أنفسنا من ذلك النوع من التدقيق الأخلاقى الذى كان يمكن أن يمنع انتشار هذه السحابة المسمومة. إن أكاذيب العمل (ماديسون آڤينيو) والحكومة (فجوة الصواريخ) والثقافة (شباب دائم) والدين (الرب يبارك أمريكا) قد بنيت داخل نظامنا، ولكننا لم نستطع أن

نرى أنها أكاذيب بسبب الانشطار الحاصل فى تفكيرنا . وفى هذا الوقت من الحساب الأخلاقى ، هل سنقوم مرة أخرى بتقسيم العالم بشكل فج بين الخير والشر؟

نعم، يمكن أن نصر على التطهر من الأكاذيب العامة ـ أى على إصلاح حقيقى . ولكن نحن نكرر التخبط على مستوى كبير إذا ما استنتجنا أن مشكلة خداع النفس تتعلق بأحد سوانا . لقد عمل هاڤل على أن يخبر مواطنيه «عندما أتحدث عن الجو الأخلاقى الملوث ، فإننى أعنينا جميعا» .

غلطة، وجريمة

٦ أغسطس ٢٠٠٢م

اعترف ألبرت أينشتين بقوله : «لقد ارتكبت غلطة عظيمة واحدة فى حياتى ، عندما وقعت خطابًا للرئيس روزفلت أوصى بصناعة القنبلة الذرية» . وتم إحضار الخطاب للرئيس فى خريف سنة ١٩٣٩م، فى غضون أسابيع من بداية الحرب فى أوروپا . كان أينشتين وغيره من العلماء قلقين من أن هتلر قد شرع فى مشروع قنبلة ذرية ، وهذا هو السبب حسبما يستمر تعليق أينشتين : «ولكن كان هناك مبرر ما ـ الخطر الذى سوف يلحقه الألمان بهم» (مصدرى فى هذا الاقتباس ، والذى ألهمنى هذا العمود هو كتاب مارتن ج ـ شيروين الفائق الأهمية بعنوان A world Destroyed) .

وإذ حركتهم دفعة ملحة إلى الحصول على السلاح الذرى قبل هتلر ، تجمع فريق من ألمع علماء الطبيعة من أجل العمل . وكانت أول سلسلة من ردود الفعل تغذى نفسها بنفسها قد تكونت فى جامعة شيكاجو فى ديسمبر سنة ١٩٤٢م . ولكن حينئذ حدث شيء غريب غير معروف للعلماء . فلم يعد كسب السباق ضد النازى هو الاهتمام الأعلى . فعندها رأى رؤساء السياسة فى مشروع مانهاتن الامتلاك الحصرى للقنبلة بوصفه مصدراً لضبط سياسى غير مسبوق على الاتحاد السوڤييتى بعد الحرب . لقد كان للقنبلة غرض جديد ، وإن لم يتم الاعتراف به بعد .

وفى نوڤمبر سنة ١٩٤٤م ، اكتشفت الولايات المتحدة أن برنامج ألمانيا الذرى كان ما يزال فى طوره الجنينى ، ولم يكن هناك تهديد حقيقى من قنبلة نازية . ويقترح شيروين

أن هذه المعلومة الاستخبارية الحاسمة ربما تكون قد حجبت عن العلماء الذين كانوا يعملون على إنتاج القنبلة «لكى لا يهدئ حماستهم». وبهذا التحول فى الحرب لم يعد هناك أى خطر حقيقى من هزيمة للحلفاء، إلا أن مشروع مانهاتن مضى بإلحاح أكبر من ذى قبل، وكان رؤساء السياسة ينظرون إلى المنافسة بعد الحرب مع الاتحاد السوفييتى بنفس نظرتهم إلى نهاية مباراتهم مع ألمانيا واليابان، مما أعطاهم دافعًا جديدًا تمامًا لاستخدام القنبلة بأسرع ما يمكن.

واليوم هو الذكرى السنوية لإسقاط القنبلة الذرية الأمريكية على هيروشيما. إن الجدل الذى لم يتم حول ما إذا كان الهجوم، والقصف الذى أعقبه لنجازاكى، برره دائمًا التركيز على مسألة الحرب مع اليابان بطريقة ضيقة. ألم تنقذ القنبلة الذرية، حقًا، حياة الجنود الذين كانوا ينزلون على شواطىء دولة الجزر التى يتسم الموت فيها بالصعوبة؟ ترى ماذا كان بوسع ترومان أن يفعل غير هذا؟ هذه الأسئلة أحرجت الضمير الأمريكى مما يجعل من المستحيل الحساب الجدى لهذا العبور للعتبة النووية، وهو ما يؤدى بدوره إلى كبت حسابنا الأخلاقى مع ترسانتنا النووية الحالية.

ولكن ماذا إذا كان غزو اليابان، ويظل، كذبة مثل أسماك الرنجة الحمراء؟ ماذا لو أن التهديد اليابانى لم يكن، مثل التهديد، النازى الذى سقط على جانب الطريق، لم يكن هو الموضوع الحقيقى حينذاك أيضا؟ ماذا لو أنه بحلول صيف سنة ١٩٤٥م، لم يكن الغرض البارز المهيمن هو إنهاء الصراع ضد اليابان وإنما كان هو التحكم فى شكل الصراع المتوقع مع الاتحاد السوفييتى؟ ماذا لو لم يكن الإمبراطور هيروهيتو هو الذى كنا نحاول إرهابه ولكن چوزيف ستالين؟ ألم تكن طلقة أخيرة ضد قوى المحور ولكنها طلقة أولى ضد الكرملين؟

فى الحرب والسياسة لا توجد أبدًا إجابات من عنصر واحد عن أسئلة مركبة. فى الحقيقة، كانت القنبلة الذرية طلقة أخيرة وطلقة أولى معًا. وهدف تساؤلى ببساطة أن أقترح أننا، كشعب يصرُّ على حكاية تكون فيها هيروشيما على نهاية صراع بدلاً من بداية صراع، قد أعطينا أنفسنا الحق فى تجاوز سؤال أكثر إزعاجًا. إذا استخدمنا السلاح النووى لإرسال إشارة إلى الاتحاد السوفييتى ولإنهاء الحرب العالمية الثانية أيضا، فإن كل الشر الذى سيخرج من ذلك الاستخدام ـ ليس فقط سباق التسلح ولكن الفكرة

الجديدة الشيطانية بأن القوة الوطنية يمكن أن تعتمد بشكل صحيح على التهديد بالدمار الشامل - ينتمى إلينا. وإذا كان صدام حسين يريد أسلحة الدمار الشامل من أجل القوة الدبلوماسية الإستراتيجية فإنهم سوف يعطونها له، إنه يلعب وفق قواعد كتبت فى واشنطن. هناك طريقان لاستخدام السلاح النووى: بوصفه مصدرا لدمار العالم وبوصفه مصدراً لقوة العالم. وقد استخدمنا الطريق الأول عند نهاية الحرب العالمية الثانية، والتى كانت هى بالضبط بداية الحرب الباردة. وظللنا نعمل فى الطريق الثانى يومياً منذ ذلك الحين. ولماذا لا ينبغى لصدام حسين أن يرغب فى تقليدينا؟

الانهيار الكاثوليكى وسياسة الولايات المتحدة الخارجية

١٣ أغسطس ٢٠٠٢م.

القساوسة يسيئون للأطفال. . والأساقفة يحمون المفسدين بدلاً من الضحايا. والفساد مكشوف. ما التأثير الذى يتركه انهيار السلطة الأخلاقية للكاثوليكية الأمريكية على السياسة الخارجية للولايات المتحدة؟ إن البعض سوف يستبعد هذا السؤال بوصفه سؤالا لكاثوليكى متطرف يرى كل شىء من خلال العدسات الضيقة لمشكلة كنسية أبرشية. وفى الحقيقة، فإن انشغال وسائل الإعلام بالفضيحة الكاثوليكية يمكن أن يبدو صرفًا للانتباه عن المشكلة الأخطر التى يسببها جورج دبليو بوش بإثارة الحرب. ولكن الحقيقة أن الموضوعين متصلان. إذ إن المجابهة بين الكاثوليكية الأمريكية وشخصيتها المتصدعة يمكن أن تؤدى إلى تلطيف الاستقامة الذاتية الأمريكية، لصالح العالم.

لقد كان الاستبداد الأخلاقى لدى الكاثوليك الرومان أحد أعمدة السياسة الخارجية للولايات المتحدة منذ بداية الحرب الباردة. والواقع أن الكاثوليكية ارتبطت بالاتفاق الأمريكى فقط عندما تبلور ذلك الاتفاق حول نزعة معاداة الشيوعية التى لها - حسبما حذر رجل الدولة برنارد باروش سنة ١٩٤٧م - نكهة «حرب دينية». ولا شىء خطأ فى ذلك حسبما كان يمكن للرئيس هارى ترومان أن يقول. لقد كانت سياسته الخارجية تهدف إلى تجسيد شىء لا يقل عن «الموعظة على الجبل» على حد قوله. إن السمة الدينية للحملة الصليبية الجديدة التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية هى التى حفزت

ترومان على أن يصدر دعوته الحربية ضد السوفييت فى حفل العشاء السنوى الذى أقامه الكاردينال فرنسيس سپيلمان فى يوم سان پاتريك عام ١٩٤٨م.

لقد صار سپيلمان بطل النزعة الأمريكية لمعاداة الشيوعية. وبدا وكأن كل كاثوليكى قد تم تجنيده. ومن هنا ظهر فولتون ج. شين المشهور فى وسائل الإعلام، ومن هنا ظهر السيناتور چوزيف مكارثى باعتباره مدافعًا عن النقاء الأيديولوچى. هذه السياسات ذات المظهر الدينى هى التى أضفت مسحة مقدسة على استراتيچية الولايات المتحدة وجعلت سپيلمان أكثر الأساقفة الكاثوليك تأثيرًا فى التاريخ الأمريكى. ثم ساعد على تشكيل أبعاد أزمة ما بعد الاستعمار فى ڤييتنام بتمركزها حول معاداة الكاثوليكية للشيوعية، كما ساعد ربيبه «نجو دينه دييم» لكى يصير رئيس الوزراء سنة ١٩٥٤م. وكان جنوب ڤييتنام بوذيًا فى غالبه، ولكن كان الأمريكيون يرون فيه بلدا كاثوليكيا فى الأساس، وينظرون إلى الكاثوليك على أنهم يحاربون فى سبيل كل ما هوطيب، كما يرون فى البوذيين المحتجين اناسًا يرتبطون بالشيوعيين الأشرار القادمين من الشمال. والواقع أن «دييم» كان يشن حربًا دينية ضد شعبه هو، ولكن النظرة الأخلاقية العالمية حالت دون ظهور هذه الحقيقة المأساوية. هذه الغلطة هى التى بدأت بها المغامرة الأمريكية الطائشة فى ڤييتنام (وعندما اغتيل دييم سنة ١٩٦٣ كان يرتدى مسوح القساوسة).

وقد خفف البابا يوحنا الثالث والعشرون من استبداد نزعة معاداة الشيوعية لدى الكاثوليك، عندما تساءل عن اعتماد أمريكا على الرادع النووى ورعى انفراج العلاقات بين الولايات المتحدة والسوفييت. وهناك حركة سلام كاثوليكية ساعدت على إنهاء الحرب فى ڤييتنام، كما برزت إلى الوجود دائرة عريضة من الأنصار الكاثوليك، بل إن الأساقفة فى هذه الدائرة انضموا إلى الذين يشكون فى الأسلحة النووية. بيد أن النزعة الأخلاقية الكاثوليكية العمياء عادت إلى الظهور بشكل علنى عندما تناغمت رؤية البابا يوحنا بولس الثانى الرؤيوية(*) للشيوعية مع رؤية رونالد ريجان. كما أن أموال إدارة المخابرات المركزية كانت تذهب إلى الجناح اليمينى فى الكونترا بنيكاراجوا عبر قنوات الكنيسة الكاثوليكية، مثلاً عندما قاطع الڤاتيكان

(*) يقصد ما جاء فى سفر رؤيا يوحنا، آخر أسفار العهد الجديد والكتاب المقدس ـ المترجم.

الكاثوليك المتحالفين مع حركة تحرير أمريكا اللاتينية، فقد صدرت الأوامر إلى قساوسة الولايات المتحدة وإلى راهباتها بأن يبقوا بعيداً عن التحركات السياسية للجناح اليسارى، واستأنف الأساقفة الكاثوليك وظيفتهم بحسبانهم تعويذة الحظ للاتفاق الأمريكى. كان الأمريكيون متجذرين بثبات مرة أخرى فى الإحساس بطهارة وطنهم لدرجة أنه حتى الأساقفة لم يظهر أنهم انتبهوا عندما بدأ البابا يوحنا بولس الثانى يعترض على حروب واشنطن. لقد كانت الأمة التى لا يمكن الاستغناء عنها محصنة ضد النقد من الخارج، وغير قادرة على ممارسة النقد الذاتى.

ومع بركات الكنيسة الكاثوليكية، فإن كلمة «الشر»، التى تصدق على الأعداء، قد صارت مفتاح الخطابة الأمريكية منذ خمسين سنة مضت. وقد أعاد چورچ دبليو بوش تنشيط هذا التراث، على محور جديد. كان رفيق بوش الروحى فى هذا كله كاردينال بوسطون المدعو برنارد لو، الذى سعى بوش إلى الحصول على موافقته الخاصة خلال حملته الانتخابية سنة ٢٠٠٠. ورؤية الكاردينال العالمية للخير والشر داخل الصراع المعرفى المطلق تعكس رؤية بوش، وكل من الرجلين واثق من تحالفه مع الخير.

لا مزيد. فالخزى الذى لحق بالكاردينال لو بوصفه حامياً للعابثين الجنسيين خزى تام. وانظر كيف يحافظ بوش على المسافة التى تبعده عن الرجال الذين يرتدون الرداء الأحمر الآن. لقد أدت فضيحة الإساءة الجنسية من جانب القساوسة للأطفال والتغطية عليها إلى الحط من زعم الكنيسة بأنها قدوة أخلاقية. أما وظيفتها بوصفها أحد أعمدة الاستثنائية الأمريكية فقد انتهت. وبوصفهم رعاة قانونيين لقضية الاستقامة، فإن فائدة الأساقفة الكاثوليك الأمريكيين فى هذا تماثل فائدة موظفى إينرون. ومع ذلك فإن فضيحة الكنيسة تستمر. والقساوسة الكاثوليك الذين مازالوا يتحدثون عن الشرعية، ويهددون القساوسة المعارضين، ويرفضون الهبات المالية البديلة، ويمنعون العلمانيين المهتمين من التجمع فى قاعات الكنيسة، لا يفعلون شيئا سوى إظهار خيبتهم الأخلاقية الشاملة. إن انهيار هذه المؤسسة الكنسية المولعة بنفسها مطهر كاثوليكى(*) بالمعنى الحرفى، ولكن المطهر صحيح وعادل بالنسبة للكنيسة.

(*) المطهر الكاثوليكى له معنى فيه بعض الشبه بالأعراف ـ المترجم.

ويمكن أن يكون هذا شيئًا طيبًا للأمة أيضًا. إن التجلى المستمر لخداع النفس الذى تمارسه الهيراركية، والقسوة، والجرائم المحزنة لابد أن تذكر الجميع بأن كل مؤسسة قاصرة من الناحية الأخلاقية ـ بما فى ذلك أمريكا. إن الشر ليس محوراً ولكنه مدار يحيط بالكواكب، إنه مشكلة عالمية.

هل ستكون «موعظة الجبل» سياسة خارجية أمريكية؟ إن الرئيس ترومان، وهو يزعم لنفسه ولخلفائه دور الواعظ الذى يلقى هذه الموعظة ـ وهو دور يسوع المسيح ـ ربما لم يكن قد لاحظ كيف أن الموعظة فى إنجيل متى تتضمن السؤال الذى يقول: لماذا ترى القشة فى عين أخيك، ولكنك لا ترى جذع الشجرة الذى فى عينك؟

إذن ماذا أظن أننى أكون؟

٢٠ أغسطس ٢٠٠٢م

فى يوم الثلاثاء منذ عشرة أعوام مضت، بدأت أظهر على هذه الصفحة بوصفى كاتب عمود منتظم، ولم أكن أتخيل كم سيكون دوراً مثيراً للجدل. ومن بين الأعمدة التى كانت تجتذب نقداً غير متوقع كان عمود كتبته عن الكلبة صوفى التى تمتلكها أسرتنا. وتضمن وصفى للركض معها فى الممرات على امتداد نهر تشارلز جملة تقول: «انظر إلى صوفى مطلقة السراح، ولكنها لا تبعد أكثر من قدمين». وكما أشار كثير من القراء، كان ذلك اعترافًا بأننى انتهكت فنيا قواعد إطلاق السراح، على الرغم من أن صوفى كانت دائمًا فى عقبى. فقد افترض من ردوا علىَّ، خطأ، أننى واحد من ملاك الكلاب الذين يركزون على ذواتهم، الذين يتجاهلون القانون، فقد أهملت أيضا تنظيف مخلفات كلبتى. إن كتاب الأعمدة يفترضون بشكل عادى أن من حقهم الحكم على مثل هؤلاء المواطنين السيئين وإدانتهم. ألم أكن أنا واحداً منهم؟ والواقع أنهم سألوا: من تظن نفسك؟

وما تزال صوفى عضواً معززًا فى أسرتنا، ولكنها حسبما أخبرنى الطبيب البيطرى لتوه، مريضة بالشيخوخة الآن. وقد ولت الأيام التى كانت تركض فيها. وكجزء من فحصها، كان علينا أن نقدم عينة من بولها فى الصباح الباكر، وهذا ما جعلنى أتابعها

فى اليوم التالى وأنا أنحنى وبيدى جفن من البلاستيك. وكان المارة مندهشين من رؤيتى وأنا أتعقب صوفى محاولاً أخذ قطرات من بولها قبل أن تسقط على الرصيف. الكلام عن التبول الإجبارى. وعندها فكرت فى الذين انتقدوا العمود الذى كتبته عن الكلبة وودت لو استطاعوا رؤيتى الآن.

وبينما أبحث فى ملفاتى، بحثًا عن الموضوعات التى كتبت فيها على مر السنين، تعرفت على خيط مشترك، فمنذ أول عمود منتظم كتبته سنة ١٩٩٢ ـ «كفى حربًا» ـ حتى العمود الذى كتبته الأسبوع الماضى ـ «الانهيار الكاثوليكى وسياسة الولايات المتحدة الخارجية». لقد كنت مهمومًا بالمخاطر التى تجلبها نزعة «الخير فى مواجهة الشر» الأخلاقية، بيد أننى تعرفت فى الحال، أيضًا، على مخاطر مثل هذا الاهتمام. من تظن نفسك؟ ما الذى يمنع ناقد المنافقين الأخلاقيين من أن يكون هو نفسه منافقا أخلاقيّا؟ لماذا ترى القش التى فى عين أخيك، كما سألت الأسبوع الماضى مقتبسًا من إنجيل متى، ولكن لا ترى جذع الشجرة الذى فى عينك؟ لقد سألت هذا السؤال لنفسى، وأنا أفكر فى لازمة «بوب ديلان»: «فى وقفة جندى صوبت يدى/ صوب الكلاب الهجينة التى يُعَلمها/ ولا أخاف، أصبحت أنا عدوى/ فى اللحظة التى أبشر فيها».

وما التنازلات التى أدين بها لقارئى؟ إن فى افتراض «وقفة الجندى» لدى راوى للحقيقة موضوعى، هل ينبغى أن أؤكد بشكل متوازن على الكشف المستمر الغريب لتاريخى الشخصى؟ فى الكتابة بشك عن النزعة الحربية الصادمة لدى حكومتنا، هل يجب أن أعترف بصراحة أكثر بتوتراتى النفسية التى لم تنته مع المرحوم أبى، والذى كان چنرالا فى القوات الجوية، وانقسامنا حول ڤيتنام؟ وعندما أنتقد الهيراركية الكاثوليكية، هل يجب أن أعترف بشكل أكثر اتساقا بانهيار المثالية الحماسية التى أخذتنى إلى سلك الكهنوت الكنسى عندما كنت شابا؟ فى الحقيقة، سواء كان الموضوع هو الحرب أو الممارسات السياسية أو الشأن الدينى ـ فكلها أمور شخصية بشكل مكثف معى. هل هذه مشكلتى؟ أم أنها الحل الذى عندى؟

من تظن نفسك؟ يتم طرح هذا السؤال دائمًا كطريقة للإسكات. وهو يعنى ضمنًا أن هناك أصواتًا معينة فقط لها الحق فى أن تكون مسموعة، الأصوات التى تؤكد الأشياء كما هى، وتبقى على القوى فى مركز القوة. وفيما يتعلق بأمور الحرب، فإنها

الأصوات التى تنتمى إلى الصفوة الكنسية فقط . إن السؤال يستغل بطريقة شريرة حقيقة الحال الإنسانية ـ أنه لا أحد بمنجاة من النفاق . بيد أنه يعنى ضمنا وبطريقة زائفة العكس ، أن بعض المخلوقات الكاملة تقف فوق النقد ولهم وحدهم حق توجيه النقد . وبطبيعة الحال ، إنهم الأفراد الذين يطرحون السؤال المسكت أولا . باستثناء عندما نطرح نحن أنفسنا السؤال على نحو معاكس .

بعد عشر سنوات من كتابة هذا العمود ، أفهم بشكل أفضل من ذى قبل أننا نحن البشر متشابهون فى نقائصنا ، ويدين كل منا للآخر بعدم الوعظ ، على حد تعبير «ديلان» . ومن المؤكد أن العمود ليس منبر وعظ . ولكننى أفهم أيضا أننا نحن البشر متشابهون فى كوننا مسئولين عن هذا العالم . لا أحد معفى من الالتزامات بأن نحكم ونتكلم . فكل صوت له الحق فى أن يكون مسموعًا . فالعمود ميكروفون بامتياز ، هذا كل ما فى الأمر . أشكركم لأنكم أتحتم لى أن أكتبه .

من تظن نفسك؟ عندما يتعلق الأمر بالحرب ، فإننى مواطن أمريكى يقول لا . وعندما يتعلق الأمر بالدين ، فإننى كاثوليكى مؤمن ومدرك بأن جميع مخلوقات الله ناقصون . وعندما يتعلق بالأمر بالحياة فى المدينة ، فإننى صديق لكلبة ، وهى الكلبة ذات الجفنة البلاستيك .

* * *

(٧)

قرع الطبول

> فى الأول من يونيو ٢٠٠٢م، بدأ الرئيس يبين «مذهب بوش» الجديد فى وست پونيت: «على مدى معظم القرن الأخير، اعتمد دفاع أمريكا على مذاهب الحرب الباردة فى الردع والاحتواء.. بيد أن هناك تهديدات جديدة تتطلب فكرًا جديدًا أيضًا». لم يعد مبدأ «الردع والاحتواء» كافيًا.

ففى الرد على «الشبكات الإرهابية المستترة» و«ديكتاتوريات ذوات سلطات مطلقة»، كان على أمريكا أن تكون أشد عدوانية، لاسيما إذا أخذنا فى اعتبارنا الطبيعة الغامضة للأزمة العالمية الراهنة». «نحن فى صراع بين الخير والشر، وأمريكا سوف تسمى الشر باسمه». لقد بدأ قرع طبول الحرب.

«استراتيچية الأمن القومى للولايات المتحدة»، وهى لاهوت كامل لمذهب بوش، نشرت فى أكتوبر التالى. لقد كان إعلانًا رسميًا باستعداد أمريكا المبرمج لشن الحروب «الوقائية». ولم يقل المذهب ما إذا كان مثل هذا الحق يمكن أن يكون لأمم أخرى. وقد أكد مذهب بوش، بوضوح، أن المبادرات العسكرية سوف تحل محل الديپلوماسية، وأن الولايات المتحدة كانت مستعدة تمامًا وبشكل مناسب للعمل وحدها؛ وأن فضيلة الأهداف الأمريكية كانت واضحة بحد ذاتها؛ وأن قوة أمريكا التى لا يمكن تحديها تُعد مبررًا كافيًا للقيام بأى مبادرة وقائية. هذه التأكيدات على «الفكر الجديد» الذى يمثل انقطاعًا شاملاً عن السياسة الخارجية فى القرن العشرين، تمت صياغتها بطريقة نافذة بدون استشارة الحلفاء، وبدون مناقشة فى الكونجرس.

لقد وجدت تجريدات مذهب بوش بؤرتها الصلبة فى شخص صدام حسين. وتسمية الشر باسمه كانت تعنى تسميته باسم صدام. ولن يشكل الردع والاحتواء بعد الآن الاستجابة الإستراتيچية لمكائده، أو مكائد أى شرير آخر. والحرب الوقائية تعنى

منع صدام حسين. ولم يفسر أحد كيف حل محل أسامة بن لادن فى مرمى بندقية أمريكا. وفى الواقع أن أسامة بن لادن لم يعد محل مناقشة.

* * *

عاجز عن الإفصاح وفخور بهذا

٢٧ أغسطس ٢٠٠٢م

قال الرئيس بوش فى يوم آخر: «أنا رجل صبور». وكان يرتدى ملابس الكاوبوى. وأضاف بقدر من عدم الصبر: «وعندما أقول إننى رجل صبور، فإننى أعنى أننى رجل صبور». كان الرئيس يجيب عن محاولات رجال الإعلام لفهم خطاب الإدارة الأمريكية الساخن والمربك حول العراق. لقد عدلت تصريحاته عن الصبر من تصريحاته عن الحرب، سعيًا إلى تثبيط التوقعات بالهجوم الوشيك، على حين يعد بأن العمل العدوانى آت فى النهاية.

إن الأمة تتأمل شيئًا يمكن تسميته الحظ العاثر. فمنذ أن أعلن بوش مذهبه الجديد عن الحرب الوقائية فى الربيع الماضى، انشغلت إدارته فى حرب كلامية غير مسبوقة موجهة ضد صدام حسين. ففى البداية، كان التبرير لتغيير النظام الحاكم فى بغداد مسألة التهديد الذى يشكله صدام حسين، ولا شىء أكثر من ذلك. والآن فإن التبرير يتضمن حماية سلامة تهديد أمريكا. فعلينا أن نذهب إلى الحرب الآن لأننا قلنا إننا سنخوض الحرب. ولم تعد اللغة تعبيراً عن الهدف، ولكنها هى التى تشكل الهدف.

والحقيقة أن الولايات المتحدة فى أزمة لغة. وهذا ما يعنيه أن يكون لنا رئيس، يفخر بأنه عاجز عن الإفصاح، ولا يفهم حقًا العلاقة بين الكلمات والأفعال، بين البلاغة والقصد. تأمل تباهيه الحار بصبره. لقد رأيت إعلانه فى أخبار المساء، وكان واضحًا أنه عندما بدأ فى نطق الجملة الثانية، كان يسعى إلى التأكيد على الجملة الأولى، فقد كان يعنى أن يجد طريقة أخرى لإظهار عزمه وتصميمه. ولكنه كان، كالعادة، يعانى من خسارة حرفية لمعانى الكلمات. ولذلك عاد إلى التكرار الأجوف «عندما أقول إننى رجل صبور، فإننى أعنى أننى رجل صبور».

إن چورچ دبليو بوش يخطىء فى الشرح بالتكرار والحشو، وهى عادة عقلية تتسم بها إدارته كلها. إن بوش يحكم بالتأكيد بدلاً من الإقناع. وسواء كانت الولايات المتحدة تسعى لممارسة القوة على طالبان، أو على آرييل شارون وياسر عرفات، أو على روسيا، أو على حلفائها الأوروبيين، أو حتى على مواطنيها، فإن المنهج هو نفسه. وواشنطن لا تضيع لحظة فى محاولة إقناع طالبان بالوقوف معنا ضد أسامة بن لادن. وترفض واشنطن عرفات شريكا فى الحوار ولا تبذل أى جهد للتأثير على شارون. وواشنطن تقدم موسكو مع إنذارات على معاهدات الحد من التسليح. وترفض واشنطن المحكمة الجنائية الدولية، بدلاً من المساعدة على تشكيل تطورها. وعلى الجبهة الداخلية تزعم واشنطن لنفسها حق الإعفاء الذى يمنحه قانون الطوارئ لها من إجراءات القضاء التقليدية. وفى كل حالة، تتجنب واشنطن الحاجة إلى تفسير موقفها بالوضوح والمنطق الضرورى لتغيير العقول وكسب التأييد. وبدلاً من الإقناع، تمارس واشنطن الإجبار. ولماذا؟ من الواضح أن السبب هو أن واشنطن تقلد طراز الرئيس الذى يفتقر إلى القدرة على استخدام اللغة بوصفها شكلاً أو أسلوبًا للقيادة.

وتبرز المشكلة عندما يحدث، السعى إلى القيادة من خلال الصوت الآمر بدلاً من الشرح والتفسير، ألا يتغير شىء. إن العالم آخذ فى التصرف مثل مراهق أمريكا المتجهم، الذى يرفض إطاعة الأوامر. إن أسامة بن لادن مطلق السراح. والشرق الأوسط فى حالة تصعيد. وثمة سباق فى التسلح النووى على وشك أن يُستأنف. وقمة عالمية فى چوهانسبرج أغضبتها غطرسة الولايات المتحدة. حتى أوروپا تعبر عن ازدرائها صراحة. وفى الداخل، لم يتم التعرف على قاتل الأنثراكس. والمواطنون عرضة للخطر. والاقتصاد قد اهتز. وفى مواجهة مثل هذا الإخفاق، ليس أمام الصوت الآمر سوى أن يعلو. وقد لاحظ أحد موظفى هيومان رايتس ووتش أن «مستوى التهديدات قد تزايد بشكل درامى. وتصاعد التهديدات علامة على سياسة أصبحت مسعورة» فيما يخص هجمات الولايات المتحدة الحالى على ICC.

صيحة ما بعد ١١ ـ ٩ «نحن نقف متحدين». ولكن الأمر ليس كذلك. إذ إن الولايات المتحدة بلاد متشرذمة ضائعة حيث صارت الكلمات بلا معنى. وهذا من أعراض الضغط الذى يتولد فيما بعد الجروح، وهو مرضنا القومى. فنحن غير قادرين

على التعبير عن تجارب رهيبة. وتبقى أسوأ مخاوفنا فى اللاوعى، ولكننا نتعرف عليها فى عيون جميع الآخرين. وفى انعكاس هذا اليأس الذى لم يفصح عنه، كان رئيسنا الذى يكرر الكلام دوئما فائدة هو الرمز الكامل للحالة الأمريكية. إنه هو المايسترو الذى يفصل ما بين الكلمات والتجربة. وإذ أفرغ كلمة «الشر» من معناها (فإيران شريرة لكنها أيضا حليفتنا)، إن بوش الآن ـ وبشكل لا يصدق ـ يفرغ كلمة «الحرب» من معناها.

هذا الانعكاس الفارغ لكربنا الصامت يمكن أن يكون عزاء لأنه مألوف ولكنه أبعد ما يكون عما تحتاج إليه البلاد. إن الصخب الصبيانى الذى يرتدى ملابس الكاوبوى لا يفعل شيئًا لرعاية جماعة لها هدف. إنه يؤدى إلى العكس.

وكمرشح أظهر چورچ دبليو بوش بوضوح أميته الإرادية. إنه عاجز عن التعبير بالكلمات وهو فخور بذلك. وقد خلب ألباب كثير من الناخبين. وآخرون روعهم الأمر. وعلى أى حال، فإن قلة فهموا أن هذا التنازل عن الزعامة بالاستخدام الذكى للغة سيكون خطرًا على الديمقراطية فى الوطن، كما أنه تهديد خطير للسلام فى الخارج.

***

الذكرى السنوية للحرب

١٠ سبتمبر ٢٠٠٢م

١١ سبتمبر. إن الذكرى السنوية الموجعة للقلب تستحق، وسط هذه الكثرة من الأمور الأخرى، تأملاً ملحّافى موضوع الحرب. أمة تخوض حربًا، وعلى حافة حرب أوسع، نحن معرضون لخطر تعريف أنفسنا بالحرب على نحو شامل ـ وداخل الهالة الغامضة لهذا التاريخ المحطِّم. هل سنكون صادقين غدًا بشأن ما حدث منذ سنة؟ هل نخلد بجدارة ذكرى أولئك الذين ماتوا بهذا القدر من العنف بأن نجعل منهم رعاة لعنف بلا نهاية؟

إن الحرب ليست ماكينات. والحرب ليست تهديدات. والحرب ليست استراتيچية أو تكتيكات أو موسيقى عسكرية، وليست هى المصدر الصحيح للامتياز الذى يحصل

عليه أحد الأحزاب السياسية. والحرب ليست طريقة لإثبات الرجولة. والقول بأن الحرب هى الجحيم، بما يعنى أنها عالم منفصل، خطأ أيضا. ولم تعد الحروب تُشن فى الجحيم أكثر منها فى السماء. ويا حسرتاه يتم خوض الحروب على الأرض نفسها. وأولئك الذين يحملون أوزارها هم آخر من يعلم معانى الحرب المتجاوزة. إنهم صُمٌّ لا يسمعون موسيقاها. الحرب العادلة، والحرب الظالمة - هى نفسها بالنسبة لهم لأنهم موتى.

كتب هنرى ل. ستيمسون بعد الحرب العالمية الثانية: «عندما أنظر ورائى على السنوات الخمس التى قضيتها فى منصب وزير الحرب [١٩٤٠ - ١٩٤٥م]، أرى كثيراً جداً من القرارات الصارمة والصادمة بحيث لا يمكن أن أكون مستعداً للتظاهر بأن الحرب شىء آخر عما هى عليه فى الحقيقة. إن وجه الحرب هو وجه الموت؛ فالموت جزء حتمى من كل أمر يصدره قائد فى زمن الحرب». فهل زعماؤنا فى زمن الحرب يعرفون هذا اليوم؟ إن النزعة الحربية ذات الفروسية التى يتحدث بها الرئيس بوش وتشينى ورامسفيلد ورايس عن شن أمريكا الحرب ضد العراق تثير السؤال المهم والجوهرى: فهل يعرفون أن الموت على وشك تحديد هدف أمتنا؟ موت الجنود. موت الرجال المسنين، والنساء والأطفال. موت العرب والأمريكيين، وربما الإسرائيليين. موت الكثيرين الذين سيموتون فى العنف القادم الذى سيحدث فى «الحرب الوقائية» التى تم إسباغ الشرعية عليها.

غداً سوف يتم إعادة تكريس مبنى البنتاجون الذى أعيد بناؤه. ومعجزة إعادة بنائه فى سنة واحدة تستدعى إلى الذاكرة المعجزة الأكبر لبنائه الأصلى فى ستة عشر شهراً، وهو عمل تم إنجازه تحت إشراف هنرى ستيمسون. ولكن المبنى كان أقل إنجازاته، والتى نزلت جميعًا فى النهاية إلى إحساس حى بحقيقة الحرب. لقد أشرف على حملة الولايات المتحدة كلها بعزم لا يلين - حتى إلى الأمر بنهايتها النووية. إلا أن الحرب حفظت نفسها داخله. وكتب يقول إن القنبلة الذرية «أوضحت تمامًا أننا لا يجب أبدًا أن نخوض حربًا أخرى. هذا هو الدرس الذى ينبغى على الناس والقادة فى كل مكان أن يتعلموه».

غدًا تمر سنة كاملة، عندما حدق وجه الموت في أمريكا. وعلى مدى لحظات قليلة، تمت إعادة عرضها بلا نهاية، كان رعب الحرب مجسدًا. وعلى مدى شهور بعد ذلك، كانت الوجوه الفردية للرجال والنساء الذين راحوا في سبتمبر تحدق مطلة من صفحات الجرائد والصحف التي أخبرتنا بأسمائهم وحكت لنا قصصهم. وقد شعرنا بغضب شديد موجه ضد قاتليهم، ولكننا عرفنا أيضا أن مثل هذا الغضب الشديد يمكن أن يخزى الموتى بأن نجعلهم ضحايا مجهولين مرة أخرى. لقد كان موتى سبتمبر، الذين عرفنا أسماءهم ونعيناهم، بمثابة عيد الظهور الذي تجلت فيه حقيقة الحرب. إن قوة مثل هذا الموت، الموت الحقيقي، يجب أن تؤدي إلى معارضة ما يسببها ـ وهو الدرس الذي تعلمه ستيمسون.

هل تغير العالم منذ سنة مضت؟ وإذ يدعي بوش أنه تغير، فإنه يتابع طريق الحرب بقدر من الطاقة أكبر من ذي قبل. ومع ذلك، فهل هذه هي علامة التغير الحقيقي؟ لقد كان ستيمسون متأكدًا من أن العالم قد تغير في أغسطس سنة ١٩٤٥م. ومن المؤكد أنه كان قد تغير. وفي آخر عمل له بوصفه وزير الحرب، قدم اقتراحًا صادمًا إلى الرئيس ترومان. وإذ فكر ستيمسون في القنبلة التي كان قد بناها بنفسه واستعملها، فإنه حثَّ الرئيس ترومان بأن يقوم بتقارب سريع مع الاتحاد السوفييتي، لكي يتجنب «سباق تسلح سري ذي طبيعة أشد يأسًا». لقد كان الوزير يريد معاهدة بين الولايات المتحدة والسوفييت يمكن أن توقف العمل لإنتاج سلاح ذري في الحال، وتقيد القنابل الموجودة، وتدين الاستخدام المستقبلي، وتشارك صراحة في البحوث الذرية من أجل الأغراض السلمية. كل هذا مع ستالين الذي لا يمكن الوثوق به؟ وتوقع ستيمسون الاعتراض. وقبل خدمته في الحرب العالمية الثانية، كان وزيرًا للحرب (١٩١١ ـ ١٩١٣م) عندما أطلقت نيران مدافع الحرب العالمية الأولى، كما كان وزير الخارجية (١٩٢٩ ـ ١٩٣٣م) عندما وصل هتلر إلى السلطة. وقال لترومان «إن الدرس الرئيسي الذي تعلمته في حياتي الطويلة هو أن الطريق الوحيد لجعل رجل جديرًا بالثقة هو أن تثق به».

وتم رفض اقتراح ستيمسون الراديكالي، وتقاعد بعدها بأسبوع، وانطلق سباق التسلح اليائس. ولكن اقتراح ستيمسون يبقى علامة على كل من الطريق الذي لم

يسلك في تلك اللحظة الحاسمة والطريق الذى ما يزال مفتوحًا أمام الإنسانية. فالحرب موت لا ضرورة له، وإذا ما رأى أحد القادة وجهه الحقيقى مرة، فإن حل الصراع بوسائل أخرى سيكون هو هدف ذلك القائد الذى لا يموت. إن هنرى ل. ستيمسون يطارد خياراتنا. فقد طرح اقتراحه فى الحادى عشر من سبتمبر ١٩٤٥م.

***

شك طيب، وإيمان سيئ

١٧ سبتمبر ٢٠٠٢م

ثمة صلاة شهيرة تتضمن السطر القائل «عندما يكون هناك شك، دعنى أبذر الإيمان» عادة ما يعتبر الشك شيئا يجب التكفير عنه. فلا شيء يميت الروح البشرية مثل الشك. إذ إن الشك يمكن أن يقوض العزم، ويجعل العمل البطولى أمرًا مستحيلاً. بل والأسوأ من ذلك، أن الشك يمكن أن يُسمم النفس، بحيث يجعل المرء مرتابًا فى دوافعه الخاصة. وفى هذه الظروف يمكن للشك أن يؤدى إلى الشلل. ولكن حتى ذلك ليس هو أسوأ ما فى الأمر. عندما تقع الجماعة الأوسع فريسة يقين طنان، فإن الشك يمكن أن يؤخذ بوصفه علامة على الإيمان السيئ، مما يجعل المرتاب منبوذًا ووحيدًا.

وفى مسألة الحرب التى يلوح التهديد بها مع العراق، فإن مدَّ اليقين يتفاقم فى أمريكا وربما حول العالم. ويبدأ الشك فى الظهور وكأنه عدم ولاء فى الوطن، وحماقة فى الخارج. ذلك هو السبب فى أنه، منذ خطاب الرئيس بوش فى الأمم المتحدة الأسبوع الماضى، تساقطت التعبيرات الصريحة عن الشكوك بشأن تعريف أمريكا الجديد لنفسها بأنها أمة محاربة توجه الضربة الأولى. وقبل ذلك كان العكس عندما يعبر قادة العالم عن تأييدهم لوصف صدام حسين بأنه تهديد عالمى حال يتطلب القيام بعمل مُلحٍّ. وفجأة يأخذ كتاب الأعمدة والمحررون الشكاكون مرة واحدة ضرورة العدوانية العسكرية الأمريكية المكشوفة على أنها أمر مسلم به. فالديمقراطيون فى الكونجرس يقايضون النقد بالموافقة. وثمة اتفاق سياسى لصالح الحرب ضد العراق يبدو أنه يتبلور على الرغم من حقيقة أن إدارة بوش لم يكن لها قضية. كان خطاب بدائي يحمل بلاغة التأكيد المطلق، كافيًا.

وقال الرئيس بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فى الأسبوع الماضى إن صدام حسين يمثل خطراً عالميًا مميتًا، لا يمكن التعامل معه إلا بالقوة العسكرية. وفى الحقيقة، أنه لم تتم مناقشة أى من القضيتين، بل لم تتم البرهنة على أى منهما. وربما يكون صدام حسين، أو لا يكون، يمتلك أسلحة دمار شامل يمكن استخدامها؛ ومهما كانت ضآلة الدليل الذى تم تقديمه فهو محل خلاف. وإذا كان صدام حسين يمتلك بالفعل مثل هذه الأسلحة، فربما يكون قصده أن يستخدمها، وربما لا يكون قصده أن يستخدمها؛ لقد تم ردعه بشكل ناجح عن استخدام هذه الأسلحة فى الماضى. ومن الواضح، أن الأسئلة من هذا النوع لا تهم.

وثمة سؤال أكثر عمومية يتعلق بكيفية التأثير على صدام حسين. وربما يكون سلوكه، أو لا يكون، قابلاً للتحسن بالديبلوماسية أو غيرها من الضغوط غير العنيفة، ولكن الحرب، أو حتى التهديد بالحرب الوشيكة، سوف يبدو ضمانًا لسلوك نحو الأسوإ. وهذا يعد بكارثة، لاسيما بالنسبة لإسرائيل، إذا ما كانت أقوى اتهامات بوش بشأن ترسانة صدام حسين واستعداده لاستخدامها اتهامات حقيقية. ولكن من الواضح أن هذا أيضا لا يهم. وما يزال على بوش أن يفسر كيف يمكن خدمة العالم بأن نجعل الدكتاتور يرى أنه لن يخسر شيئًا. لماذا حل تغيير النظام محل تغيير السلوك؟ لقد بقيت هذه الأسئلة دونما أجوبة فى أثناء الحديث الحالى، ولكن المدهش الآن هو تناقص عدد الأصوات التى تطرح هذه الأسئلة.

كان الموضوع الحقيقى لخطاب الرئيس بوش فى الأمم المتحدة عن إرادة أمريكا التى لا تقهر وليس عن سلوك العراق المحظور. ما السبب فى أن العراق يمثل خطراً مميتًا يستوجب الإطاحة العنيفة بحاكمه؟ لأن هذا ما تقوله أمريكا. ولماذا تخفى الدول شكوكها لتنضم إلى هذه الحملة؟ لأن أمريكا طلبت منهم ذلك. فالدول ـ سواء كانت فرنسا أو السعودية ـ لا يمكن أن تتحمل الوقوف على الجانب الخاسر فى حرب تشنها أمريكا. لقد غير بوش الموضوع فى الأمم المتحدة من تبرير الحرب إلى حتميتها، ولم يعد تبريرها مهمّا. وكان الرد الإيجابى على خطاب بوش عبارة عن مقياس لا لعزيمته الشخصية، ولا لزعامته وإنما لمعنى الهيمنة الأمريكية الجديدة. وهذا هو ما تبدو عليه القوة الغاشمة للقوة العظمى الوحيدة فى العالم.

كذلك كان الأمر أشبه بهذا داخل الولايات المتحدة. إذ تشتتت القوة السياسية ولم تركز على شىء سوى الحرب. وما أن تحدد الحرب هدف الأمة، فإن الحرب نفسها لا تكون موضوعًا مناسبًا للجدل - لا فى وسائل الإعلام، ولا فى الكونجرس. لقد أوضح بوش - عندما ظهر أمام الأمم المتحدة الأسبوع الماضى، وعندما ألمح إلى التعددية - بشكل مثير نقطة النقد الوحيدة التى كان معارضو الحرب فى الداخل مستعدين لإثارتها. إذا لم تقم فرنسا بمعارضة صريحة لحرب غير مبررة للإطاحة بصدام حسين، فكيف يتأتى للديمقراطيين أن يفعلوا هذا؟ فالحرب غير الضرورية التى تشنها عدة دول ما تزال غير ضرورية، ولكن بوش استطاع مرة أخرى أن يكبت معارضة الحرب بحتمية الحرب. يجب أن تركب القطار مع الباقين.

ترى ما الذى يجب على المتشككين أن يفعلوه إذن؟ أولا، أن يكونوا على بينة وواضحين حول الذى جرى. ولم تتم مناقشة الاعتراضات على الحرب وإنما طرحت أرضا بسيل من التأكيدات البلاغية. لقد كان التأكيد فارغًا، ولكن الغريب أن ذلك ما جعله قويًا. كيف تتأمل بشكل عقلانى فوائد وأضرار عمل ما مع من يرى أنه ليس هناك أضرار على الإطلاق؟ إن مسئولية المتشككين واضحة: أن يظلوا منشغلين بالحوار والجدل، حتى ولو بالإصرار على أن الجدل لم ينته بعد. يجب معارضة الحرب الأمريكية على العراق. يجب وقفها. وحيثما يكون هناك إيمان فى عدالتها أو فى حتميتها، ازرع الشك.

***

تهديد الرئيس النووى

١ أكتوبر ٢٠٠٢م

تشرح «إستراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة»، وهى الوثيقة التى نشرتها إدارة بوش الأسبوع الماضى وتفسر الاندفاع إلى الحرب، وتكشف بوضوح عن مدى زيادة خطورة العالم تحت حكم بوش، وتوضح أنه لا هو ولا مستشاروه يفهمون التاريخ الذى يعيشون فى رحابه. ففى تصريح حافل بالتأكيدات المزعجة، وربما تكون أكثر الجوانب إزعاجًا، هو استبعاد معاهدات الحد من الأسلحة النووية بين الأمم لصالح «الجهود النشطة لمنع زيادة الأسلحة النووية» التى ستنشأ الآن فى واشنطن.

وثمة تأكيد قصير النظر على مخاوف ـ لم تتأكد ـ حول قدرات العراق وإيران وكوريا الشمالية ونواياها، قد أعمى إدارة بوش عن أحد الانتصارات العظمى المعاصرة للدبلوماسية التى قادتها أمريكا. ذلك أن نظام منع انتشار الأسلحة النووية، الذى كان أبعد ما يكون عن الفشل، والذى كان أصله معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية سنة ١٩٧٠م، كان نجاحًا، وجزئيته تبرهن على أهميته. وكما عرفت أول مرة من محادثة مع خبير منع انتشار الأسلحة النووية چيمس وولش من كلية كنيدى فى جامعة هارڤارد، أن العجب الحقيقى فى مسألة الأسلحة النووية هو كيف تسنى لعدد قليل من الدول أن يمتلكوه، وكيف أن أممًا كثيرة رفضت الأسلحة النووية تمامًا.

ففى سنة ١٩٧٠م، كانت هناك خمس دول فقط تملك السلاح النووى، ولكن أممًا كثيرة أخرى كانت على أعتاب السلاح النووى. فمنذ ذلك الحين انضمت إسرائيل والهند وپاكستان إلى النادى النووى، ولكن تأمل ما حدث غير ذلك. فالأرچنتين والبرازيل اللتان تتبادلان الشكوك، انطلقت كلتاهما نحو تطوير أسلحة نووية، ثم تخلت كلتاهما عنه. وكذلك فعلت جنوب إفريقيا وتايوان. وبعد الانفصال عن الاتحاد السوڤيتى، كان يمكن لأوكرانيا وقازاخستان وروسيا البيضاء أن تتمسك ببقايا القدرة النووية وتتوسع فيها، ولكن الدول الثلاث جميعًا فعلت العكس. وفى سنة ١٩٩٤م، حتى كوريا الشمالية الموصومة بأنها شيطانية، استجابت للضغوط الدبلوماسية من الأمم المتحدة، وأوقفت إنتاج البلوتونيوم وبقيت كوريا الجنوبية على الجانب النووى. وعندما فجرت الهند ثلاث قنابل نووية فى مايو سنة ١٩٩٨م، كانت مؤسسة المخابرات الأمريكية، كالعادة، تحت وطأة مفاجأة كاملة، ولكن المفاجأة الحقيقية كانت ينبغى أن تكون هى أن الهند التى اختبرت أولى قنابلها النووية سنة ١٩٧٤م، قد انتظرت كل هذه الفترة.

إن منع انتشار الأسلحة النووية هو الذى حدد النظام العالمى. والاستثناء يؤكد هذه النقطة، إذ كان يمكن بسهولة شديدة أن تكون خياتنا فى عالم تنتشر فيه الأسلحة النووية مثلما تنتشر الطائرات المقاتلة ذات التكنولوچيا العالية ـ مع بلاد مثل مصر وإندونيسيا، وأستراليا، وغيرها كثير، وقدرة پاكستان النووية على الرغم من الفقر الشديد، إشارة على ما يمكن أن يكون عليه انتشار الأسلحة النووية من اتساع. إن الأمم

التى تخلت عن الطموح النووى، والدول الـ ١٦٧ التى جددت معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية سنة ١٩٩٥م إنما فعلت هذا ليس تفضيلا لانعدام القوة، وإنما انطلاقًا من الالتزام بمبدأين أساسيين: الأول نموذج نزع السلاح النووى نهائيًا. وحجر الزاوية فى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية هو المادة السادسة، التى توافق فيها الدول الخمس المالكة للأسلحة النووية (الولايات المتحدة وروسيا والصين وفرنسا وبريطانيا) على «مواصلة المفاوضات بنية طيبة حول الإجراءات الفعالة المتعلقة بوقف سباق الأسلحة النووية فى تاريخ مبكر، ونزع السلاح النووى».

هذه العملية تعرضت للتراجع والتقدم، ولكن حتى الآن بقيت فى مركز الأمل العالمى. وفى تصريح الأسبوع الماضى، رفض بوش مثال النزع النهائى للسلاح النووى، برفض «أى قصد بالسماح لأى قوة أجنبية بأن تلحق بالسبق الكبير الذى حققته الولايات المتحدة منذ سقوط الاتحاد السوفييتى منذ أكثر من عشر سنوات مضت». إن التفوق العسكرى الأمريكى المرتكز على أساس القوة النووية سيكون أبديا. وهكذا، توجد بالتالى، تلك الفجوة من عدم الاستقرار بين الذين يملكون السلاح النووى والذين لا يملكونه.

والمبدأ الثانى الذى أتاح لمنع انتشار الأسلحة النووية أن يمسك الزمام يتمثل فى فكرة الديمقراطية. تزعم استراتيجية بوش أنها فى خدمة الديمقراطية، ولكن ما فشل بوش فى إدراكه هو أنك لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطية داخل الدول، بينما تنتهك القيم الديمقراطية فيما بين الدول. لقد نجحت معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية؛ لأنها جسدت فكرة أن الدول، حتى ولو لم تكن متساوية فى القوة والثروة، تحسب حساب بعضها البعض، وأنها مخلصة لمعايير مشتركة، ومرتبطة بالتزامات مشتركة. إن البناء الأساسى للديمقراطية فيما بين الدول يتكون من شبكة من المعاهدات أساسًا، وهو ما أزاحه بوش بفكرته عن «العالمية الأمريكية الاستثنائية».

إن بوش يعلن: «لن نتردد فى العمل وحدنا» وهو يعد بأن يتوسع فى مد السيطرة الأمريكية عن طريق «إقناع الدول أو إرغامها على قبول مسئولياتها السيادية». لقد صارت الولايات المتحدة تناقضًا يفضح ذاته: ديكتاتورا فى شكل دولة تُملى الديمقراطية وتفرضها. وكيف يتصور بوش ما ستكون عليه استجابة الدول الأخرى؟

من المؤكد أن الحقيقة هى أنه لن تكون هناك قوة تنافسنا فى السيطرة على العالم، ولكن فى العصر النووى ليس هناك ثقل مطلق. إن الأمم الأخرى سترد حتمًا على هذه المباهاة الأمريكية غير المسبوقة باتباع طريق تحقيق القدرة النووية - حتى ولو كان ذلك فقط لإجبار واشنطن على التعامل معها باحترام. ومع انتشار المعرفة النووية، ولاسيما مع المواد النووية الروسية والقدرات النووية الروسية الموجهة نحو السوق، تكون الحماية الممكنة الوحيدة من كارثة نووية نهائية هى بالضبط المعاهدة الدولية التى سحقتها الولايات المتحدة لتوها وألقت بها فى سلة المهملات، كما لو كانت قطعة من أوراق الكلينيكس المستعملة.

* * *

ضد الحرب آنذاك، وضد الحرب الآن

٨ أكتوبر ٢٠٠٢م

فى سنة ١٩٧١م صُدمت واشنطن عندما ظهر حشد من جرحى الحرب من الجنود لكى يحتجوا على الحرب فى ڤيتنام. وعسكروا فى المول وبسرعة حصلت إدارة نيكسون من وارين برجر رئيس القضاء على أمر للجنود القدامى بإخلاء المكان. ورفضوا. فهل كان يمكن القبض عليهم؟ لقد حدث آنذاك أن السيناتور إدوارد كنيدى ذهب بجسارة إلى المول حيث كان المحاربون القدامى المعارضون للحرب قد أقاموا خيامهم وفرشوا أكياس النوم، وقال لهم: «لقد خدمتم بلادكم جيداً فى الخارج، وسوف تخدمونها على نحو أفضل هنا فى واشنطن». كان التأييد العلنى من جانب كنيدى لمظاهرة غير قانونية مفتاحًا لتحويل مد الرأى العام - ثم القانون - لصالح المحاربين القدامى وضربة حاسمة ضد الحرب.

وتيد كنيدى يفعل نفس الأمر ثانية. فقد قال لى عندما كنا نجلس سويًا يوم السبت الماضى: «لقد بدأت حياتى المهنية فى زمن كانت تدور فيه حرب من المهم أن تنتهى، والآن - ليس لأننى أنهى حياتى المهنية - هناك حرب تتطلب منا أن نعيد تعلم تلك الدروس التى يعلمنا التاريخ إياها». وبعد ذلك بدقائق قليلة وفى مسرح ساندرز بهارڤارد، ألقى كنيدى خطابًا مؤثرًا فى احتفال التنصيب الذى أقامته الأكاديمية الأمريكية للآداب والعلوم، ربما كان أقوى نقد للحركة صوب الحرب فى العراق حتى

الآن قام به سياسى بارز، على الرغم من أنك لن تعرف مضمونه بسبب الطريقة التى تم بها تجاهل الخطاب فى وسائل الإعلام التى تدق طبول الحرب.

وبدلاً من التركيز على تفاصيل الحل المحبذ للحرب الذى يحتمل أن يوافق عليه الكونجرس هذا الأسبوع، ركز كنيدى على «جدل أكثر اهتمامًا بالأسس، ما يزال فى بدايته ـ جدل ومناقشة مهمة تماما عن كيف ومتى وأين سوف تستخدم بلادنا فى السنوات القادمة قوتها العسكرية التى لا تبارى». إن العراق ببساطة هو الحالة الأولى فى الموضوع.

وفى استجابة على استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة الذى نشرته إدارة بوش حديثًا، حلل كنيدى بدقة الافتراضات الراديكالية التى تسوق الأمة باتجاه الحرب. أولاً أظهر أنه بالمساواة بين الهدفين المختلفين تمامًا لـ «المنع» و«الاحتلال»، فإن بوش يقود أمريكا نحو تبنى مسار من الفعل طالما أدانت الآخرين بسببه. قال كنيدى «تقليديا يشير العمل إلى الأوقات التى كانت الدول تتصرف فيها برد الفعل تجاه خطر وشيك بالهجوم». وقدم استجابة إسرائيل على تحركات الحدود من جانب مصر وسوريا فى سنة ١٩٦٧م، بوصفه مثالاً على العمل الاستباقى المبرر[١]. وعلى النقيض من ذلك، كان الهجوم اليابانى على بيرل هاربور يهدف إلى تقويض قدرة كامنة يمكن أن تكون مصدر تهديد فى يوم ما»، عملاً من أعمال الحرب الوقائية. «إن الطبيعة الباردة للعزم المسبق على شن الهجمات الوقائية والحروب الوقائية تجعل منها انتهاكًا للمبادئ الراسخة ضد العدوان».

وبالنسبة لكنيدى ما تزال الحرب الوقائية لعنة، كما أن إدانته تبنى بوش الحرب الوقائية ضد العراق تستند إلى حقيقة أن الرئيس چون كنيدى سنة ١٩٦١ و١٩٦٢م، قد رفض حجج الحرب الوقائية ضد الاتحاد السوفيتى، بحيث يحمى الحدود الأخلاقية.

(١) مع احترامنا الشديد لرأى السناتور البارز إدوارد كنيدى الذى استشهد به المؤلف ـ الجدير بالتحية والاحترام ـ فلا نرى أن العدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧م له ما يبرره، فأولاً لم يكن لإسرائيل أى منفذ على خليج العقبة حين قامت بقرار من الأمم المتحدة.
وثانيًا: حجة إسرائيل بأنها كانت ستختنق بغلق خليج العقبة هي مردودة؛ لأن لها ساحلاً طويلاً على البحر المتوسط، فمثلها مثل سوريا ولبنان، يمكن أن تعيش بدون البحر الأحمر.
وثالثًا: كانت هناك مفاوضات بين مصر والولايات المتحدة بخصوص تلك المشكلة، ولكنها تعجلت الحرب التى كانت تخطط لها ـ المترجم.

ويقتبس إدوارد كنيدى كلام روبرت كنيدى وهو يقول: «على مدى ١٧٥ عامًا لم نكن ذلك النوع من البلاد».

فهل نحن كذلك الآن؟ إن مذهب إدارة بوش الجديد، حسبما قال كنيدى «يؤكد أن الحقائق العالمية الآن تضفى الشرعية على الحرب الوقائية وتجعل منها ضرورة إستراتيجية وتفكر الوثيقة صراحة فى الهجمات الوقائية ضد الجماعات أو الدول، حتى مع غياب التهديد الوشيك بالهجوم.. إننى أعارض بقوة أى مذهب بمثل هذا التطرف».

والسمة الثانية لتناول بوش الراديكالى الجديد الذى لامه كنيدى كان افتراضه أن الولايات المتحدة معفاة على نحو ما من قاعدة «توقع من الآخرين أن يطيعوا». لقد أعاد كنيدى طرح كليشيه عن الأخلاق العامة ـ «القوة لا تصنع الحق» ـ ولكن فى السياق الحالى فإن إشارته ترقى إلى مستوى النبوءة الموحى بها. إن غرور القوة المهيمنة يفسد الأمة. «إن أمريكا لا يمكنها أن تكتب قواعدها الخاصة لحكم العالم الحديث. ومحاولة القيام بهذا سوف تكون أحادية تتحول إلى سعار». إن بوش يقوض الحرب على الإرهاب، ويدمر التحالفات، ويضع سوابق خطيرة، كما أنه يسلب من الشرعية الأخلاقية لأمريكا قوتها.

ومرة أخرى غامر كنيدى بما لا يستطيع فعله سوى عدد قليل من زملائه، عندما عرف هذا كله باسمه الصحيح: «إن مذهب الإدارة إنما هو دعوة إلى الإمبريالية الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين، وهى دعوة يمكن لأى أمة أخرى أن تقبلها، ويجب أن لا تقبلها». والجدل فى الكونجرس هذا الأسبوع قد تركز على صدام حسين والعراق، ولكن ما على المحك حقيقة هو البنى الأساسية للفكرة الأمريكية. ويرتبط اسم كنيدى بشكل سليم إلى أنبل نبضات هذه الأمة، ومن المناسب أن آخر الأخوة يرفع صوته دفاعًا عنها.

وبعد الظهر عقب خطبته، كان السناتور وأنا معه جالسين فى مقهى سومرفيل. واقتربت إحدى الزبائن من طاولتنا فى الركن الخلفى كى تقول: «سيناتور، أود أن أشكرك لكل ما فعلته للوقوف من أجلنا ضد هذا الاستعجال للحرب».

وسألتها عن اسمها، وإذا ما كان يمكن أن أنقل عنها، فقالت بثبات: «لوسى بورودكين، ويمكنك أن تنقل عنى بالتأكيد».

(٨)

الرهينـة

فى خريف سنة ٢٠٠٢م، صار الإرهابيون خاطفى رهائن. وثمة قناص مجهول أخذ كل منطقة العاصمة واشنطن رهينة، ثم أخذ فدائيو الشيشان موسكو رهينة عندما استولوا على مسرح يعج بالناس.

ولكن چورچ دبليو بوش، وهو يقوض دعائم النظام العالمى الذى تم إرساؤه منذ أكثر من خمسين سنة، برهن على أنه خاطف رهائن أيضًا.

وفى أثناء ذلك الخريف، أعد الرئيس بوش للحظة ظن الكثيرون أنها لن تأتى أبدًا، ثم فى ١٧ ديسمبر، فعلها. فقد أمر بأول نشر فعلى لنظام مضاد للصواريخ - وهو حلم ريجان الذى احتجب طويلاً عن حرب النجوم. ففى ألاسكا، وكاليفورنيا ومدمرات آيجيس فى المحيط سيتم وضع الجيل الأول من الصواريخ الاعتراضية ضد الصواريخ الباليستية، بتكلفة قدرها ثمانية عشر بليونا من الدولارات على مدى عامين - وتمهد الطريق للمزيد. وقبل ستة أيام من إعلان بوش، كانت الصواريخ الاعتراضية قد تم اختبارها، وفشلت للمرة الثالثة. وحقيقة أن العلماء كانوا تقريبا مجمعين على القول بأن مثل هذا النظام لا يمكن صنعه أبدًا بالشكل الذى يمكن الاعتماد عليه، لم تؤد إلى ردع بوش. فقد برر فعلته، كما فعل بشكل أو بآخر فى كل فعل فى السنة السابقة، بالإشارة إلى الحادى عشر من سبتمبر.

هذا النشر للأنظمة المضادة للصواريخ كان علامة على عبور عتبة أخرى. لقد كان يتخلى رسميّا عن الاعتراف الذى خلفته الحرب الباردة: ففى العصر النووى تؤدى الإجراءات «الدفاعية» مثل درع الصواريخ بالحتم إلى إثارة الإجراءات الهجومية، مما يقوض الأمن القومى بدلاً من تعزيزه. وربما تبدو هذه الفكرة على النقيض من البديهة، ولاشك فى أنها تفتح السبيل أمام وجهة نظر عالمية تقوم على أساس التناقض بدلاً من الصراع. إن إنكار الدفاع، والذى تأسس فى معاهدة منع الصواريخ الباليستية التى

رفضها بوش الآن، هو فقط الذى أدى إلى الانفراج فى العلاقات الدولية، وخفض الأسلحة، ووقف انتشار الأسلحة النووية، وأخيراً قطع شوطًا صوب حلم السلام بعد الحرب الباردة. أما الآن فإن هذه الرؤية الثاقبة، والإنجاز الدبلوماسى الذى أدت إليه، قد تم التخلى عنهما. ومن ثم فنحن على عتبة الطريق العكسى. ومع مبادرة بعد أخرى، جرّ الرئيس بوش الجنس البشرى مرة أخرى إلى حقل الألغام الذى بدا وكأنه هرب منه للتو، مع بداية الألفية الثالثة.

***

فترة العتبة

١٧ أكتوبر ٢٠٠٢م

كون أن موظفة فى جمهورية ألمانيا الاتحادية قد طُردت من الخدمة الشهر الماضى لأنها قارنت جورج دبليو بوش بأدولف هتلر كان أمراً صحيحًا، ولكن ليس بسبب الإهانة التى وجهت إلى بوش. ذلك أن تفرد شرور هتلر يجب أن نصرّ عليها دائمًا. وأيا كانت مشكلات المرء مع بوش، فإنه يكون عملاً شريراً أن نساويه بكاتب «الحل النهائى». ويجب على الألمان بشكل خاص أن يكونوا حريصين على ألا يفعلوا هذا.

وغالبًا ما يمكن للتشابهات التاريخية أن تؤدى إلى التضليل، حسبما تظهر نهايات الموتى كثيراً فيما وراء خط الأبدية. كم من الناس ماتوا بلا ضرورة باسم تجنب ميونيخ أخرى؟ بيد أن البشر مع هذا ملتزمون بفهم الحاضر فى ضوء الماضى، لاسيما حينما تكون الأحداث غير مسبوقة بشكل جذرى. ويبدو واضحًا أن البدء بالحرب فى العراق، مع قصد الرئيس الأمريكى تنفيذ برنامج جديد من الإمبريالية الأخلاقية، يجعلنا فى فترة يمكن أن نسميها فترة العتبة، التى تقودنا من مفهوم للمجتمع إلى مفهوم آخر لم يتم تحديده بعد. إن الموقف المشئوم يتطلب منا أن نسأل: متى وقفنا على مثل هذه العتبة من قبل؟

بالنسبة للأمريكيين من جيلى، تقفز السنوات ما بين ١٩٦٣م، وسنة ١٩٦٥م، إلى الذهن. حين كانت القرارات التى تؤخذ فى واشنطن قد أسست دافعًا إلى العنف ظل بلا ضبط على مدى عشر سنوات، وفى الوقت الذى أدرك فيه مواطنو الولايات المتحدة

ما الذى كان يتم عمله باسمهم، وكان الوقت قد فات لإيقاف القوة الدافعة حتى تباطأت حسب جدولها الخاص. فقد كانت أمريكا قبل حرب ڤيتنام مختلفة تمامًا عن أمريكا بعدها. إذا لم نقل شيئًا عن تحويل حرب ڤيتنام. لقد تم عبور عتبة تاريخية، ولكن ما رآه الجميع بحلول سنة ١٩٧٥م، كان القلائل قد رأوه فى فترة ١٩٦٣ - ١٩٦٥م الحاسمة.

ميز تلك العتبة أربعة أشياء:

* الذعر الاجتماعى من الدرجة المنخفضة. فقد كان المواطنون الأمريكيون قد عانوا لتوهم من خلال صدمتين: قرب نهاية العالم بحرب نووية حول كوبا ثم بعثرة الثقة القومية بالذات باغتيال الرئيس كنيدى.

* وضع الأفكار «المتطرفة» من قبل فى تيار رئيسى. فقد تم انتخاب ليندون چونسون سنة ١٩٦٤م باعتباره «مرشح السلام» ولكنه اعتنق فى الحال النزعة الحربية لبارى جولد ووتر منافسه الذى خسر. وتم تطوير العنف الوحشى بعقل مفرط فى البرودة باعتباره المسار «المعتدل».

* استسلام المشرعين وتسليم سلطتهم الدستورية. إذ إن الكونجرس منح سلطات الطوارئ للفرع التنفيذى مع أزمة خليج تونكين، وتم تهميش المعارضة السياسية للحرب - من يوچين مكارثى إلى چورچ ماكجڤرن - بشكل دائم.

* إعادة تشكيل الوطنية بحيث تعنى الانصياع. فقد تم تعريف النقد الوطنى للذات على أنه عدم ولاء. أمريكا - عليك أن تحبها أو تتركها وترحل.

وإعداد قائمة بمثل هذه الملاحظات التى تحدد فترة عتبة فى الماضى يعنى الاعتراف بها فى الحاضر. وذعرنا القومى اليوم مربوط بالإرهاب. والأفكار التى كانت متطرفة من قبل (احتقار الأمم المتحدة، الأحادية، وعدم الاهتمام بالحريات المدنية) هى الآن محببة لدى واشنطن. لقد منح الكونجرس بوش لتوه رخصة مطلقة تقريبا لاستخدام القوة. فالمواطنون مستبعدون، والمعارضون مهمشون، وتم إطلاق الحركة صوب الحرب الدائمة.

ولكن تعداد هذه الخصائص التى تميز الوقت يعنى أن نتذكر فترة عتبة أخرى، وهى فترة يجب أن نرجع إليها مجدداً مرة بعد مرة ـ حتى على الرغم من أن فعل الذاكرة هذا يمكن أن يبدو عدوانيا لسبب لاحظناه بالفعل. وفيما بين سنة ١٩٣٣م وسنة ١٩٣٥م، تغير العالم على الرغم من أن الكيفية التى تغير بها لم تكن واضحة حتى انقضت السنوات العشر المرعبة التى أعقبت ذلك. وملاحظات عتبة تلك الفترة مألوفة. وكان الذعر الاجتماعى فى ألمانيا سنة ١٩٣٣م مرتبطًا بالكساد الاقتصادى والرعب النشط للإرهاب ـ الإرهاب الشيوعى. (تم انتخاب هتلر ٥ مارس ١٩٣٣م، وبعدها بيومين أحرق الرايخستاج، مما مثل رعبًا قوميًا وجه اللوم فيه إلى الشيوعيين). وأفكار النازى التى كانت مدانة على نطاق واسع ذات مرة، ولاسيما الاستغلال السياسى لمعاداة السامية، سرعان ما وجدت لنفسها مكانًا فى مواقف التيار الرئيسى، وقد تنازل المشرعون الألمان عن مسئوليتهم تمامًا لهتلر بتمرير «مرسوم المساعدة» فى أبريل. وآخر حزب معارضة ـ وهو حزب المركز ـ حل نفسه. وسرعان ما تبنى الجمهور العريض فى ألمانيا النزعة الوطنية الهيستيرية، على الرغم من أن قلة هم الذين كانوا يؤكدون عليها من قبل. لقد تم عبور العتبة.

إن القصد من هذه المشابهة ليس المقارنة بين هتلر وبوش، مثما أن التشابه بين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥م، لا يعقد مقارنة بين جونسون وبوش. إن السؤال ليس عن الزعامة وإنما يتعلق بالمجتمعات التى تسمح لنفسها بأن تتحول جذريا دونما جدل عميق. إن السؤال يتعلق بما ضاع عندما تم التخلى عن الضوابط التقليدية، كما يتعلق بما جاء عقب إطلاق حركة الدفع تجاه حرب بلا نهاية محددة. إن السؤال يتعلق بمدى تكلفة المباهاة بقيادة العالم، ومن ذلك الذى سيدفع هذه التكاليف. إن السؤال يتعلق بما حدث عندما تم اختطاف الاتفاق القومى لمصلحة السياسات الهامشية، وعندما لا يقول الشعب الذى يمتلك سلطة الاعتراض شيئًا. وبعبارة أخرى لا يتعلق السؤال بـ «بوش»، ولكنه يتعلق بنا.

***

الرهينة المحتجزة

٢٩ أكتوبر ٢٠٠٢م

تظل تفكر فى الناس فى ذلك المسرح بموسكو كيف بدا الخطر المحيق بهم مألوفًا جدًا لك. فذات مرة كانت محنة من هذا النوع ـ خاطفون مقنعون، والقنابل، والساعة التى تدق ـ لا يمكن تخيلها خارج الروايات، ولا شيء غير ذلك. والواقع أنه بينما تشاهد عرض الدراما، تفكر فى المسارح ببلادك وتدرك أنها الآن أيضا ستقوم بتركيب بوابات تفتيش معدنية. متى سيتم احتجازك رهينة، ويتم إجبارك على الانتظار فى رعب، مشاركًا فى ذلك الجزء المخصص للأوركسترا فى مقدمة المسرح كمرحاض، محاولاً معرفة دوافع أعدائك الملثمين، مستخدمًا هاتفك المحمول سرًا، باكيًا فى قلق، هامسًا مع رفاقك المحتجزين، حتى تنهار بسبب الغاز، وربما يتم إنقاذك من الكابوس الذى نجوت منه؟

إن قسوة الأغراب، أيا كانت دوافعهم، تقطع أنفاسك ـ ولكن ذاك أيضا، يبدو أيضًا مثل شيء فى متناول اليد. فقبل لحظات فقط من قيام فدائيى الشيشان بالاستيلاء على مسرح موسكو، ألم تكن أنت تتصور نفسك فى واشنطن دى سى والقناصة مطلقو السراح؟ لقد كان المسرح الذى تم الاستيلاء عليه فى هذه الحالة هو المدينة نفسها. كم مضى عليك من الوقت منذ كنت تشعر بالأمان؟

ماذا كان عليه الحال فى موسكو؟ تأخذ قصة پيير بيزوخوف مثالاً، كيف أنه فقد الوعى ليجد نفسه أسيرًا لدى غزاة متعصبين. وعندما أعلنوا عن قصدهم بقتل رهائنهم، كان بيزوخوف فى الصف، رقم ستة. وشعر، «كما لو أن جزءًا من روحه قد تمزق وانتزع. وفقد القدرة على التفكير أو الفهم. كان يستطيع فقط أن يسمع ويرى. وكانت لديه رغبة واحدة فقط ـ هى أن الشيء المخيف الذى يجب أن يحدث ينبغى أن يحدث بسرعة». وتم إجبار بيزوخوف على مشاهدة رفاقه من الرهائن وهم يسقطون صرعى الرصاص، الواحد تلو الآخر، وهى حالة من الرعب تفوق أى شيء جربه من قبل. فلم يكن يتوقع أبدًا أن يكون من الناجين، ولكنه نجا ـ ثم جاءت المفاجأة الحقيقية. فبدلاً من الشعور بالارتياح الحلو لأنه نجا من القتل، كان مدمرًا أكثر من ذى قبل «كان الأمر كما لو أن منبع حياته، الذى يعتمد عليه كل شيء يبدو حيًا، قد تم ردمه

فجأة وانهار كل شيء في كومة من النفايات التي لا معنى لها. . لقد تم تدمير إيمانه بالنظام الصحيح في العالم، وبالإنسانية، وبروحه، وبالرب».

وبيير بيزوخوف، بطبيعة الحال، هو الشخصية المركزية في رواية «الحرب والسلام» لليو تولستوي، كما أن آخذي الرهائن المرعبين هم الغزاة الفرنسيون، وليسوا الشيشان. وكون أن حرب تولستوي سنة ١٨١٢م يمكن أن يكون لها هذا الصدى الواضح يذكرك بما تهدف إليه الرواية العظيمة. إن تجلياتها تصلح للأبد. أنت لا تحتاج إلى أن تكون ضحية مباشرة للإرهاب لكي يُنتزع جزء من روحك. بل إنك لست بحاجة حتى لقراءة الرواية. فأنت أيضا من خلال الصحيفة والتليفزيون فقط تشعر بأن النبع الرئيسي للنظام قد ارتطم بأهوال الرعب الحالي.

لقد جاء بيير بيزوخوف من حياة رغدة - قد لا تختلف عن حياتك - ليواجه صدمته ويطهرك أن تدرك أن القسوة والفاجعة والعنف العشوائي هي التي تحدد حدود الحياة لمعظم البشر. ومع هذا، فإن الأثر التراكمي للصدمات التي حدثت هذا العام، بل والصدمات الكبرى التي يهددنا بها المجهول، قد تركتك ترتعش حتى الأعماق. ليس هذا فقط، فإن إيمانك «بالنظام السليم للكون» قد ارتبط بأمل في أن تكون مقاصد وطنك، أيا كان غموضها، أكثر ميلاً لذلك النظام ولصالحه. إلا أنك الآن قلق من أن النبع الرئيسي نفسه قد تم ردمه أيضا، بسبب البداهة الأخلاقية الأمريكية، التي تهدد بأن تنزل اهتمام الأمة التقليدي بالآخرين إلى ركام من النفايات التي لا معنى لها تسمى الإمبراطورية الأمريكية.

ما علاقة هذا بك - ليس فقط أن تشهد عن قرب (من التليفزيون الذي يمكن أن يوضع على طاولة بالمطبخ) تجليات القسوة التي تأخذ الأنفاس، وإنما أن تشعر أنك أنت التالي في الصف بعد الضحية؟ هل يزيدك صلابة بحيث تصل إلى مثل هذه القسوة؟ هل تجهزك لتكون أنت نفسك قاسيًا؟ إن القناص في واشنطن، ومختطفي الرهائن في موسكو، والانتحاريين بالقنابل، والفدائيين المسعورين، وقاذفات قنابل الليزر عالية التقنية فوق العراق، كلهم على نفس الخط. فالدفاع يصبح هجومًا، وحماية أطفالك تصير اغتيالاً لأطفال الآخرين، والتهديد الذي يوجهه لك يتحول إلى حرب استباقية من جانبك. فأنت تقتل لكي توقف القتل. فلماذا لا تشعر بأنك غريب في أرض غريبة، قد تخلى عنه الرب؟

يسأل تولستوى فى الخاتمة «ماذا يعنى هذا كله؟ لماذا حدث؟ ما الذى يجعل أولئك الناس يحرقون المنازل ويذبحون إخوانهم من البشر؟ ماذا كانت الأسباب وراء تلك الأحداث؟ ما القوة التى جعلت الرجال يتصرفون على هذا النحو؟ هذه هى الأسئلة الغريزية الواضحة والأكثر شرعية التى تطرحها الإنسانية على نفسها». إذن، فلماذا لاتطرحها أنت؟ ولماذا لاتضطرب روحك ـ إذا وجدت نفسها وقد أخذت رهينة مرة أخرى بالحرب؟

***

غرض الحرب

٥ نوفمبر ٢٠٠٢م

ما يزال الارتبالك يخيم على هدف الحرب الأمريكية، كما أن الجدل الذى دار هذا الأسبوع فى مجلس الأمن، وامتد إلى الوطن، يكشف عن هذا. هل تريد إدارة بوش «تغيير النظام» أم «نزع السلاح»؟ وعلى الرغم من مساواة الرئيس بينهما فى الشهر الماضى ـ «إن نزع السلاح هو تغيير النظام» ـ فإن الغرضين ليسا مختلفين فحسب، بل إن أحدهما يمكن أن يعمل ضد الآخر. مثل هذه الفوضى هى نمط عقلية بوش اللامبالية، ولكنها فى مثل هذه الظروف خطر. ربما يكون هناك شىء نتعلمه من زمن آخر عندما كانت المفاهيم العامة والخاصة لهدف أمريكا من شن الحرب مرتبكة فى اللحظة الحاسمة ـ مما أدى إلى نتائج مأساوية.

وبداية باتفاقية تم عقدها فى الدار البيضاء سنة ١٩٤٣، كان غرض حرب الحلفاء هو «الاستسلام غير المشروط» للأعداء من دول المحور. وبعد التدمير الكلى لألمانيا، بدأت اليابان تضع «مجسات السلام» فى خريف وأوائل صيف سنة ١٩٤٥م، سعيًا لاستيضاح أهداف الحلفاء. وكان اهتمام اليابان منصبًا بصفة خاصة على مصير الإمبراطور، وهو اهتمام زاد منه بلاشك الميتة الغريبة لكل من هتلر وموسولينى، فقد كان هيروهيتو، بالنسبة لشعبه، ليس مجرد فوهرر أو دوتشى، ولكنه كان شخصًا مقدسًا، وموضع عبادة. فهل ستتم محاربته بوصفه مجرم حرب؟ وهل سيتم إعدامه، ويجبر على التخلى عن عرشه؟ ما الخزى الذى ينتظره؟ هل يمكن التفاوض بشأن هذه

التساؤلات؟ وكانت إجابة الحلفاء بالنفى: وكرر ترومان «الاستسلام غير المشروط» فى أوائل يونيو.

ولكن كبار مسئولى الولايات المتحدة تناقشوا سرّا حول المعنى الفعلى «للاستسلام غير المشروط»، وهم يعرفون أن القوة المحاربة اليابانية ـ المهزومة ـ سوف تحارب إلى آخر رجل قبل أن تخون الإمبراطور. والواقع أن كلمة الإمبراطور كانت ضرورية لكى تجعلهم يضعون سلاحهم. بيد أنه لم يكن هناك أى تخفيف علنى للمصطلحات. وفى نهاية شهر يوليو، «وبقسوة وشمولية»، على حد تعبير وزير الخارجية چيمس ف. بيرنيس، تم تكرار طلب «الاستسلام غير المشروط» من جانب بوتسدام. وقدرية اليابانيين التى تدفعهم إلى الموت وهم يقاتلون والتى أعقبت ذلك تم حسابها ضمن التكلفة الشاملة للغزو الذى توقعوا أن يقوم به الحلفاء للجزر اليابانية، وهى التى استخدمت بدورها لتبرير إسقاط القنبلتين الذريتين. ولأن اليابانيين أرادوا حماية إمبراطورهم، ولأن أمريكا رفضت التفاوض حول هذه النقطة ـ لا تراجع عن «الاستسلام غير المشروط» ـ بدأ العصر النووى.

فماذا حدث آنذاك؟ فى ١٠ أغسطس بعد يوم واحد من قصف ناجازاكى، جاءت رسالة من طوكيو بقبول شروط بوتسدام، ولكن «مع فهم أن الإعلان المذكور لا يشمل أى طلب يمتهن امتيازات جلالة الإمبراطور بوصفه حاكما ذا سيادة». وتوقفت كل المقاومة اليابانية، ولكن فقط مع افتراض أن الإمبراطور لن يمسه سوء ـ بوصفه إمبراطوراً. وكان بيرنيس يريد أن يرفض العرض لأنه لم يكن غير مشروط و«يمكن أن نتعرض للنقد لأننا تخلينا عن القسوة والشمولية التى نص عليها إعلان بوتسدام». وتم التغلب عليه وانتهت الحرب، إلا أن مسألة ذلك التراجع ظلت باقية. وإذ تم محو هيروشيما وناجازاكى على هذا النحو سعيًا وراء انتصار مطلق، ألم يجعله الشرط اليابانى المرفق نصراً نسبيّا؟ وإذا تعين علينا أن نوافق على نجاة الإمبراطور بعد القنابل الذرية، فلماذا لم نفعل ذلك من قبل؟ لقد حافظنا على الموقف الفكرى والروحى المطلق المطلوب لمحو مدينتين كاملتين ـ ولكن لوقت كان يكفى للقيام بمحوهما من الوجود. هل كانت الصدمة النابعة مما ارتكبناه هى مصدر المرونة المفاجئة والإنسانية؟ هل كانت حتى واشنطن تدرك أن هيروشيما وناجازاكى قد خدشت معياراً أخلاقيًا؟

ففى خضم الهول الذى فعلناه، كان يمكن أن يبدو مصير الإمبراطور، والاستسلام اليابانى المفروض بشرط، مجرد تفاصيل. فعلى مدى عامين ونصف العام كان «الاستسلام غير المشروط» يحدد هدفنا المحدد من الحرب، ولكن فى النهاية قبلنا شيئًا آخر. (إذ إن هيروهيتو لم يتخل عن وضعه المقدس حتى سنة ١٩٤٦م. وظل يحكم حتى موته سنة ١٩٨٩م). كيف كان يمكن للحرب العالمية أن تنتهى إذا ما كانت أمريكا قد اكتشفت بسرعة وأوضحت استعدادها للتخلى عن هذه النقطة من الشرف الفائق؟ ترى كم عدد الأجساد المدفونة فى طيات هذا السؤال؟

و«تغيير النظام» هى طريقة أخرى لقول «الاستسلام غير المشروط». وبالنسبة لأذن صدام حسين فإن العبارتين مترادفتان. وربما يكون من مظاهر التقدم أن تم الإعلان أيضا عن هدف مختلف تمامًا للحرب، وليس مطلقًا، وهو نزع السلاح، ولكن باستثناء ما يدور فى ذهن بوش، فإن الموقف الأمريكى ربما لا يعكس الارتباك. وربما تكون الملاحظات المتناقضة الصادرة عن واشنطن ـ عبارة دونالد رامسفيلد «كلى وقاس» وكولين پاول المرن نسبيًا ـ تطرح عمدًا نوعًا من الضبابية حول الهدف القومى فى الحصول على ترخيص من مجلس الأمن هذا الأسبوع. فما أن يمر قرار ـ أى قرار سوف يمر ـ «لتغيير النظام» لابد وأن يؤدى إلى استئناف مكانها فى الصدارة. وكما كان الحال من قبل، سوف تتمسك واشنطن بقصدها الثابت حتى تزيح حركة الحرب كل شىء آخر، وحتى يكون البيت الأبيض والپنتاجون والكونجرس المطيع بشكل مخجل، مرعوبين أخيراً بما تكلفه هذه النزعة الاستبدادية المنحرفة بالفعل من خسائر فى الحياة البشرية.

***

الالتزام بسياسة الخوف المعيبة

١٨ نوڤمبر ٢٠٠٢م

«هل أنت اليوم أكثر أمنا مما كنت منذ سنة مضت؟». هذا سؤال طرحه عنوان رئيسى فى صحيفة نيويورك تايمز فى ذلك اليوم، وكان مذيع بالتليفزيون يسأل الناس فى الشارع «ما مدى ما نتمتع به من أمان حقيقى فى رأيك؟». وفى الأيام الأخيرة، وربما بسبب صوت أسامة بن لادن الذى أعلن عودته، زادت التحذيرات الحكومية من ارتفاع

حدة القلق القومى مرة أخرى. فعندما يمس الكلام العابر مسائل عامة، تتخلى متعة المحادثات عن مكانها للقلق. وكون أننا شعب على استعداد لشن الحرب ضد خصم لا يمكن التنبؤ به فى منطقة ملتهبة أمر يزيد من قلقنا. وفى الوقت نفسه اتخذت القاعدة أبعاد عدو سرى. ذلك أن جهلنا ببنائها الفعلى تجعلها تبدو كلية القدرات.

ما هى السلامة على أى حال، أكثر من غياب التهديد المادى المباشر؟ تشير الكلمة إلى الشعور، والواقع أن المرء يمكن أن يقول إن الكلمة تشير إلى مخادعة؛ لأنه فى الحقيقة أن من شأن الحياة على الأرض أن تكون خطرة. إن ما يشتاق البشر إلى أن يكونوا فى مأمن منه فى نهاية الأمر هو الموت ـ ومع ذلك فإن كل إنسان يموت. نحن نلف أنفسنا فى إنكار الفناء وقابلية الموت ونولى قدرًا قليلاً من الاهتمام بقانون الزمن الساخر بقدر الإمكان. وتتطلب الحياة هذه الحيل العقلية: أننا ننطلق فيها يوميًا وكأنها مستمرة إلى الأبد؛ أننا نقوم بأعمالنا الدنيوية كما لو كانت لها أهمية نهائية، وأننا نتصرف كما لو أن حبنا الناقص بالضرورة بعضنا لبعض سوف يقضى على الوحدة؛ وأننا نتجاهل مصادفات الوجود الجذرية لكى نشعر بأننا «آمنون». وليس هناك شىء خطأ فى هذا كله. إن الحلم المؤرق بالخلود المريح لهو تعديل ضرورى لحقيقة الفناء المرتبط بالأرض، والوعى الصارم بما قد يشل الحركة. إن الشعور بالأمان، بعبارة أخرى، ربما لا تكون له علاقة بأحوالنا الحقيقية فى عالم مأساوى ولكنه ضرورى للفعل الإنسانى الذى يحول المأساة إلى أمل.

ولكن الشوق إلى الأمان يمكن أن يأخذ إلى ما هو أبعد من اللازم، ومثل هذه الرغبة يمكن أن تستغلها الحكومة دونما استحقاق. فباسم السلامة الأمريكية، التى لم يكن هناك ثمة تفكير فى تحقيقها؛ قتلت الـ CIA فى اليمن منذ أسبوعين دونما عذر ستة أفراد قالت إنهم إرهابيون وذلك لتقنين الإعدام دونما محاكمة. ويتم الآن علنا اقتراح الاغتيالات فى الخارج، كما أن وسائل سيطرة ديكتاتورية يتم الترتيب لها. وتحت غطاء من تصعيد قلق المواطنين، تعيد إدارة بوش باقتدار صياغة كل من السياسة الخارجية والسياسة الداخلية ـ حسب أمزجة أيديولوچية موضوعة سلفًا. إن السياسات تعد بـ «الأمان والسلامة» ولكن سياسة بوش تجعل أمريكا تشعر أنها أقل أمنًا من ذى قبل.

فلماذا نحن خائفون إلى هذه الدرجة؟ ذلك السؤال يقود الفيلم الجديد المزعج والمهم لمايكل مور Bowling for Columbine. وهو دينامية عبثية من الخوف الخاص بأمريكا ـ الخوف الذى يستدعى ردود أفعال تجعل الخوف أشد سوءاً ـ والذى يتضح فى عرض الفيلم لكيف أن عنف البنادق يولد شراء البنادق الذى يولد المزيد من عنف البنادق. تلك الدائرة اللاعقلانية تحدد هوس الولايات المتحدة بالبنادق ـ واقتصاد الحرب فى الولايات المتحدة. ما الذى يكمن تحت مثل هذا الخوف؟ يقترح مور أن جريمة الاستعباد التى لم تتم تصفية حسابها والجرح الناتج عنها متمثلاً فى الخصومة العنصرية هى التى تؤمن استعداد الأمريكيين البيض المخيفين لإحضار الأسلحة المحشوة بالذخيرة إلى مرمى أبنائهم.

إن المطلب الاستحواذى «للأمن القومى» كان نسخة من نفس الدافع على نطاق أكبر. ففى أثناء الحرب الباردة، حول الشيوعيون الملاعين أسلحتنا النووية ضدنا. وكما حدث فى أعقاب العبودية كان التهديد يتضمن كارثة أخلاقية لم تتم تصفيتها من صنعنا نحن. إن سيناريو الكابوس الذى يتم فيه محو المدن من الوجود قد دمرنا لأننا نحن كنا قد محونا مدنًا من الوجود فعلاً. وفى كل حالة مرعبة ـ سواء العبودية أو الحرب النووية ـ نخاف من الأعداء القساة لئلا يردوا لنا الضربات على جرائم لا تستحق الرحمة.

هل يمكن أن يكون هناك شىء شبيه يسبب خوفنا من الإرهاب اليوم؟ إن المرء لا يحتاج إلى التعرف على أسامة بن لادن كمدافع عن المعدمين لكى يعترف بالهوة الشاسعة بين من ينعمون برغد العيش واليائسين باعتبارها الدافع الأولى للإرهاب. وهنا يكمن المعنى الحقيقى لعبارة «حرب الخليج»: فالأمريكيون الذين تستحوذ عليهم هواجس الأمن على أحد جوانب الخليج، وأكثر أبناء الجنس البشرى حرمانًا على الجانب الآخر. هذه التفرقة الكارثية ليست من صنعنا بالضبط، ولكن رخاءنا مستمد جزئيًا من الحياة المتدهورة لحياة أولئك الذين لا يشاركون فيها (فالغازات المنبعثة من بيوت النبات لدينا تؤدى إلى الفيضانات عندهم، كما أن اقتصاد الحرب لدينا يمد جيوشهم الشريرة بأسلحة شديدة الفتك؛ كما أن تعطشنا للبترول يزيد من قوة طغاتهم. وهكذا).

لماذا لا نشعر بالأمان؟ لنفس السبب الذى يجعل الأمريكيين البيض لا يشعرون بالأمان بعد نهاية عصر العبودية ؛ السبب الذى يجعل الأسحة النووية تؤذينا قبل كل شىء. نحن محكومون بأن نكون مرهوبين بالإرهاب لأنه يتحرك على امتداد خط معيب نشارك نحن فيه بالمسئولية. ويتسع الخط المعيب. ولا نفعل شيئًا لإغلاقه. إن المكان الملائم للخوف هو الضمير غير المستريح، ومن معرفته الأكيدة بأنه لا مهرب.

* * *

هل هناك تغطية على الصواريخ في معهد ماساتشوستس (MIT) للتكنولوچيا؟

٢ ديسمبر ٢٠٠٢م

فى الشهر الماضى أعلن قائد القوات الجوية المسئول عن تطوير نظام الدفاع الصاروخى أن التكنولوچيا المحيرة قد برهنت نفسها أخيرًا. قال الچنرال روناد كالديش: «إننا لسنا بحاجة بعد الآن إلى أن نجرب أو نستعرض أو نوارب، إننا بحاجة إلى أن نستمر فى هذا».

ولكن سجل تأكيدات البنتاجون لصالح الدفاع الصاروخى لا يمكن الاعتماد عليه على أقل تقدير. إذ إن مشروعا يجلب عشرات كثيرة من ملايين الدولارات إلى خزائن الصناعات العسكرية يحمل انحيازًا لا يقاوم، كما أن التاريخ يوضح أنه لا وزارة الدفاع ولا مقاولوها يمكن الاعتماد عليهم فى تقييم العلم أو التكنولوچيا التى سيستند إليها «درع» الرئيس بوش المتبجح. دعك من لحظة السؤال المزعج عما إذا كانت الولايات المتحدة بمبادراتها نحو الدفاع الصاروخى سوف تشعل سباق تسلح جديد وقاتل مع الصين وغيرها. والسؤال المتبقى عن الجدوى خطير بما فيه الكفاية: هل يمكن للأمة أن تتحمل مائة بليون دولار من أجل نظام لن يعمل؟ هل يمكن للحكومة أن تضع حياة مواطنيها فى خطر وراء درع لن يوفر الحماية؟

مثل هذه الأسئلة من الأهمية بحيث لا يمكن تركها للمنحازين من رجال البنتاجون والصناعة الحربية ممن يقومون بعمليات التقويم. وهذا هو السبب فى أن المزاعم العلمية لوكالة الدفاع الصاروخى ومقاوليها يجب اختبارها على أيدى خبراء من الجماعة

العلمية ليست لهم مصالح. وعلى مثل هذا الاستقلال تقوم صحة اقتصاد الولايات المتحدة، وسلامة الأمة، وتماسك العلم نفسه، على حين فسد هذا القدر الكبير من الأشياء الأخرى. هذه هي ركائز النزاع الذى كان يتشكل فى معهد ماساتشوستس للتكنولوچيا على مدى أكثر من سنة.

وثيودور أ. پوستول أستاذ للعلوم والتكنولوچيا وسياسة الأمن القوى فى معهد ماساتشوستس للتكنولوچيا. وقد حاز شهرة بوصفه الذى فضح كذب أداء صواريخ پاتريوت فى حرب الخليج، ثم متشككا فى الدفاع الصاروخى. وقد تحدى ما إذا كان النظام تحت التصميم يمكن أن يميز بشكل يعتمد عليه بين الرءوس الحربية القادمة والشراك الخداعية. وفى موضوع معين تم إجراء اختبار سنة ١٩٩٧م من مقاول الدفاع TRW وأعلن نجاحه. وبعد أن تم التساؤل حول هذا «النجاح» من جانب المحققين الفيدراليين، تم توظيف معمل لنكولن فى الـ MIT لتقييمه. وفى سنة ١٩٩٩م أكد المعمل النتائج التى توصل إليها TRW. وبعد ذلك بوقت قصير اعترض پوستول، متحديًا ليس فقط البنتاجون ومقاوله - ولكن الجامعة التى يعمل بها. وحقق مكتب المحاسبات الحكومى ووصل إلى نتيجة أن پوستول كان محقًا فى إبرازه الخلل الذى فى اختبار TRW، ولكن تهمة بوستول تعدت الخلل إلى الخداع. وقال لى أخيرًا ونحن نشرب القهوة: «لقد غطى معمل لنكولن على خلل فى نظام إيقاف البرنامج فى نظام الدفاع الصاروخى. هل تورطت جامعة كبيرة فى عملية تغطية؟».

فى إبريل سنة ٢٠٠١م، ذهب پوستول إلى سلطات معهد ماساتشوستس بشأن هذا الموضوع، ثم خرج إلى العلن فى بواكير هذه السنة، وطرح السؤال الخطير عما إذا كان معمل لنكولن متواطئًا فى عملية الخداع التى قام بها TRW. وجادل پوستول بأن «النجاح» فى تلك التجربة اعتمد على التوفيق بين الظواهر الملاحظة والظواهر التى كانت متوقعة. فهل قامت TRW بالتزييف عندما وضعت هذه مكان تلك؟ وهل تستر معمل لنكولن عن علم على هذا؟ وهل ضلل معمل لنكولن المحققين الفيدراليين؟ هل تجاهل كبار موظفى معهد التكنولوچيا فى ماساتشوستس هذه التهم وشوشوا عليها؟ وطلب پوستول إجراء تحقيق. وفى فبراير الماضى قام المعهد بإجراء تحقيق داخلى حول الاتهامات.

وقد انتهى التحقيق الداخلى بمعهد التكنولوچيا الشهر الماضى تحت إشراف المعهد، ودعا إلى إجراء التحقيق الخارجى الذى كان پوستول يدعو إليه على الدوام. هذه التوصية ذهبت الآن إلى كبار موظفى المعهد، ويبقى أن نرى ماذا ستؤدى إليه. أما پوستول من جانبه، فقد توصل فعلاً إلى استنتاج ويأمل فى تدخل الكونجرس. وفى خطابات أرسلها أواخر أكتوبر إلى عضوى الكونجرس هوارد برمان (الديمقراطى عن كاليفورنيا) والسيناتور تشارلز جراسلى (الجمهورى عن إيوا) اللذين وضعا قانون الادعاءات المزيفة، وكتب پوستول «فى الواقع أن معمل لنكولن حقق وشهد مثل مدققى الحسابات على حين كان المعمل يعرف أن ممارسات مسك الدفاتر كانت مزيفة».

وربما بدا هذا مثل تكرير لفضيحة إينرون، عندما تم ضبط شركة ومراجعى حساباتها متلبسين بالكذب ـ وهو فساد لا يقتصر على النظام الأساسى فقط ولكن بآلية الإشراف على النظام. ولكن فضيحة إينرون كانت تشمل المال فقط. أما الفساد فى مزاعم پوستول فإنه يتجه بسرعة إلى الأمانة العلمية، وإلى مركز العلاقة بين الأكاديميين والحكومة، بل وبشكل أشد حسمًا، إلى المنهج الذى سوف يتم به بناء إستراتيچيات الدفاع الأمريكية فى المستقبل.

وقد مضى زمن طويل على طلب التحقيق المستقل الذى تقدم به الپروفيسور الشجاع پوستول. ولابد أن طلباته بدت مثل عدم الولاء بالنسبة لجامعة محاصرة تحاول حماية سمعتها. ولابد أنها ظهرت مثل «مراوغات» بالنسبة للپنتاجون الذى يريد أن يمضى فى برنامج الدفاع الصاروخى. ولكن بالنسبة لأمريكا لا يمكن أن يكون هناك شىء خفى بشأن الحقيقة، لاسيما حينما يمكن للزيف، ولإشعال سباق تسلح، أن يمهد الطريق لشن الحرب.

* * *

ما الذى مات السبعة فى سبيله

٤ فبراير ٢٠٠٣م

إن رواد الفضاء الشجعان الذين فقدوا حياتهم يوم السبت الماضى كانوا يضغطون على الحد الحرفى لما يفصل الأرض عن كل ما سواها. وبموتهم يذكروننا بالحقيقة

البديهية بأن البشر موجودون لكي يضغطوا مثل هذه الحدود، حتى وهم يعرفون أن النتائج فى الغالب مأساوية. إن الطيران فى الفضاء لم يتم ترويضه بأكثر مما يمكن للمشروع الإنسانى أن يطهر نفسه من الخطر. فعندما يخاطر النساء والرجال عن وعى بتلك المخاطرة من أجل الدافع الإنسانى للمعرفة والاكتشاف، وعندما يموتون آنذاك وهم يفعلون ذلك - فإننا نحن بقية بنى جنسهم، نستجيب بشكل صحيح كعائلة واحدة، ونكرمهم بوصفهم أمثلة تجسد النبل الإنسانى.

إن الزرقة الشاسعة التى مات فى رحابها طاقم سفينة الفضاء كولومبيا كانت دائمًا ترسم النظرة الإنسانية الباحثة عن المزيد. ومن المؤكد أن هذا هو السبب، منذ البداية، فى أن البشر قد أسكنوا السماء بالملائكة، والآلهة والأبطال. فى زماننا هذا تغيرت السماء من كونها مكانًا تسقط منه النيران - مملكة القنابل والصواريخ - إلى مكان صارت فيه الحدود الأرضية التى تشن الحروب فى سبيلها خفية، ومن ثم صارت بلا معنى. كان هذا، على أى حال، هو الظهور الدنيوى، الصورة التى أخذها من ساروا على سطح القمر منذ جيل مضى للكرة الزرقاء - الخضراء المعلقة فى الفراغ، كوكبنا الهش باعتباره واحة للحياة والأمل فى كون مختلف لا يبالى. ثم حدثت أعجوبة الأعاجيب، الحلم اللا محدود بأرض واحدة صار مؤسسًا فى محطة الفضاء الروسية - الأمريكية المشتركة، التى كان المكوك كولومبيا وغيره يرونها موطنًا أقصى لهم.

لقد حدد استكشاف الفضاء الحرب الباردة فى أخطر مراحلها - منذ سبوتنيك سنة ١٩٥٧م، وإعلان الاتحاد السوفييتى أنه يمكن أن يمطر الولايات المتحدة بالقنابل الهيدروجينية، إلى سباق چون كنيدى الانتقامى صوب القمر، الذى أطلق شرارة السيطرة العسكرية الأمريكية النهائية. وفى نهاية الأمر، كانت هناك دفعة مضادة تضرب بجذورها فى التواضع فى مواجهة المجهول، قادت واشنطن وموسكو إلى عبور حدود فضائية أكثر جسارة - إلى مجال للتعاون. وتحويل «ثقل الرمية» و«إسقاط القوة»، صار العدوان شريكين فى نفس المشروع الذى كان يهدد الأرض أكثر من غيره.

هذه المشاركة تكرست فى محطة الفضاء التى فيها يواجه روسى وأمريكيان - حتى الآن - قلقًا مهلكًا بعد كارثة كولومبيا. إذ إن المهنة المشتركة التى أخذوها على عاتقهم

تذكرنا بأنه لم يحدث فى شيء أن حدث عكس مسار الحرب الباردة أكثر مما حدث فى تحويل الفضاء من أرض معركة للمصالح القومية إلى ميدان عابر للأوطان للتحقيق الإنسانى. هذا التراث الجيد تم تكريمه الأسبوع الماضى بحضور رائد الفضاء الإسرائيلى الوحيد على متن كولومبيا، وقد سار على درب مشاركين من بلاد أخرى.

وأحد الأشياء التى تجعل السماء خطيرة مجدداً هو الغواية العائدة برفع الحدود المسلحة إلى الهواء وما وراءه، وهو تكرار للتلفيق القديم بين الإنسانى والقبلى. وينعكس الدفع فى المبادرات، التى رعاها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، فى اتجاه تسليح الفضاء، تحت ما يسمى قيادة الفضاء بالولايات المتحدة، وإذ يقوم البنتاجون بتحدى اتفاق جماعى تقريبا فى الأمم المتحدة، بإدعاء مزاعم بشأن «الحدود العالية»، وهو نتيجة طبيعية لإستراتيجيات الولايات المتحدة الحالية تجاه السيطرة العسكرية العالمية. إن برنامج إدارة بوش للدفاع الصاروخى هو المرحلة الأولى فى هذا التوسع. فأسلحة الليزر التى لها قواعد فى الفضاء «الأقمار الصناعية الحارسة»، و«مركبات القتل» الدوارة، والمجسات الفضائية التى تعمل بقوة البلوتونيوم ـ كلها أشياء مرعبة آتية من عصر حرب النجوم. لا شيء يمكن أن يخون الروح الإنسانية لرواد الفضاء فى مكوك كولومبيا على هذا النحو الشامل أكثر من التراجع عن الشراكة العالمية من أجل الفضاء باسم هيمنة أمة واحدة ارتكازاً على الفضاء.

واليوم فى الخدمة الرسمية [الصلاة والدعاء] فى ذكرى ملاحى الفضاء الذين فقدوا فى المكوك كولومبيا بهيوستون، وفى أيام الحداد والتأمل القادمة، سيكون قلب أمتنا غاصّا بالأحزان. فمرة تلو المرة، وسوف نرى، فى صور التليفزيون السماء الزرقاء يقطعها قوس أبيض من التدمير المفاجئ، سوف نرى وجوه أولئك الدين ماتوا من النساء والرجال، ووجوه عائلاتهم الثكالى. وسوف نرى وجوه الإسرائيليين وقد روعتهم صدمة جديدة. وما الذى سوف سيحض عليه ذلك كله فى القلب الأمريكى؟ فهل سنخرج من هذا الأسى أكثر حياة لهشاشة الحياة الإنسانية التى هى بالتالى حياة نفيسة غالية؟ هل ستتعرف فيما يصبه من معتنقات إشارة على أن مشاركة عالمية تتخطى الآن أى مفهوم ضيق «للأمن القومى»؟

عندما تنظر عيوننا صوب السماء اليوم، فما الذى سنراه؟ وماذا عن رفض نفس الهواء، ناهيك عن الفضاء الخارجى، لأن يعرف نفسه بشىء غير اللون الأزرق؟ إن الزرقة العميقة الكثيفة اللانهائية التى فيها يتعلق فيها كوكب الأرض، حسبما يخبرنا رواد الفضاء النبلاء ـ يتعلق دونما خيط يمسكها. وكل الذى يتعلق به هذا الكوكب فى الفضاء هو الشجاعة الإنسانية. وليرقد أولئك الذين علمونا هذا مرة أخرى فى سلام.

* * *

(٩)

الذاكرة الأخلاقية

بنهاية سنة ٢٠٠٢م، كان واضحًا أن إعادة تذكر ٩ ـ ١١ قد أخذت شكل «ذاكرة قومية»؛ أي ملاحظة تحدد إطار عمل سياسى جديد، فقد فاق الاحتفال بالذكرى تحت رعاية الدولة كل تجارب الحزن والفقد الشخصية.

إذ إن هذا المثال العام قدحدد ملامح الأعداء الأجانب الأشرار كما حدد ملامح الأمريكيين النبلاء (رجال المطافئ، والشرطة والمسافرين على الخطوط الجوية). أما الشخصيات التى لا تتواءم مع هذا الإطار السردى، مثل قاتل الأنثراكس، الذى تحول إلى أجنبى، وسرعان ما تحول إلى نذل أجنبى ماكر لا يمكن القبض عليه، فقد حُذفت ببساطة من الحكاية الجماعية. وحل صدام حسين محل أسامة بن لادن. وراجت قصة تحكى عن الهجمات الإرهابية التى بررت مساراً خاصًا اتخذه قادة الأمة. وتمت تصفية التعقيدات ونُسيت الذكريات المعارضة. وكان هذا قد حدث من قبل. ففى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، سدت الذكريات البطولية للمعارضة الطريق أمام ذكريات التعاون والجبن. وبعد حرب ڤيتنام، وفى الولايات المتحدة، أكدت ذكريات الحرب ـ ونصبها التذكارى الكبير فى واشنطن ـ على معاناة الأمريكيين، دونما اعتراف بالتجربة الڤييتنامية الأشد كارثية.

إن النسخة التى يرعاها بوش للماضى تهدف إلى الفعل فى الحاضر، وفى ١٠ أكتوبر ٢٠٠٢م، تم التأكيد على هذا الفعل بالقرار ١٤٤ المشترك بين الكونجرس ومجلس النواب: «تفويض باستخدام القوات المسلحة للولايات المتحدة ضد العراق». ولكن فى ذلك اليوم نفسه، تم توجيه ملاحظة مضادة عندما اختير أحد معارضى القرار، وهو الرئيس الأسبق چيمى كارتر، لجائزة نوبل للسلام. وفى تعليقه وإعلان قبوله، رُفض كارتر صراحة هذه الحرب؛ فقد قال كارتر وهو يرفض مشروع بوش «لأن تتبنى البلاد القوية مبدأ الحرب الوقائية، قد يُرسى نموذجًا يمكن أن يؤدى إلى عواقب

كارثية». ولم يكن الجدل فقط حول الأهداف الأمريكية فى الحاضر والمستقبل، ولكن استغلال الماضى مبرراً هذه الأهداف.

***

فيليب بيريجان

١٠ ديسمبر ٢٠٠٢م

مات فيليب بيريجان. ودفنته أسرته وأصدقاؤه أمس فى بالتيمور. ومعظم الناس الذين يتذكرون فيليب بيريجان يربطون بينه وبين الغارات على وحدة التجنيد منذ زمن طويل والتى جعلته شهيراً فى الستينيات. وعدد أقل من الناس يعرفون أنه ارتكب ثمانية أفعال كبرى من أفعال العصيان المدنى فيما بين سنة ١٩٨٠م وسنة ١٩٩٩م - أفعال حقيقية من نزع السلاح وكلفته سنوات من السجن. ولكن صورة الرجل المبتسم ذى الشعر الأبيض فى الأصفاد يمكن أن تكون مضللة. وهو أبعد ما يكون عن شخص هامشى ولت أيامه منذ زمن طويل، لأن فيليب بيريجان، حتى فى موته، له علاقة خاصة جداً بمسألتين من أكثر المسائل إلحاحًا اليوم.

وتتعلق الأولى بالقساوسة الكاثوليك. فقد ظهرت الضغوط التى تواجه الكنيسة الكاثوليكية كمسألة كنسية، ولكن الحريق الأخلاقى الذى يذيب الدعائم الداخلية لهذه المؤسسة بدأ فى تهديد بناء السلطة والمجتمع فى الصميم. وإذ إن الكاثوليك استمروا يترنحون من هول فضيحة التحرش الجنسى التى تم التستر عليها، مع كل كشف جديد عن بلادة الهيراركية الكنسية - وعن فراغ القساوسة الأجوف. ومنذ وقت مبكر، شهد الآخرون مسرحية انعدام أخلاقية الكنيسة بذهول منفصل، ولكن فيما بعد، حتى غير الكاثوليك أحسوا قشعريرة خطيرة على امتداد المجتمع. فإذا أمكن سقوط الكنيسة الكاثوليكية، فما الذى لا يمكن أن يسقط؟ والحقيقة أن النظام الاجتماعى كله بمثابة برج واحد - ويمكن أن ينهار أيضًا.

عاش فيليب بيريجان حياة تقدم صورة من التوبة للقساوسة الكاثوليك. فقد أظهر، على نحو خاص، ما الذى يعنيه حقّا يمين الطاعة. فمع أخيه الچيزويت دانييل وجد نفسه فى صراع مع هيراركية كانت فى الواقع تشجع على حرب لا أخلاقية (قال

الكاردنيال فرنسيس سبيلمان: «لن نقبل ما هو أقل من النصر»). وكان تحدى بيريجان موجهًا إلى الكنيسة بقدر ما كان موجهًا إلى الأمة. فالكنيسة أيضًا خاضعة لأن تدان بالكتاب المقدس؛ والكنيسة أيضًا سقطت. وبرفض مجاراة أولئك الذين ساووا بين نقده وعدم الولاء، ومؤكدًا عقيدته الكاثوليكية حتى النهاية، ومتجاهلاً أولئك الذين يمكن أن يحكموا عليه بالحرمان الكنسى، أظهر بيريجان الطريق الذى ينبغى على الكاثوليك أن يتبعوه اليوم. وبتفكيك السلطة الفاسدة، أنقذ مبدأ السلطة. والوقوف ضد بناء سلطة كاثوليكية مفلسة أخلاقيًا هو أسمى تجل للحب الكاثوليكى. وفيليب بيريجان، المتزوج والأب لا بنتين رائعتين وولد رائع، لم يتوقف أبدًا عن أن يكون قسيسًا مثاليًا.

بيد أن هناك أهمية أبعد من هذا بكثير. فبينما كان معظم الأمريكيين يستنكرون تكريس أمتهم «للقوة المهيمنة» القائمة على أساس من الأسلحة النووية، كان بيريجان يدق أجراس الإنذار بلا توقف. وعندما انتهت الحرب الباردة، وانتهى معها التهديد الذى كان قد دفع العالم إلى حافة الهلاك، كانت أمريكا وحدها التى تراجعت. ذلك أن «الأمة التى لا غنى عنها» سوف تتسلح حتى أسنانها. واحتج بيريجان، على الصواريخ المهاجمة مباشرة، وعلى المدامرت، والطائرات الحربية ورءوس اليورانيوم الحربية. وحذر من أن اقتصاد/ ثقافة الحرب سرف يشعل الدافع المحرك نحو العنف الشامل الذى سيكون هو مبرره نفسه، ولن يمكن إيقافه.

وانظر، وتأمل أين صرنا. إن الغزو الوشيك للعراق مثال دقيق على ما تنبأ به بيريجان: أمريكا ذاهبة للحرب ليس بسبب حاجتها إلى ذلك ولكن لأنها تستطيع ذلك. وكان لابد لبيريجان أن يصر على أن هذه الأزمة تنبع أصلاً ليس مع الكيد الشاذ لجورج دبليو بوش، ولكن مع الفنتازيا الأمريكية العالمية بأن«الأمن القومى» يمكن أن يعتمد على أسلحة الدمار الشامل. وفى هذه النقطة يكون صدام حسين مرآة تعكس صورتنا، ولابد أن هذا هو السبب فى أننا نكره صدام حسين بهذا الشكل. وغالبًا ما كان يتم استبعاد بيريجان بوصفه داعية سلام مثاليًا، ولكن الأزمة الحالية تكشف عن أنه كان واقعيًا ذكيًا. إن الأسلحة التى نجمعها ونراكمها، بدلاً من أن تحمينا، هى نفسها مصدر الخطر القاتل الذى يهددنا.

لا يجب على الأمريكيين أن يتنازلوا للكنيسة الكاثوليكية المضطربة. إن الأمة والدين يتخبطان فى نفس الضباب الأخلاقى. وعلى مدى سنوات كان الكاثوليك - من الأساقفة والعلمانيين على السواء تحت رحمة السلك الكهنوتى الفاسد - يتطلعون صوب الطريق الآخر على حين كان القساوسة يتحرشون جنسيًا بالأطفال. والآن ربما يحلو للبعض أن يلوموا القادة الجبناء، ويفصلوهم، ويعودوا بالأمور إلى سيرها المعتاد. ولكن ماذا لو كان «المعتاد» هو المشكلة؟ ماذا لو أن النظام الكنيسة كله يجب أن يتم هدمه؟

وبنفس القدر فإن المسائل المهمة تتناول ثقافة الحرب الأمريكية. يجب معارضة الهجوم على العراق، ولكن ألا يجب أن يعاد اختبار كل ما قد أتى بأمتنا إلى هذه العتبة من الإمبريالية العنيفة؟ لماذا على مدى السنوات الاثنتى عشرة الماضية لم نبذل سوى القليل لكى نبتعد عن الهواية النووية؟ لماذا يكون مثال القانون الدولى بلاوزن هكذا فى واشنطن؟ كيف يمكن أن نتوقع من الأمم الأخرى ألا تقلد اعتمادنا غير المحكوم على أسلحة الدمار الشامل؟ متى صارت هذه النزعة العسكرية الأمريكية الشاسعة «عادية»؟

هذه الأسئلة كانت لدى فيليب بيريجان القدرة على طرحها طوال حياته، بوصفه كاثوليكيا وأمريكيا. كقسيس ونبى. إن فيليب قد مات. وقد أحببناه. مات فيليب ولكن صوته مايزال مسموعًا هناك. مات فيليب. فليرقد فى سلام.

* * *

القصف يوم الكريسماس

٢٤ ديسمبر ٢٠٠٢م

يبدو أن عشية الكريسماس قد عملت للذكرى. فأنا أتذكر أننى كنت محشوراً بين أخوتى، وكلنا بين والدينا، فى الشرفة المزدحمة لكنيسة سانت مارى لصلاة القداس فى منتصف الليل. شذا البخور، وفحيح المدفأة القريبة، ومكان الركوع غير المبطن الصلب تحت ركبتى، وصلوات أمى تنساب من تحت قفازيها. وكان أفضل جزء من

ليلة الكريسماس هو الهواء البارد النقى الذى كنا نمشى فيه ونحن خارجون من الكنيسة، وركوب السيارة إلى المنزل والشعور بالنشوة لأننا بالخارج فى مثل هذا الوقت المتأخر. أما الجزء الأسوأ، فهو: كيف كان يستحيل أن أبقى عينى مفتوحتين بينما كان أخوتى يتجادلون فيما إذا كان سانتا كلاوس سيأتى إلى منزل وسكانه بعيداً فى صلاة القداس.

ولكن بينما كانت موسيقى الأجراس والترانيم تستسلم لطبول إيقاعات عسكرية متصاعدة، أمريكا على وشك الذهاب للحرب، وتتدخل ذكرى أخرى من ذكريات الكريسماس. هذه السنة هى الذكرى الثلاثون لقصف ڤيتنام فى الكريسماس.

وبالنسبة للناس فى سن معينة، فإن فكرة هجوم جوى غير مسبوق، يستمر من ١٨ إلى ٣٠ ديسمبر يشوش هدوء المناسبة المقدسة. وكم روعتنا التقارير عن القنابل التى تسقط ليلاً ونهاراً على المدن فى جميع أنحاء ڤييتنام الشمالية. وتم ضرب هانوى وهايفونج بقسوة بشكل خاص. وقد طار الطيارون الأمريكيون حوالى أربعة آلاف طلعة، من بينها سبعمائة طلعة بطائرات B52 التى تحلق عالياً. هذه القاذفات التى «تقصف المناطق» لا تقدر على توخى الدقة، ولم تستخدم أبداً ضد المدن قبل ذلك. وكونها استخدمت الآن كان علامة أكيدة على أن هذا كان قصفاً إرهابياً خالصاً وبسيطا. وقالت واشنطن إن حملتها الجوية البشعة كانت ضرورية لأن هانوى قد عرقلت مباحثات السلام، ولكن معظم العرقلة كان واضحاً أنها تأتى من سايجون حليفة واشنطن. وكان بوسع الجميع أن يروا أن القصف كان إجراء نهائيا يعبر عن الإحباط والغضب من جانب قوة عظمى تواجه هزيمة مخزية.

إن السبب فى تذكر القصف ليلة الكريسماس سنة ١٩٧٢م ليس هو الشعور بالتفوق الأخلاقى على أولئك المسئولين عنه. وإنما هو محاولة فهم شىء أساسى بالنسبة لتجربة الحرب. هنا تكمن أهم حقيقة فى هذه الذكرى: إن أولئك الذين أمروا ونفذوا هذه الهجمات الوحشية ضد المراكز السكانية عند نهاية الحرب الڤيتنامية، لم يكونوا ليفعلوا هذا أبداً من البداية. وما أمر به نيكسون سنة ١٩٧٢م كان لابد أن يدينه سنة ١٩٦٩م. لقد غيرت الحرب حساسية أمريكا الأخلاقية، بل إن الحرب أماتتها. وقد حدث هذا

من قبل. ففى سنة ١٩٣٩م، طلب الرئيس الأمريكى من الدول التى كانت قد دخلت الحرب فى أوروبا «ألا يشنوا تحت أى ظرف من الظروف قصفًا جويًا على السكان المدنيين أو المدن غير المحصنة». وبنهاية تلك الحرب قامت القوات الجوية للولايات المتحدة بتعريف نفسها بأنها أداة لتدمير الحضارة، لتحيل المدن إلى أكوام من النفايات (فقد تمت إبادة ٨١ من أكبر المدن اليابانية الـ ١٢٠ من الجو، حتى قبل هيروشيما). وما حرمته واشنطن فى بداية الحرب صار أمرًا مسلمًا به فى نهايتها.

إن ديناميكية الحرب تتعدى قدرة المحاربين على مقاومتها. ففى الحرب تقود الاختيارات بشكل روتينى إلى عواقب غير متوقعة، بما تطرح من اختيارات جديدة خارجة تمامًا عن التصور، تتضمن بدورها عواقب أكثر، تؤدى فى النهاية إلى خيارات لم يكن المحاربون ليوافقو عليها أبدًا فى البداية. بسبب هذا العجز البشرى عن التنبؤ أو السيطرة تتردى الأمور إلى الوحشية ما أن يبدأ القتل، والطريقة الوحيدة للإبقاء على الحرب«إنسانية» هى عدم اللجوء إليها منذ البداية.

ولكن فى بعض الأحيان يطرح الرعب الأخلاقى القادم نفسه من منظور القوة والوضوح. فعندما يعلن الرئيس بوش، كما فعل منذ أسبوعين، استعداد أمريكا لاستخدام الأسلحة النووية فى الرد على أى استخدام من جانب صدام حسين للأسلحة البيولوچية أو الكيميائية ضد قوات الولايات المتحدة، فهو فى الواقع يسلم لصدام حسين الأولويات فى الحكم الأخلاقى. فهو يقول إنه تحت ظروف معنية يمكن توقعها، ربما تكون ممكنة أو غير ممكنة، فإن الولايات المتحدة سوف تلحق بالعراق فى تخطى العتبة إلى الهاوية الأخلاقية للدمار الشامل. وبرفع شبح الحرب النووية، فإن الرئيس بوش يحدد بالفعل الحرب التى هو على وشك أن يشنها على أنها حرب دون حدود أخلاقية. وإذا تصور الخيارات والعواقب إلى هذا المدى، فإنه للأسف لا يبدو أنه قد وضع بحسبانه ما الذى سيحدث من جراء عودة أمريكا إلى ممارسة القوة بالرعب النووى؛ إنه قرن وحشى ومايحسب له، مع هذا، هو أنه أعطى العالم وأعطى أمته وصفًا عادلاً لما يتصور أنه يمكن أن يفعله. إنه تحذير عادل، ولكنه ليس موجها إلى صدام حسين وحده.

هل سمعناه؟ فى ليلة الكريسماس هذه، التى هى تقريبًا عشية حرب أمريكية عدوانية، تركع الأمة على ركبتها للصلاة من أجل السلام. إننا نعبد ذكريات عن فضائلنا. أى كذب هذا الذى نقوله لأنفسنا! سانتا كلاوس قادم الليلة. نحن القوى الخيرية التى تم تجريدها ضد الشر. نعم، كما أن قصف نيكسون ليلة الكريسماس جلب لنا السلام المشرف.

***

السنة الأخيرة

٣١ ديسمبر ٢٠٠٢م

ماذا لو تمكنا من أن نعرف بشكل مؤكد أن السنة القادمة ستكون هى السنة الأخيرة فى عمر الدنيا؟ وتلخيصًا مستمدًا من الطريقة التى سيصل بها التاريخ إلى ذروته، وبعيدًا عن كل رؤى نهاية العالم، كيف ستؤدى معرفتنا بأن كل شىء سينتهى بعد سنة من الآن إلى تغير تعاملنا مع الحياة والزمن؟ إن طرح مثل هذا السؤال تمرين خارج عن المألوف، بيد أن الدراما التى ينطوى عليها متضمنة فى دورة الزمان. واليوم الأخير من السنة مشحون بالمخاوف لأنه ينذر بما سيكون عليه اليوم الأخير فى كل السنين. ولماذا نحاول أن نتذكر ما الذى يهمنا أكثر من غيره؟ لماذا نلجأ إلى إعادة تنظيم حياتنا وفقًا لذلك؟ ولماذا، بالنسبة لهذا الموضوع، نتحطم؟

ما الذى سيعنيه الحد المعلوم للزمن بالنسبة لنا نحن الأمريكيين؟ كيف سنعبر عن هدفنا القومى إذا ما رأينا النهاية العامة قادمة؟ سنة واحدة زيادة فقط لكى تجعل العالم يعرف ماذا يساوى الحلم الأمريكى. والسؤال الأول، بطبيعة الحال، هو عن الحرب والسلام. فهل سيكون معقولاً أن نمضى فى خطط شن الهجمات على العراق، وخصوصًا أن الغرض المعلن من الحرب هو منع العراق من سوء التصرف فى المستقبل البعيد؟ فإذا لم يكن ثمة مستقبل بعيد، فماذا إذن؟ وماذا عن دور أمريكا فى الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين؟ هل سنقنع بالاستمرار فى الجلوس على مقاعد المتفرجين ومع هذه الخصومات التى وصلت إلى طريق مسدود فى صراعاتهم المميتة؟ أم أننا سوف نشعر بضرورة ملحة جديدة لمساعدتهم على فض الاشتباك؟

إن عدم القدرة على التنبؤ بالمستقبل المفتوح هو الذى يجعل أمريكا تشعر بعدم الأمان. إن استحواذ «الأمن القومى» علينا سوف ينتهى فى ضوء المستقبل المحدود، وسوف نرى بوضوح تام أن ما يحدد علاقتنا ببقية العالم هو ثروتنا الطائلة. فبدلاً من حمايتها، فى الظرف الجديد، ألن نرى ثراءنا بوصفه المصدر العظيم لأجندة جديدة؟ إن مفاهيمنا سوف تتحول. و«الآخر» الذى يهددنا سوف يظهر أنه كائن بشرى من جنسنا يحتاج إلى مساعدة. فالكوريون الشماليون، مثلاً، لن يظهروا بمظهر الشيوعيين المجهولين الذين تصورناهم على مدى خمسين عامًا، وبدلاً من ذلك سيصبحون، مجموعة من الأمهات والآباء والأطفال الذين لا يستطيعون توفير التدفئة لبيوتهم. الطاقة النووية، القنبلة النووية ـ سوف يتخلى النزاع عن مكانه للحقيقة الكبرى عن الحياة فى كوريا الشمالية اليوم، وهى أن كل فرد هناك يعانى من البرد. فإذا ما بقيت سنة واحدة فقط، ألن نريد مساعدتهم للحصول على الرفاهية الكبرى متمثلة فى التدفئة فى الشتاء؟ ألن نرسل للناس البترول لأنهم سوف يتجمدون بدونه؟

إن رؤية العالم من خلال عدسات الحاجة الإنسانية بدلاً من التهديد المميت، ومع عدم وجود استخدام على طول المدى لثرواتنا المخبوءة، ولا للأسلحة التى تحميها بالتالى، ألن تنفق أمريكا ثروتها فى سبيل أن يعرف الجوعى مرة الرضا البسيط الذى تولده المعدة الممتلئة؟ ألن نفتح مخازننا ونعطى الدواء الفائض، والبطاطين الزائدة، والملابس التى لانحتاج إليها، والكتب والخبز والأدوات الفائضة عن حاجتنا؟ وألن نكتشف ونخجل كم هى كمية ذلك الخبز المخزون الذى ضاع سدى لأننا كنا نملك أكثر مما نستطيع نحن أن نأكله؟

وكأفراد، ما الذى سنفعله فى سنتنا الأخيرة؟ هناك أشياء معينة واضحة. ألن ندعم علاقاتنا، ونتأكد من أن يعرف كل من نحبه أننا نحبه؟ أما أولئك الذين جرحناهم، ألن نعوضهم عن ذلك؟ وبدلاً من أن نحيا لنعمل، ألن نعمل لنعيش؟ ألن نتخلى عن عادتنا فى التأجيل، ونسمح أخيراً بأن يدخل إلى حياتنا الجمال والهدوء والمتعة، والصحبة الطيبة، والوحدة الاختيارية التى كانت تتملص منا؟ وبدون القلق على المستقبل البعيد، أن تستعيد اللحظة الحاضرة قيمتها؟ وألن نعيش كل لحظة مثل هذه ونحن متناغمون مع زوالها السريع، وإذا ما أدركنا مؤخراً، أن ما يجعل التجربة الإنسانيةمأساوية هو الشىء عينه الذى يجعلها جميلة؟

نحن شعب متشرذم، ونقع بلا أمل تحت رحمة أهداف متعددة ومتصارعة غالبًا. وثمة ازدواجية دنيوية تحدد وجودنا (الجسد فى مواجهة الروح، العام ضد الخاص، المثالى مقابل الواقعى) وتتركنا لا هنا ولا هناك. ومع سنتنا الأخيرة بوصفها مصدرًا للتركيز الشديد جدًا، ألن نعلن عن وحدة الهدف؟ وهل سننظم وقتنا حول سبب واحد للوجود؟ ماذا سيكون ماذا؟ الثروة؟ الشهرة؟ المتعة؟ السيطرة؟ السعادة؟ العدالة؟ أو ربما يكون هو الحب؟

إنه مجرد تمرين فى السنة الجديدة، أن تتصور أنه بعد سنة من اليوم تغرب الشمس لآخر مرة. وحسب التقاليد والتراث، فإنه سيكون بعد سنة من غد يوم الدنيوية، ولكن ما يظهره التمرين أن الأحكام التى تهم تحدث الآن. إن السنة الجديدة ستكون حسب كل الاحتمالات، ليست السنة الأخيرة فى عمر الدنيا، ولكن ألن تكون الدنيا مكانًا أفضل إذا ما عشنا، نحن البشر الذين تحبهم، كما لو أنها كذلك بالفعل؟

***

اليوم التاسع والعشرون

١٤ يناير سنة ٢٠٠٣م

قال يسوع تأملوا الزنابق ـ ولكنه كان يفكر فى الحقل. إن درس الفصل السياسى الحالى يأتى من زنابق البرك، زنابق الماء. إنه لغز فرنسى قديم. «فى البدء يكون هناك غصن زنابق واحد فى البركة، ولكنه يتضاعف فى اليوم التالى، وبعد ذلك يتضاعف كل من الزنابق التى تولدت عنه. وتمتلئ البركة تمامًا بأعواد الزنابق فى ثلاثين يومًا. فمتى تكون البركة ممتلئة إلى النصف بالضبط؟ الإجابة: فى اليوم التاسع والعشرين».

يستخدم عالم الحشرات إدوارد أو. ويلسون هذا اللغز لتوضيح مدى إلحاح أزمتنا البيئية. «لأن الأرض محدودة فى كثير من الموارد التى تتحكم فى نوعية الحياة ـ بما فى ذلك الأرض القابلة للزراعة، والأغذية، والمياه العذبة، والفضاء اللازم للنظم البيئية ـ فإن مضاعفة الاستهلاك على فترات دائمة يمكن أن يجلب الكارثة بفجائية صادمة. وحتى عندما يكون قد تم استخدام مورد غير متجدد نصف استخدام فقط، فإنه تبقى فقط فترة واحدة على النهاية». ويمكن بأن نشعر أن اليوم التاسع والعشرين مثل الأيام

العادية ـ انظر حجم المكان الذى كان خاليًا فى البركة ـ ولكنه يمكن فعلاً أن يكون عشية الكارثة. وأولئك الذين يبدون اهتمامًا شديدًا هم فقط الذين يمكنهم أن يروا الأهمية الفائقة لذلك اليوم، ولكن عندها تكون مشكلتهم الكبرى هى إرضاء أولئك الذين لايعرفون ماهية الوقت.

ففى اليوم التاسع والعشرين، ستكون البركة قد توقف نصفها بالموت، ولكنها تبدو على ما يرام. ومن المؤكد أن أمامنا تسعة وعشرين يومًا أخرى لحل المشكلة. ولكن هل نفعل؟ والكيفية التى ينطبق بها هذا الدرس على موارد الأرض المتآكلة واضحة بينة، بيد أن له معنى فى مناطق أخرى كذلك. طبق صورة أوراق الزنابق المتكاثرة على ظاهرة عدوانية البشر. فهل أنا أتخيلها، أم أن هناك تضاعفًا وتضاعفًا فى النزعة الحربية للعالم منذ الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١؟ فى يناير الماضى، أصدرت الولايات المتحدة «تقرير الوضع النووى»، الذى تخلى عن الالتزام الذى استمر طويلا بالتخلص النهائى من الأسلحة النووية. وإضفاء الشرعية بشكل مؤكد من جانب أمريكا على أسلحة الدمار الشامل لديها، قد أدى بالتأكيد إلى مضاعفة وإعادة مضاعفة موقف الاعتماد على أسلحة الدمار الشامل حول العالم، طالما أن أهميتها فى ممارسة القوة قد باتت واضحة بنشر «إستراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة» فى أكتوبر سنة ٢٠٠٢م.

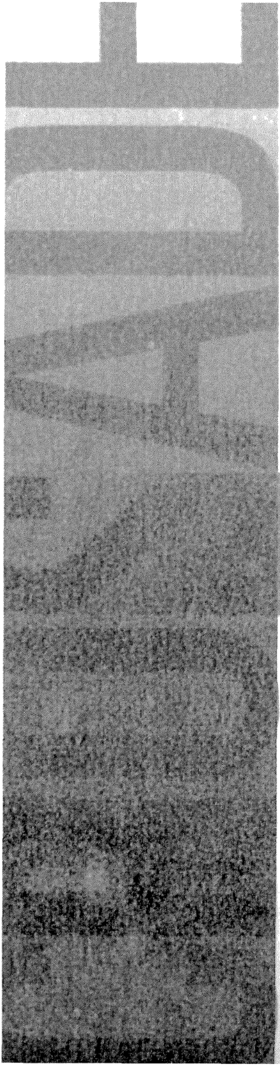
وفى الأسبوع الماضى، وفى عرض يشبه تكاثر أوراق الزنابق، أصدرت الهند تقريرها عن الوضع النووى، وفى الحال تضاعفت قعقعة السلاح من پاكستان. ورفعت الدولتان مزاعم تهديدية متبادلة بأنه يمتلك القوة. وفى بيئة تتنامى فيها النزعة الحربية، فمن ذا الذى سيزعجه أن تستفز كوريا الشمالية خطر الحرب العالمية الثالثة، فمع مثل هذه المستويات الجديدة الصادمة من استعدادات الحرب التى تجتاح آسيا، تخيل نوع القرارات التى تتم صياغتها فى بكين وطوكيو فى هدوء؟ وفى الوقت نفسه، يأخذ الإسرائيليون والفلسطينيون مستوى من الصراع المسلح الذى لم يكن التفكير فيه واردًا منذ وقت طويل، على أنه أمر مسلم به. وهناك أيضًا النزعة العسكرية التى ترفع شعار «حيًا أو ميتًا» التى ترجع بجذورها إلى واشنطن. وكون أن هذه التطورات التى جرت على العالم تقترب من ذروتها بالضبط عندما تأمر الولايات المتحدة أخيراً بنشر جيشها المقاتل فى الشرق الأوسط ـ هل يمكن أن يكون مصادفة؟ ربما تكون أمريكا أمة لا

يمكن الاستغناء عنها، وربما لا تكون كذلك، ولكن عندما يتعلق الأمر بالحرب، فإنها تكون بالتأكيد أشبه بورقة الزنابق التى تتكاثر. وفى هذا الأسبوع امتلأ أكثر من نصف البركة.

وليست الحرب فقط. فهناك قدر متزايد من خشونة الحياة فى الولايات المتحدة. فالناس الذين لا مأوى لهم ينامون مجددًا أمام الأبواب مما يعد علامة أكيدة على أن الشعور الأمريكى بالروابط المدنية يموت. وحماية القانون تنكمش أيضا. فنحن مدعوون باستمرار بأن نهتم بأنفسنا وبنى جنسنا، دونما اهتمام بأولئك الذين يعيشون فى ظروف مختلفة. والرمز الكبير لهذا هو دور الحكومة الذى يتقلص بوصفها الضامن، والمانح للحاجات الإنسانية عند الضرورة. وتخفيضات الضرائب ربما تكون محفزات اقتصادية وربما لا تكون كذلك، ولكن المؤكد أنها ضربات مميتة للعيادات، والمدارس، والمكتبات، والمعامل، وبنوك الطعام - والدافع لدى الشباب لكى يعملوا فى الخدمة العامة. تخيل وطننا فى شكل بركة تكاثرت فيها الزنابق بحيث لم تترك سوى بصيص من ضوء الشمس يكفى لازدهار أوراق قليلة، على حين تغرق كل الزنابق الأخرى فى الظلام المهلك. ومع ذلك، فإن الزنابق المحظوظة ربما تتوهم للحظة أن لا علاقة لها بالبقية، وهوما يجعل فناءها حتميّا أيضا.

الحرب فى الخارج، والقسوة فى الوطن، وكارثة بيئية أيضًا. وفى اليوم التاسع والعشرين، ربما لا تبدو الأشياء على هذه الدرجة من السوء؛ ولكن هل نحن لدينا ما هو أكثر «من فترة واحدة قبل النهاية»؟ هذا السؤال الملح يجب أن يحدد الفصل السياسى الذى يبدأ الآن - إنه التحدى الذى فات أوانه أمام چورج دبلو بوش الذى تخنق سياساته الأمة والعالم.

***



THE AMERICAN EMPIRE PROJECT

الجزء الثالث

الحرب

CHRONICLES OF
AN UNJUST WAR

١٠- العراق

JAMES
CARROLL

(١٠)

العــراق

في ١٧ مارس ٢٠٠٣م خاطب چورچ دبليو بوش الأمة قائلاً: «رفاقي المواطنين، لقد وصلت الأحداث في العراق الآن إلى الأيام الأخيرة لاتخاذ القرار. . . ونحن نتصرف الآن لأن مخاطر عدم التصرف ستكون أكبر كثيراً».

ثم أشار إلى أسلحة الدمار الشامل، قائلاً: «بهذه القدرات يمكن لصدام حسين وحلفائه من الإرهابيين أن يختاروا لحظة الصراع المميت عندما يكونون هم الأقوى». وفي إشارة واضحة إلى الحادي عشر من سبتمبر أضاف: «نحن نختار أن نواجه هذا التهديد الآن، حيث يبرز، قبل أن يمكنه الظهور فجأة في سماواتنا وفي مدننا».

وكان التأييد الأمريكي الواسع للحرب قائمًا في أغلبه على الربط بين العراق وهجمات الحادي عشر من سبتمبر، والهلع من تلك «القدرات العراقية». ولم تكن أيٌّ منها موجودة كما يعرف معظم الناس في العالم، وأقلية نشطة في الولايات المتحدة الأمريكية. وباتت مشروعية الحرب محل تساؤل، ولا سيما، من جانب فرنسا وألمانيا. وحتى في البلاد التي كان قادتها مؤيدين لبوش مثل إسپانيا وإيطاليا، وبلدان من «أوروپا الجديدة»، كانت الأغلبيات الشعبية تقف بصرامة ضد الحرب. وقبل بدء الهجوم على العراق بالفعل، كانت شوارع المدن الكبرى في العالم تغص بالمحتجين- في مظاهرات احتجاجية لم يسبق لها مثيل.

وبعد يومين من خطاب الرئيس، بدأت عملية «حرية العراق». ووفقًا لمجموعات الأطباء المراقبين، قتلت الحرب ٥٥ ألف ضحية منهم حوالي عشرة آلاف مدني. ومع بداية سنة ٢٠٠٤م، كان أكثر من ٥٢٥ أمريكي قد قتلوا، وحوالي ٢٧٠٠ جريح معظمهم أصيب بعاهات مستديمة (لم تصل أعداد المصابين الأمريكيين في ڤيتنام إلى هذا المستوى حتى سنة ١٩٦٥م، أي بعد عامين من التورط هناك). وقد أدت الحرب

إلى المزيد من تدهور البيئة العراقية، والبنى التحتية الاجتماعية، والنظام المدنى، ونظام الرعاية الطبية، والتغذية. وقد وافق معظم العراقيين على إزاحة صدام حسين حسبما أشارت التقارير، ولكن تبرير إدارة بوش للحرب تم ربطه ليس بالديمقراطية أو حقوق الإنسان، وإنما بالتهديد الوهمى لأسلحة الدمار الشامل. وعلى مدى ثمانية شهور أفلت صدام حسين من الأسر.

وخارج العراق، التهبت مشاعر المتطرفين من بين العرب والمسلمين. وفى المناطق السنية بالعراق، بدأ التأييد لصدام الغائب يظهر علنًا. وانتشرت المقاومة ضد الاحتلال العراقى ببطء من وسط العراق الذى يسيطر عليه السنة، إلى مناطق خاضعة لسيطرة الشيعة. وبدلاً من «الأيام الأخيرة»، كانت الحرب هى بداية فوضى جديدة.

فى الأمم المتحدة

١١ فبراير سنة ٢٠٠٣م

لا تترك كولين پاول يخدعك. فبشهادته أمام مجلس الأمن الأسبوع الماضى، جعل وزير الخارجية الكثير من السياسيين الذين كانوا مترددين من قبل، ينضمون إلى حزب الحرب. بيد أن ذلك مقياس مدى ما كان عليه الجدل الأمريكى حول الحرب ضد العراق من سذاجة. فالمسألة ليست ما إذا كان صدام حسين شريرًا. فقد أكد اتهام پاول سلوك العراق السيئ، على الرغم من أن ذلك لم يحمل أية مفاجآت أو ظهور لتهديد مفاجئ. وإنما تتعلق المسألة بما الذى ينبغى فعله إزاء سلوك صدام السيئ.

ولا يخدعنك دونالد رامسفيلد أيضًا. فقد قال وزير الدفاع فى ميونيخ يوم السبت: «إن مخاطر الحرب يجب موازنتها مع مخاطر عدم فعل شىء، على حين يتابع العراق إنتاج أسلحة الدمار الشامل». وتمامًا مثلما غش پاول حول ماهية السؤال، غش رامسفيلد حول عدم وجود بديل للحرب. إذ إن عمليات التفتيش المستمرة بل الأكثر غلظة، مثل تلك التى اقترحتها فرنسا وألمانيا، هى بديل للحرب كما أن الاحتواء بديل للحرب. والتطبيق العدوانى لمبادئ القانون الدولى بديل للحرب.

لقد كان تلخيص كولين پاول الادعائى للقضية ضد صدام حسين استهلالاً ليس لمزيد من الإثارة للحرب، وإنما لشهادة قانونية ضد الرئيس العراقى بارتكاب جرائم ضد الإنسانية. وتسأل نفسك، فى أية محكمة، وتحت أية سلطة؟ إن حرب أمريكا الوشيكة تأخذ شكلاً عبثيًا - ومأساويًا أيضًا - فى ضوء ما يجرى الآن. ففى الأسبوع الماضى أنشئت المحكمة الجنائية الدولية بالانتخاب الرسمى للقضاة. وفى الشهر القادم ستكون المحكمة رسمية. وغرضها هو أن تتناول بالضبط تلك التهم التى توجه إلى صدام حسين. والشهادة الإجبارية فى مثل هذه المحكمة، والتى تعقبها المحاكمة، الإدانة، وحكم ينفذه العالم، تحمل إمكانية غير مسبوقة تشبه الليزر فى إطلاق الطاقة الأخلاقية. إن المحكمة تقصد أن تفعل على المسرح العالمى ما حدث بالفعل داخل الأمم - أن يتم إحلال قوة القانون محل قوة العنف. وهو بديل حقيقى للحرب.

ولكن الأمم الـ ١٣٩ التى وقعت على اتفاقية المحكمة الجنائية الدولية لم تعد تضم الولايات المتحدة الأمريكية، منذ قيام چورچ دبليو بوش برفض التوقيع على هذه الاتفاقية. ورفض الولايات المتحدة الإسهام فى المحكمة الدولية الجديدة يجعل هذه المحكمة غير مختصة بالأزمة الحالية، ولكن الرفض يكشف صراحة أيضًا عن أفدح مشكلة تواجه العالم: وهى احتقار أمريكا لخلق بدائل الحرب.

وأهم سبب للتشكك فى مزاعم إدراة بوش عن الضرورة لا علاقة له بصدام حسين. وإنما يتعلق بميل بوش الواضح إلى الحرب، وعندما يكون سبب الحرب محل نزاع، فإن إنحياز بوش يؤثر على كل شىء. وقد قورن أداء پاول فى الأمم المتحدة بأداء السفير الأمريكى أدلاى ستيفنسون سنة ١٩٦٢م، ولكن الحرب تم تجنبها فى الأزمة الكوبية، وكما حدث فى أزمة برلين فى السنة السابقة بالضبط؛ لأن چون ف. كنيدى فى خطابه الافتتاحى الذى غالبًا ما يُساء فهمه ويرد إلى الذاكرة باعتباره دعوة إلى السلاح فى زمن الحرب الباردة، كان تحديًا مباشراً لخلق بنى جديدة للسلام. فقد اقترح الابتهال من أجل التغير السياسى، ومد وثقية الأمم المتحدة، ونهاية لسباق التسلح؛ وإحلال «توازن القوة مع عالم جديد من القانون»؛ وثقة جديدة من المفاوضات (لا تخشوا من المفاوضات أبدًا)؛ تأكيداً على أن التحضر ليس علامة على الضعف. وفى كل من هذه النقاط - الأمم المتحدة، سباق التسلح، القانون الدولى، المفاوضات، وحتى التحضر - قامت إدراة بوش باتخاذ مسار عكس الحركة التى كانت قد بدأت مع كنيدى.

أما بالنسبة للحرب، وفى أكثر فقرة يتم تذكرها بشكل خاطئ، فقد أوضح كنيدى رفضه لها: «إن الطبول تُقرع الآن لكى تجمعنا - ليس كدعوة لحمل السلاح، على الرغم من أننا نحتاج السلاح، وليست كدعوة للمعركة، على الرغم من أننا نخوض المعركة، ولكن الدعوة لحمل عبء نضال طويل، نضال سنة فى الداخل وسنة فى الخارج . . . نضال ضد الأعداء المشتركين للإنسان: الطغيان، والفقر، والمرض، والحرب نفسها».

إن الحرب نفسها هى العدو. ليست عاطفة «المثاليين» ولكن الاستنتاج البراجماتى للرجال والنساء الذين شاهدوا أهوال الحرب فى القرن العشرين. فى رفض حرب بوش، تكرم فرنسا وألمانيا تلك الذكرى اليوم، وكذلك يفعل الذين أقاموا المحكمة الجنائية والدولية. «لا حرب بعد اليوم» - هذا ما أعلنه البابا بولس السادس - فى الأمم المتحدة أيضًا - سنة ١٩٦٥م. عندما صاح «لا مزيد من الحروب» حياه جيل من قادة العالم، كلهم باستثناء واحد. وحينذاك أيضًا، فى ذلك الخريف أيضًا الذى شهد «الرعد المتدحرج»، خيّب رئيس أمريكى شوقًا عالميًا إلى طريق آخر. ولكن البابا، فى خطابه أمام الأمم المتحدة، لم يتردد فى أن يقرر «لقد رحل رجل عظيم، هو چون كنيدى» ضد الدعوة للحرب فى واشنطن، كما أننى لا أتردد أيضًا. لقد تذكر البابا كنيدى بقوله: «إن على البشرية أن تضع للحرب حدًا، وإلا فإن الحرب ستضع نهاية الجنس البشرى».

* * *

عصر البراءة

١٨ فبراير ٢٠٠٣م

كتب اللورد بيرون: « هذا هو العصر المفتوح للاختراعات الجديدة/ لقتل الأجساد وإنقاذ الأرواح. وكلها تولدت عن أحسن النوايا». هذه السطور استخدمت لتصدير كتاب جراهام جرين The Quiet American. وقد ظهرت تلك الرواية للمرة الأولى سنة ١٩٥٥م، ولكن نسخة منها على شكل فيلم وصلت إلى دور العرض الأسبوع الماضى، وهو تجديد جاء فى وقته للنبوءة التى تحملها. والدور الذى قام به مايكل كاين لتمثيل شخصية توماس فولر، الصحفى البريطانى الذى أدمن الأفيون والذى يصارع - ويصادق - أحد منفذى عمليات المخابرات الأمريكية، والذى تم ترشيحه للأوسكار

للتو. وربما يذهب الأمريكيون لمشاهدة هذا الفيلم بسبب الأداء التمثيلى الرائع، ولكن فى «العصر المفتوح» للحرب القادمة، ربما يجدون شيئًا أكثر من هذا.

لقد كان جراهام جرين خبيرًا ليس بالخير والشر ولكن بالبراءة والفساد. وأخطار الفساد معروفة جيدًا ـ ولكن البراءة هى التى ينبغى الخوف منها بشكل خاص. فقد كان جرين واقعًا تحت وطأة الاستحواذ من هذا التناقض الأخلاقى. ففى «The Power And The Glory»، يكون مساعد الشرطة حسن النية مصدرًا للموت والفوضى، على حين يحضر القسيس الهارب المنشق أولئك الذين يقابلهم إلى رحاب الحياة التامة. ويعانى «سكوبى»، بطل «The Heart of The Matter» من «الفساد بالشفقة» ويجسد مأساة التدخل الأوروبى فى أفريقيا. وفى «Honorary Consul»، حيث يتم خطف أمريكى على أيدى الثوار فى الأرجنتين، يوضح ملامح شخصية أساسية يكون بالنسبة لها «الاهتمام هو الشىء الوحيد الخطر». ودائمًا، البراءة التى يعرفها جرين فى «The Quiet American» باعتباره «المنبوذ الغبى الذى فقد جرسه، ويجوب حول العالم، دونما قصد بأن يؤذى أحدًا». والمنبوذ هو الشخصية الأساسية فى «The Burntout Case»، والتى تجرى أحداثها فى الكونغو، حيث المسألة ما بين البراءة الغبية والعدمية. واسم البطل Querry.

يمكن للمرء أن يحكى القصة الوحشية للاستعمار الأوروبى باعتبارها ملحمة حافلة بمخاطر النية الحسنة. (فالبلچيك، على أية حال، بدأوا عمليات الإبادة فى الكونغو باسم القضاء على الرق). فالنيات الحسنة تكون عباءة لأچندة أكثر غموضًا، وبوصفه رجلاً إنجليزيًا جاء فى عصر تجلت فيه الأعمال الوحشية النبيلة من الخنادق خلال الحرب العالمية الأولى (الحرب لإنهاء الحرب)، كان جرين يعرف هذا جيدًا.

بيد أن جرين أنجز رائعته الأدبية حينما طبق هذا النقد على الدافع الأمريكى الوليد فى ڤيتنام، كما أنجز أكثر انتقاداته السياسية حدة. إذ إن آلدين پايل، الأمريكى الهادئ الذى يشير إليه عنوان الرواية The Quiet American، رجل تضم رفوف مكتبته كتب سياسية مثالية من نوع The Challange To Demoraay، ولكن على نفس الرف يوجد كتاب The Physiology Of Marriage مما يشير إلى براءته المثيرة للشفقة عندما يتعلق الأمر بالشئون الجنسية. وپايل مشدود إلى عشيقته فولر، وهى امرأة جميلة تدعى

«فوونج». ويريد پايل أن ينقذها من فولر، الذى يجسّد فساد «أوروپا القديمة»، إذا ما استخدمنا العبارة الجارية فى واشنطن. ويريد پايل إنقاذ وطن «فوونج» أيضًا، بهدف خلق« قوة ثالثة» فاضلة ليست شيوعية ولا استعمارية. ويعترف فولر بقوله: «نحن الشعوب الاستعمارية القديمة يا پايل، ولكننا تعلمنا قدرًا من الحقيقة، تعلمنا ألا نلعب بالكبريت. هذه القوة الثالثة - إنها تخرج من كتاب».

ومع هذا، فإن پايل لا يقدم الكبريت فقط ولكن المتفجرات. وبعد قصف مرعب بالقنابل يريق الكثير من الدماء، يخبر فولر پايل « لقد وضعت القوة الثالثة والديمقراطية الوطنية على حذائك الأيمن». ويرى فولر ما سوف يأتى فى سياق التدخل الأمريكى، ولكن پايل لا يراه. «لقد كان مسلحًا بشكل محصن بنواياه الحسنة وبجهله». أما فولر، الذى لم يكن لديه أى أحساس خاص بالفضيلة، فيقوم بالتصرف أخيرًا ضد پايل ويصبح متورطًا فى قتله. ومع موت الأمريكى، لا يكون أمام عشيقة فولر خيار سوى العودة إليه. ويقول السطر الأخير من الرواية «لقد مضى كل شىء على ما يرام معى منذ أن مات، ولكننى أتوق إلى أن يكون هناك شخص موجود أستطيع أن أقول له إننى آسف».

ورؤية جرين رؤية مكشوفة، كما لو أن الخيار الوحيد هو بين البراءة الجاهلة المدمرة والفساد المؤذى ولكنه واع بذاته. وليست رواية The Quiet American تنبؤية فى أىّ جزء منها أكثر من ذلك الاسم البسيط الذى أعطاه جرين للمرأة التى تحرك كلاً من الرجلين. ويقول فولر عن اسم «فوونج»: «إن معناه العنقاء، ولكن لا يوجد اليوم شىء خرافى، ولا شىء يقوم من بين الرماد». ولكن ما لم يستطيع جرين أن يعرفه فيما بين عامى ١٩٥٢م و١٩٥٥م عندما كتب الرواية، هو أن الدائرة النهائية للجحيم فى خلفاء پايل فى CIA ، سوف تنزل من المثالية، إلى برنامج أواخر الستينيات للاغتيال، والذى يسمى «عملية العنقاء» «عملية فوونج».

إن ڤيتنام تطارد روحنا الوطنية لأن عنف أمريكا قد تحرك على نحو جيد تمامًا، تدمير القرى، نعم، ولكن فقط لإنقاذها. وتعلمنا ڤيتنام أن المقاصد الحسنة لا تكفى. وفى العصر المفتوح للاختراعات الجديدة، يجب أن تكون هناك بنفس القدر المعرفة - ونحن نأخذها من جرين ولكن أيضًا من الجيل الذى حقق نبوءته - بأن إنقاذ الأرواح بقتل الأجساد أمر مستحيل. تأمل أمة تعلن براءتها وهى فى الطريق إلى الحرب.

راقب الحرب بعينيك الاثنتين

٢٥ فبراير ٢٠٠٣م

لأن دائرة الفوضى كانت تطبق على المملكة، فقد ذهب البطل إلى الوحش الخرافى، وأخضعه بالقوة، وطلب أن يعرف سر إرساء النظام من رحم الفوضى. وأجاب الوحش الخرافى «أعطنى عينك اليسرى وسوف أخبرك». ولأن البطل كان يحب شعبه المهدد بدرجة كبيرة، فإنه لم يتردد. وخلع عينه اليسرى وأعطاها للوحش، الذى قال له حينئذ: «إن السر فى سيادة النظام على الفوضى هو: راقب بعينيك الاثنتين».

هذه القصة، من الروائى الراحل چون جاردنر، توضح بالضبط المشكلة الأمريكية. فنحن مقبلون على حرب بعين واحدة فقط. وتلك العين ترى العراق وصدام حسين وتهديد الإرهاب، والانفصال عن ـ أوروبا القديمة ـ بمثابة الفناء الأمامى المخيف فى عالم ما بعد ٩ـ١١. ولكن مانراه هو الخلفية الأكبر حيث تكمن أخطار أشد فتكًا بكثير. فليست لدينا عين ننظر بها إلى أية إمكانية حقيقية، بأن هذا الحرب المتباهية المختالة، التى تتراوح مع روح «نحن أو هم» التى تهيمن على السياسة الخارجية الأمريكية، لابد وأن تجبر روسيا والصين على العودة إلى العداوة المسلحة التى سادت فى زمن ولى وراح. إن إعادة هذه العداوة، سوف يعيد كلتا القوتين، سواء بشكل مستقل أو مع بعضهما، إلى خندق التهديد النووى ـ الطريقة الوحيدة للحد من ممارسة واشنطن القطب الأحادى للقوة. ومن المثير للسخرية، أن كون نجاة العالم من الرعب النووى فى الحرب الباردة، يبدو أنه جعل الشعب الأمريكى يفترض أن مثل هذا التهديد لن يظهر أبدًا، وهو السبب الوحيد فى أن الأخطار الأقل التى يحملها صدام حسين والقاعدة قد آذتنا على هذا النحو.

ولكن الخطر النووى الذى تحمله القوة العظمى قد عاد. ومن المعلوم جيدًا أن الولايات المتحدة، وروسيا، والصين بدرجة أقل، تحتفظ بترسانات نووية قادرة على تدمير العالم. ولكن ما لم تتم ملاحظته بشكل كاف هو أن القوى النووية قد توقفت عن العمل لإزالة الأسلحة النووية، وتعتمد بشكل متجدد عليها لضمان السلامة القومية. وكان هذا واضحًا منذ سنة فى واشنطن مع تقرير الموقف النووى الذى أصدره

البنتاجون، ولكن ليس هناك فقط. فبينما أعلن ليونيد بريچنيف (فى استجابة لحركة على اتساع العالم تنادى بتجميد التسلح النووى) سنة ١٩٨٢م أن موسكو لن تكون أبدًا هى البادئة فى استخدام التسلح النووى، تخلى ڤلاديمير پوتين (ردًا على الحرب الجوية التى شنها حلف الأطلنطى سنة ١٩٩٩م على صربيا) عن هذا الوعد سنة ٢٠٠٠م. وقد اقترح ميخائيل جورباتشوف سنة ١٩٨٦م التخلص من جميع الأسلحة النووية؛ ولكن مفهوم پوتين الجديد للأمن، مثّل مذهب بوش الاستراتيچى الجديد، يفترض الإبقاء عليها.

وكذلك الحال مع الصين. فعندما أعلنت واشنطن فى العام الماضى تخليها عن اتفاقية الحد من الصواريخ الباليستية، كان بوسع بكين أن تفترض بشكل معقول أن نظام الدفاع الصاروخى فى الولايات المتحدة سوف يحد من قيمة الردع لترسانة الصين النووية الصغيرة نسبيًا مما يمثل دافعًا جبريًا لسباق التسلح، ويصبح البرنامج الصينى الوليد لعسكرة الفضاء ردًا حتميًا على برنامج حرب النجوم الذى أعاد البنتاجون إحياءه. إن سباق التسلح قد بدأ.

فما الذى أمامنا هنا؟ روسيا تنتصب منتبهة بسبب التحركات الأمريكية فى آسيا الوسطى؛ والصين القلقة دائمًا من تايوان التى سلحتها أمريكا - هى الشروط الملائمة لحرب باردة متجددة - وما هو أسوأ. هذه هى الخلفية التى تعمينا عنها عيننا المفقودة. إن الحرب فى العراق سوف تفتح على جميع الأهوال المرعبة، التى يمكن أن تنتشر بسرعة. إن نزوع روسيا الحربى المتسارع سوف يؤدى إلى زعزعة الاستقرار فى أوروپا الشرقية وألمانيا التى تزعج أمريكا، والتى ربما تعمل فى النهاية على إنتاج أسلحتها النووية الخاصة بها. وتصعيد الصين فى التسليح النووى سوف يشعل تصعيد الهند بالشكل الذى يزيد الضغط على اليابان، وأخيرًا، لكى تمتلك الأسلحة نووية. والنيران المتأججة بالفعل فى كوريا الشمالية وپاكستان يمكن أن تندلع بسهولة. وثمة نظرية دومينو - سقوط المنع النووى أمام التكاثر النووى الشامل - سوف تبرهن عل صحتها فى النهاية. وهى سلسلة جديدة من ردود الأفعال.

إن المراقبة بكلتا العينين تتيح لنا أن نرى أننا بالتعامل مع صدام حسين، لا يهم اقتناع أية دولة أخرى أكثر من اقتناع روسيا والصين. ولماذا؟ ببساطة لأن روسيا والصين يمكنهما، معنا، إطلاق القوى التى تدمر العالم. إنه أمر أكثر حسمًا عن ذى قبل، بناءً

على الحصاد السلمى الذى يقترب من الإعجاز للحرب الباردة، أن نقيم أبنية للثقة والتبادلية مع هذين العدوين السابقين. ومع هذا فإن العكس هو الذى يحدث. فإذا عمدت واشنطن أن تنطلق للقضاء على موسكو وبكين، فلا بد أن تبدو سياستها على النحو الذى تبدو عليه إدارة بوش تمامًا.

ويبدو أن الأمريكيين لم يلاحظوا أن كلاً من روسيا و الصين تعارض خطة الولايات المتحدة لغزو العراق - وهى معارضة كان يجب أن يكون وزنها أبعد كثيرًا من معارضة حتى فرنسا وألمانيا. ويكون من حق روسيا والصين أن تشعرا بالتهديد المباشر إذا ما واجهتا هذا الاستعراض الذى يظهر فقط على أنه هجوم إمبريالى أمريكى. ويمكن أن نتوقع منهما أن تسرعا إلى بناء قوة مضادة تهدف إلى تحديد قدرات واشنطن، وترفع مستوى التهديد الكارثى الذى سيجعل من حرب اليوم على الإرهاب - وحتى حرب الغد على العراق - تبدو مثل الأيام الخوالى الطيبة. ومعنى مراقبة حرب الولايات المتحدة العدوانية الوشيكة بكلتا العينين تعنى معارضتها.

***

سياسة حرب تنهار

٤ مارس ٢٠٠٣م

ما الفرق الذى يحدثه شهر؟ فى ٥ فبراير جعل وزير الخارجية كولين پاول قضية إدراة بوش ضد العراق من خلال عرض للسلطة حرّك الكثير من الموظفين والمنتقدين خارج دائرة الرفض ودخلوا إلى دائرة القبول. فقد جعل الحرب تبدو حتمية، مما دعا ملايين الناس آنذاك للتعبير عن معارضتهم فى الشوارع حول الكرة الأرضية. وعلى مدى الأسابيع التالية، دار الجدل بين الصقور والحمائم واتخذ صورة للأيديولوچيين الذين يضربون بعضهم بعضًا من مواقع ثابتة. وبدا أن الغضب الهائج من جانب معارضى الحرب والتجريدات المتكلفة الحمقاء من جانب مؤيدى الحرب، كلاهما لا علاقة له بحشد القوات. فقد كانت الحرب آتية. وكان المزيد من الجدل بلا فائدة. وبدا وكأن الوقت قد حان، أخيرًا، لكاتب العمود فى الصحيفة أن يغير الموضوع.

ثم جاءت أحداث الأسبوع الماضى. ففى غضون أيام قليلة، أظهرت سياسة الحرب التى تتبعها إدراة بوش فجأة علامات الانهيار الأولية. وليس هناك من بين هذه

التطورات ما يقف فى حد ذاته علامة على تغيير بالنسبة لبوش، ولكن إذا ما أخذناها سويّا فإنها تشير إلى أن قانون «العواقب غير المقصودة»، الذى يشتهر بإفساد أفضل الخطط التى يضعها المحاربون، يمكن أن ينطبق هذه المرة قبل أن تبدأ الحرب رسميًا. تأمل ما حدث بينما كان فبراير يتلاشى أمام مارس.

* اضطر تونى بلير إلى انتقاد چورچ دبليو بوش بسبب عناده فى المسائل البيئية، وهو توقيت غريب لمثل هذا الانتقاد من حليف وثيق، ومع ذلك فهو جهد واضح للابتعاد عن واشنطن بقدر ما. لماذا الآن؟

* اختار والد الرئيس أن يتحدث فى خطبة تؤكد على أهمية كلّ من التعاون من جانب العديد من الدول، والواقعية فى التعامل مع أشباه صدام حسين. والقول، كما فعل بوش الكبير، بأن التخلص من صدام حسين سنة ١٩٩١م لم يكن أهم شىء، يثير السؤال: لماذا أصبح هو الشىء المطلق الآن؟.

* للمرة الأولى منذ بداية الأزمة، بدأ العراق فعلاً نزع سلاحه، وحطم صواريخ صمود ٢، ومن الواضح أنه يجهز لاستحضار مفتشى الأسلحة لكى يطلعوا على سر الأنثراكس وغاز الأعصاب. وكان يمكن لإدارة بوش أن تدعى أن هذا انتصار تمارس على أساسه المزيد من الضغوط نحو نزع السلاح.

* بدلاً من ذلك، حفزت عمليات تدمير الأسلحة العراقية المؤكدة واشنطن على مزاوجة دعوتها إلى نزع السلاح، مع دعوتها القديمة المدانه ديپلوماسيّا بتغيير النظام. ولن يكفى تجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل لتجنب الحرب. وكان المتوقع، وحدث فعلاً أن سأل العراق لماذا تعين على صدام حسين أن يتخذ خطوات لنزع السلاح إذا كان محكومًا على حكومته بالهلاك؟ على أية حال إن عدم إتساق بوش فى هذه النقطة - نزع السلاح أم تغيير النظام؟ - قوضت القضية الأولى للحرب. وكونها تعاود الظهور الآن، وهى تطمس مجادلة پاول منذ شهر مضى، يعتبر أمرًا خطير وقاتلاً بالنسبة للتماسك الأخلاقى لموقف المجندين للحرب.

* لقد أعلن وزير الخارجية الروسى استعداد بلاده لاستخدام حق الڤيتو فى مجلس الأمن لتقويض الآمال الأمريكية فى موافقة الأمم المتحدة على الحرب.

* وعلى الرغم من تقديم عدة بلايين مساعدات، رفض البرلمان التركى الموافقة على الطلبات الأمريكية لشن عمليات هجومية من القواعد الأمريكية فى تركيا ـ مما مثّل أكبر ضربة ضد خطط الولايات المتحدة الحربية حتى ذلك الحين. هذا الإخفاق الذى حاق بدبلوماسية بوش، بحيث قضى على جبهة ثانية، سوف يتم دفع ثمنه من حياة الأمريكيين.

* والقبض فى پاكستان على خالد شيخ محمد، الذى كان من كبار رجال القاعدة، لابد وأنه كان الخبر الطيب الوحيد بالنسبة لإدارة بوش، ولكنه أوضح الفرق بين مطاردة مرتكبى أحداث ١١ سبتمبر، والحرب التى تشن على العراق بدون ما يربطها بذلك. أسامة بن لادن نعم. صدام حسين لا.

* أما الموظفون الأمريكيون، الذين يعارضون التصورات العسكرية، ثم يرفضون الشهادة أمام الكونجرس لتقدير نفقات الحرب وجهود ما بعد الحرب، فقد أظهروا إما عدم كفاية استعدادات الإدارة أو تصميمها، من خلال السرية، على عرقلة الإجراءات الديمقراطية ـ فاختر أحدهما.

* وفى تطورات أخرى، وفى توضيح حماقة واشنطن المثيرة للفزع، رفضت الفليبين أن تساعد القوات الأمريكية التى وصلت للقتال، وكان واضحًا أن كوريا الشمالية قد أعدت العدة لبدء إنتاج البلوتونيوم، وأمر وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بالنشر الفعلى لوحدات الدفاع الصاروخى فى كاليفورنيا وآلاسكا، رافعًا المزاعم العبثية (واللاقانونية الآن) بأن المزيد من الاختبارات غير ضرورية.

ويشير هذا كله إلى إدارة ترتبك سياساتها وتفتقر ممارساتها إلى الكفاءة. إن الكفاءة التى يتحرك بها العسكريون الأمريكيون لاتخاذ موقع الهجوم أمر مؤثر؛ إذ إن آلافًا من الأمريكيين فى الزى الرسمى يستعدون لتنفيذ الأوامر التى يصدرها قادتهم المدنيون بشجاعة واتقان. ولكن فراغ هذه القيادة المدنية الذى تجلى عاريًا فى أخبار الفوضى فى الأسبوع الماضى، يقطع الأنفاس. وكون أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تكون على حافة حرب مثل هذه الحرب غير المفهومة جيداً وغير الضرورية، هو بحد ذاته جريمة. والأمل معقود الآن ـ حتى قبل أن تبدأ الحرب رسميًا ـ على أن خصائصها الحقيقية تكشف عن نفسها بالفعل، وهو ما يمكن أن يكون كافيًا، فى النهاية، لإيقافها.

تأمل فى الحرب

١١ مارس ٢٠٠٣م

حتى تبدأ الحرب، يجب أن يصرّ المرء على أنها ليست حتمية. فالحكمة التقليدية هى أن الولايات المتحدة، التى نشرت بالفعل قواتها المقاتلة الضخمة، لا يمكن أن تتراجع عن الهجوم ضد العراق دون مهانة ـ وخسارة فادحة فى «المصداقية». ولكن «الحكمة» تفشل فى أن تأخذ فى حسابها الحقيقة الأساسية فى الاستراتيچية العسكرية. «العنف هو الذى يكون الأكثر هدفًا والأكثر نجاحًا» حسبما كتب المنظر توماس سى. شيلينج «عندما يتم التهديد به ولا يتم استخدامه. والتهديدات الناجحة هى التى لا تحتاج إلى تنفيذها». ويبدو أن إدارة بوش مرتبكة بهذا الخصوص، كما لو أن الحركة من التهديد إلى الفعل أمر جامد. فلماذا يجب على واشنطن أن تظهر مثل هذه اللامبالاة المتسقة للنجاح الواضح الذى حققته تهديداتها لصدام حسين؟ لقد انحنى الطاغية باطراد لإرادة واشنطن، وأبدى كل إشارة على الاستمرار فى هذا على الرغم من صخبه.

ولكى نطرح السؤال بطريقة أخرى: لماذا لم تعلن واشنطن الانتصار، وتشرح أن هذا الاستسلام البطىء من جانب العراق لسلسلة من الضغوط ـ المفتش هانز بليكس فى جانب، والچنرال تومى فرانكس على الجانب الآخر ـ هو ما يبدو عليه النصر الآن؟ وبدلاً من فقدان المصداقية، فإن هذا الحل الذى يمنع حربًا مفتوحة سوف يقال إنه يمثل انتصار التهديد المميت مقرونًا بعملية سياسية، وهو مثال راق على القوة العسكرية التى تستخدم بقوة حقيقية. وكبح جماح هذه القوة أمر أساسى بالنسبة لها. ولكن بدلاً من ادعاء تحقيق هذا الإنجاز والبناء عليه، تبدو واشنطن وقد عقدت العزم على تبديد إنجازها والذهاب إلى الحرب ـ على الرغم من التراكم المطرد للأسباب التى تدعوها إلى ألا تفعل هذا. فلماذا؟

لقد تحركت أهوال الحرب إلى الجزء الأمامى من العقل العام كلما اقترب يوم الصفر. عجزت عن الإقناع كل الأسباب التى أقرتها إدارة واشنطن للتحرك من التهديد إلى العنف، وعدم كفاية تلك الأسباب تشى بأن شيئًا آخر قيد التنفيذ. فماذا يمكن أن

يكون؟ يتطلب هذا السؤال تفكيرًا شاقًا فى الجانب الآخر من الحرب ـ ليس أهوالها وإنما جاذبيتها. فهل يمكن أن يكون الأمر أن هناك رغبة غير واعية للذهاب إلى الحرب ـ هى التى تسوق چورچ دبليو بوش والدائرة المحيطة به على طول المدى؟

خدم پيير تيلهارد دى شاردان، العالم ـ القسيس الكبير، فى الخدمة الطبية فى خنادق الحرب العالمية الأولى. وشاهد أهوال الحرب عن قرب. ولكنه رأى الشىء الآخر أيضًا. وكتب «إن الجبهة تجتذبنا؛ لأنها بطريقة ما هى الحدود القصوى بين ما تدركه وتعيه بالفعل، وما يزال تحت التشكيل والتكوين. فأنت لا ترى هناك فقط الأشياء التى لا تجربها فى أى مكان آخر، ولكنك أيضا تشاهد تيارًا من الوضوح والطاقة والحرية تبزغ من داخلك لا يمكن أن تجده فى أى مكان آخر فى الحياة العادية».

ويبدو واضحًا أن إحساس بوش بنفسه باعتباره رئيس حرب، «رجل الجبهة» هو مصدر «الوضوح والطاقة والحرية» التى لم يكن ممكنًا أن تكون من خصاله فى أحوال أخرى عدا ذلك. لقد ذهب قادة وأمم كاملة إلى الحرب باعتبارها طريقًا للخروج من غموض «الحياة العادية»، وغرائبها. وحددوا أهدافهم فى البلاغة الراقية عن الشرف والمجد، بينما كانوا يُشبعون الحاجات الأساسية تمامًا، وهو ما كان بغرض الهروب من التفاهة. ولن يكون الرئيس بوش أول قائد يقود شعبه إلى حرب لسبب مثل هذا، ولن تكون أمريكا هى أول بلد ترحب بالحرب لمثل هذا السبب. والواقع، أنه لفترة ربما كانت الأمة بأسرها تستمد نوعًا من المؤازرة الحية من كونها على «الحدود القصوى»، حيث يكون الأداء البشرى مرهفًا، والاختيارات بطولية، ويحل محل «ضباب السلام» رؤية بللورية للقيمة الثمينة للحياة، ومن دواعى السخرية، أن يتم ذلك بإضاعة الحياة. وكما يعرف أولئك الذين بلغوا من العمر ما يجعلهم يتذكرون ڤيتنام ـ أولئك الأمناء بحيث يعترفون بهذا ـ فإن هذه الحدود القصوى كان لا بد أن تصبح مملكة لأولئك الذين يكرهون العنف بقدر ما هى مملكة لأولئك الذين يفرضونه. إن الحياة التى بنيت حول المعارضة شديدة الكثافة للحرب يمكن أيضًا أن تصبح حياة تم إنقاذها من الوسطية ـ أو تحتها ـ التى تتسم بها التجربة الدنيوية.

هناك حقيقة مؤلمة هنا يجب على الجميع أن يعترفوا بها. إذا تحركت هذه الأمة بالفعل، ضد كل الأسباب المعقولة ـ من التهديد إلى العنف، فإن «الوضوح والطاقة

والحرية» سوف تكون من نصيب أولئك الذين غرضهم إيقاف الحرب بقدر ما هى من نصيب أولئك الذين يخوضون الحرب. وقد لاحظ تيلهارد «إن هذا الإفراط بالشعور بالقوة يصحبه ألم معين. ومع هذا فإنه إفراط حقّا. وهذا هو السبب فى أن المرء يحب الجبهة على الرغم من كل شىء، ويفتقدها». إن ما يعترف تيلهارد بأنه يحبه هنا ويفتقده، هو المكان الذى مات فيه عشرة ملايين من البشر، وأصيب فيه عشرون مليونًا آخرون بالجروح والعجز. ومع هذا فإنه من بين كل أهوال الحرب، أليس هذا هو الأشد غرابة ـ أن البشر، حتى القدوة منهم مثل تيلهارد، يمكن أن يحبوا الحرب؟

***

الحرب فى العراق

٢٥ مارس ٢٠٠٣م

انظر إلى ما أصبحت عليه أمريكا. نحن نتحرك على خطوات من الصلب عبر فضاء قاس كمخلوق للتدمير، ننطح السحب التى تغلفنا باللاواقعية والتى نرى من خلالها الأوهام حول كفاءتنا وفضيلتنا. وغلو مزاعم أمتنا فى فضائلها فى حد ذاته أمر مذهل. فنحن نستطيع أن نقرر وحدنا متى يكون استخدام العنف المفرط مبررًا. وقبل هجوم أسلحتنا ستكون مقاومة العدو معدومة. وإظهار «الصدمة والرعب»، فى قصف بالقنابل لم يسبق له مثيل، موجه إلى البشر والمبانى بقدر ما هو موجه إلى الخيال البشرى، فنحن سوف نطوع العالم وفق إرادتنا. وبخلاف كل القوى السابقة فى التاريخ، نستطيع أن نشن الحرب بإنسانية. وسيكون نجاحنا تامًا لدرجة أن أية أمة أخرى لن تكون قادرة على أن تتحدانا أو تقلدنا. وقد مضى زمن التعقيد: أنت إما معنا أو علينا. وأيّا كان موقفك منهما، فإن عالمك سيكون أكثر أمنًا عندما ننهى ما نفعله. وأولئك الذين عارضوا هذه الحرب سوف يعودون صاغرين إلى الصف، إلى مجال سيادتنا. إننا غاية فى الطيبة والنبل.

إن الشباب الأمريكى فى الزى العسكرى يموتون الآن من أجل سحابة الأوهام هذه ـ وكذلك العراقيون من كل الأعمار وفى كل مكان. وعندما يبدأ الموت، تتوقف المناقشة التى تقود إلى الحرب عن ترجيع الصدى. فمن ذا الذى يجادل بعد حول

مخاطر التدخل، والعلاقة بين الغايات والوسائل، والسؤال عما إذا كان صدام حسين شريكًا لأسامة بن لادن أم من لعناته؟ وأولئك الذين عارضوا الحرب انطلاقًا من أن آثارها الطيبة سوف تتوارى أمام الكوارث غير المقصودة ـ الهجمات الكيميائية، إحراق آبار البترول، أعمال الشغب فى الشوارع عبر العالم ـ هم الآن فى موقف من يبتهلون فى صلواتهم لكى يثبت أنهم كانوا على خطأ. وأولئك الذين عارضوها لأسباب أشمل، باعتبارها عملاً متهورًا، سواء كانت ناجحة أم لا، ما يزالون يقولون لا دونما انتظار لما سوف تسفر عنه من نتائج. ومع هذا فإنهم جميعًا مشدودين إلى معركة بغداد، تكاد أنفاسهم تتقطع.

ومن الواضح أن الأمريكيين يؤيدون هذه الحرب تأييدًا ساحقًا ـ ولكن هل نفهمها؟ إن القصف الذى تم بالفعل، مثلا سقطت فيه بالفعل قنابل أكثر مما سقط فى الأيام الأربعين لعاصفة الصحراء. ولنفترض للخطة أن الضحايا المدنيين ظلوا حقًا عند الحد الأدنى بفضل أسلحة «التحالف» الدقيقة. ومع ذلك، فما الذى لا نراه من خلال عدسات الأخبار المركبة فوق أسطح الفنادق على الجانب الآمن من النهر؟ وماذا تعنى تلك الحرائق المتأججة، وكل ذلك الدخان، ما معناه؟ وإذا ما كانت واشنطن هدف «الصدمة والترويع» فى هذه الحملة، لكان الكابيتول قد تحول الآن إلى كومة من الأنقاض، وكذلك كل المثلث الفيدرالى، وذلك الصف من المبانى القائمة على أعمدة فى سبعة تجمعات تمتد فى پنسلڤانيا آڤينيو. ولكان البيت الأبيض قد تحول إلى خرابة (وكذلك كامب ديڤيد ـ وبيت بوش فى مزرعة كراوفورد فى تكساس). ولكان البنتاجون بالطبع قد صار حفرة تفوح منها رائحة نتنة؛ بسبب المياه المندفعة من نهر پوتوماك القريب والتى غمرت الهاوية المشتعلة. وكان لا بد للدمار أن ينال محل إقامة نائب الرئيس على قمة صف السفارات بالقرب من الكاتدرائية الوطنية. ولكانت قاعدة بولينج الجوية وقاعدة أندروز الجوية على جانب الميريلاند من نهر پوتوماك قد راحت طعامًا للنيران. أما فورت مايرز وملحق الأسطول على حافة آرلينجتون؛ وفورت ماكنير والثكنات البحرية جنوب شرق واشنطن؛ والمستشفى البحرى فى بيتيسدا، ومستشفى والتر ريد فى جنوب غرب واشنطن ـ كلها سوف تلتهمها النيران. ومقر أركان CIA فى ماكلين بڤيرچينيا، ستكون ندبة ينبعث منها الدخان فى الأرض الفضاء.

هذا هو الوصف الذى ينطبق على حملة «محدودة»، وأهداف تم اختيارها «بإنسانية» وفقا لاستراتيچية «قطع الرأس». ويمكننا أن نترك إلى وقت لاحق السؤال حول من وكم عدد الموتى والجرحى؟.

وما هو بالضبط الذى كان سيبرر مثل هذا الدمار؟ هل سيجعله عملاً من أعمال الفضيلة؟ وهل من الممكن أن نتصور أن مثل هذا العنف كان يمكن أن يتم إنزاله بروح من التجرد البارد، على أيدى مراقبين يجلسون على طاولات أمام شاشات على بُعد عشرات، أو مئات، أو حتى آلاف الأميال؟ وبأى طريقة كان لمثل «قطع الرأس» هذا أن يشعل شرارة أى شيء سوى الهول الذى يجعل ذكرى الحادى عشر من سبتمبر تبدو حلمًا سارًا؟ وبعبارة أخرى، إذا ما كانت أمتنا على الطرف المستقبل «للصدمة والترويع»، فلن تكون لدينا مشكلة فى أن نرى من خلال سحابة الأوهام ونعرفها كما هى بالضبط: إرهاب، إرهاب خالص وبسيط.

وموجات الإذاعة فوق أمريكا ممتلئة، فعلاً، بلغة المجد والنصر النهائى. ولكن هذا كله يعتمد على القصة التى نحكيها لأنفسنا. هل نحن السادة الجدد للأخلاق والقوة، ونفرض نظامنا على عالم سيكون فى يوم ما ممتنًا لنا؟ هل نحن المنتصرون، أخيرًا، على خداع النفس والتكبر، ونسحق المعارضة فقط لأنها تجبرنا على أن نفعل هذا؟ هل تغلبنا على عدم كفاءتنا والدوافع التى بداخلنا نحو العنف لدرجة أننا أخيرًا يمكن أن نستخدمه بطريقة إنسانية؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن المجد والنصر يكونان حقًا وعدلاً. أما إذا لم يكن الأمر كذلك فإن كل ما نقدمه اليوم زهو وخيلاء ومباهاة.

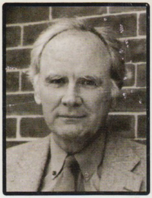
***

المحتويات

الجزء الثالث: الحرب

رقم الإيداع ٣٢٤٨/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N - 977-09-1208-5



هذا الكتاب وهذا المؤلف

چيمس كارول الصحافى والكاتب و المحاضر النشط، صوت متميز من أصوات المفكرين الأمريكيين الذين يدينون غزو أفغانستان ، ثم غزو العراق .

وهو يرى ما تشنه الإدارة الأمريكية حربًا صليبية حقيقية ، وليست زلة لسان من الرئيس الأمريكى ، ويراها عملاً إرهابيًا ، إرهابيًا خالصًا.

يحب چيمس كارول بلده أمريكا، ويريد لها دورًا إنسانيًا مختلفًا فى قيادة العالم ، لمصلحة أمريكا ولمصلحة العالم.

وللكاتب عدة كتب أخرى ، منها « القد... وسيف قسطنطين» الحائز على جائزة الك... والأكثر مبيعًا ، وهو يحاضر عن الحرب وال... التوافق بين اليهود والمسيحيين والمسلمين .

عادل المعلم

6223002801404
تصميم الغلاف: منة محمد